رواية

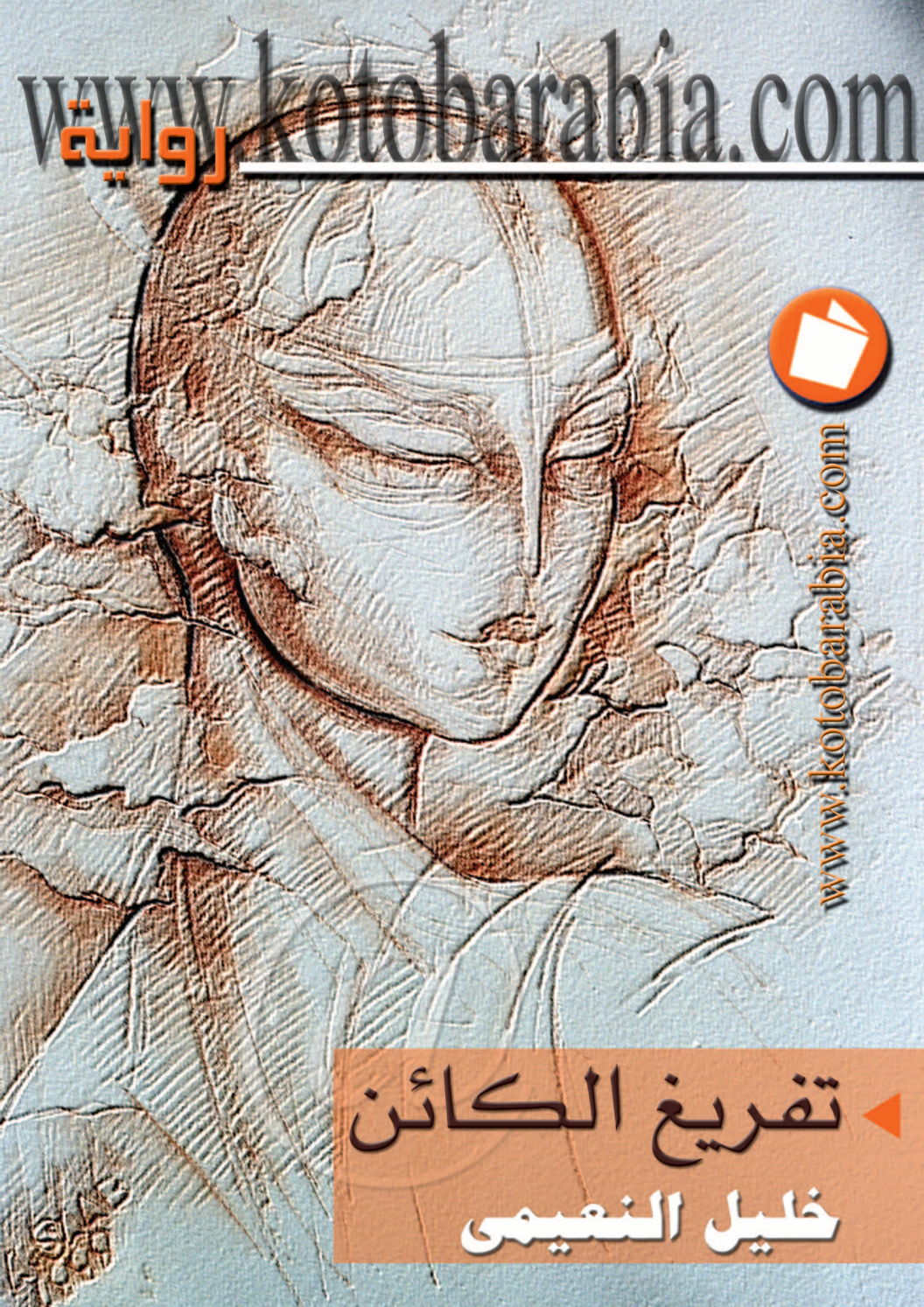

تفريغ الكائن

خليل النعيمى

تفريغ الكائن

خليل النعيمي

(١)

لن أجلس، بعد اليوم، ملتاعا لأكتب.

أكبت لمن؟ ولماذا؟ وكيف؟

يكفي تغير كل شيء.

الكتابة؟ التفكير المستمر بها؟ هوسها وخفاياها.

الكتابة. قناع التُفّه والأفاقين.

لا. يكفي. هذا المساء أريد أن أحكي. أريد أن أبكي. أن أبحـث عن نفسي بين الأنقاض. الكتابة صامتة وبليدة. وأنا هذا المسـاء أبحث عن ضجيج.

منذ سنين وأنا أريد أن أفهم كل شيء. لكن التغلغل المستمر بين اللحظة واللحظة يشل طاقة الإدراك، ويعمي بصيرة النقد.

الآن، في مواجهة الفراغ الهائل، هـذا، أرى بوضـوح مـدى الخسارة والإرهاب لا، لم يكن الزمن زمنين، والعالم لم يكن إلا عالما واحدا شديد الاختلاط.

كنت أريد أن أبدأ المواجهة الأخيرة، أخيـرا. تلـك المواجهـة الحاسمة التي كنت أنتظرها منذ أول الليل. لكن الظلمـة التـي غيرت الملامح والحصون، غيـرت، فـي الآن ذاتـه، وضـع

المواجهة وموضوعها. فلم يعد الأمر يثير الرغبة بالحديث، ولم يعد الصمت لائقا بالمقام.

كان الظلام يجيء من الغرب، ومع الظلام الهاجم بـدا النهـر غامضا وسخيفا. شيء من العبث المخيف بدأ يتسـرب، خلسـة إلي.

كان يكفي أن أستدير لأراها خلفي. وأن أراهـا، هـو أن أرى "أوهامي" أوهام الحياة الأولى التي بـدأت تتجمـد مثـل المـاء المضروب. عيوب في عيوب. ومع ذلك، كنت قـد قـررت ألا أحل عن نفسي، قبل أن أستشرف البرهان. لكن البراهين لم تعد تغري أحدا غيري. أنا الوحيد الذي لازال يقبع في الأوهام، إذن؟ بلي. وإلا كيف لازلت أبحث عن جدوى وضع لم يعد ذا جدوى؟ وهذه المرأة اللاصقة بي، كيف أستطيع ابتكارها، وإنكارها هـو المطلوب؟ متى حدث ذلك؟

الآن؟ البارحة؟ منذ عام؟ منذ " أعوام" كثيرة مرت. حدث ذلـك قبل قليل. في بداية الأنا ونهايتها.

كان كل شيء يتهاوى، يتهاوى ببطء ثمين. كنا نجلـس، معـا، على الطريق. طريق البيت الجواني، داخل البيت... بين جدران عالية حتى السماء. جدران صـم كتومـة. لا يتسـرب منهـا

الصوت. ولا تصلها الضوضاء. الأنا داخلها جثة تتحـرك دون ضجيج. جثة معلقة في سماء" باريس " السابعة والعشرين.

بيتي. بيتها. بيتنا الذي لا نعود إليه إلا للفرار منه. وإلى أيـن؟ إلى القاع. القاع البليدة النكراء. أرض بل طين. لا حصو فوقها ولا تراب. بضع طيور صغيرة تدور، سأما، في المحيط. شبعة لا تبحث عن غذاء. آمنة لا يطاردها لا ظمأ ولا صياد. طيرانها هادئ ومستقيم. طيور عاقلة كالموت. أين منها طيور" الجزيرة " الحوامة؟ فجأة بدأ الكلام يتلون ويتلوث. يأخذ أبعادا ومسـافات. كلام جر كلاما تبعه صمت ممض. صمت أول الليـل. صـمت الخراب. صمت متواطئ، مثل برد باريس اللعين. البرد، البـرد النافذ الذي يوصل العظام بالعظام. صمت وبـرد وأنـا، هـذا المساء، أبحث عن كلام. كلام غامر يضفي بعدا مأساويا علـى تفاحة الحياة. منذ البداية وأنا أتكلم صمتا. أتكلم بلا كلام. هـذه المرة أريد أن أكون. أن أقول كلام قلبي بلسان عقلي. أريـد أن أمشي. أن أركض – أن أنط. أريد أن أراهـا، وأن تراني. أن أراها بلغة الضوء. الاضطراب الغامض الذي لفنا منذ البداية بدأ يتجلى عبثه الآن. أسطورة المكان، هذه المرة، صارت تسـاوي أسطورة الزمان. انتبه!

لم أعد أحب اللعب على الذات، ولا، على الآخر، لم أعد أريد أن أتاجر بحالي. لم أعد لعبة بيد السلطة. ولا أريد أن أصير لعبـة بيد الحب. أظن أن عيوني تشهد على ذلك. ألا ترين؟

وأتطلع حولي. أبحث عن الشاهد والمشهود. أريد أن أرى ذاتي القديمة وهي تتراجع أمام ذاتي الجديدة. أحب أن يدمر الـوعي الوعي الأضحل. أن يطرد الوعي القوي من أخلاطـي الـوعي الضعيف. ما قيمة حياة لا تمزقها سكاكين وعي لا يكـف عـن الارتقاء؟ وفجأة هب الصوت:

- تسألني؟ بلى. منذ سنين وأنا أريدك أن تفهم. وأن تفهم هو أن تنقلع " من ماضيك "، أن تنقلع كما ينقلع الحجر من بطن القاع.

ويروح الصوت. ويعود الصوت:
-منذ سنين وأنا أريدك أن تحل. أن تحل عنـي وعـن حالـك. ولكنك لا تعرف حتى كيف تحل.
مطر مفاجئ بدأ يجيء. مطر لم يعد خافيا. نقط المـاء تسـقط عجلى حتى القاع. تخر على سطح الماء الدافئ. وأتتبع سقوطها الهمجي الأعمى.

أرى ولا أرى شيئًا. الأشجار السفلى كانت تهز أعناقها الغبيـة مبتهجة بالسقوط عليها. رطوبة دافئة. جـو خريفـي غاسـل: الطبيعة تنظف نفسها!

كنت أدير لها ظهري شبه العاري. خلفـي المسـافة المحـدودة تمتلئ بأركانها وهوامشها. المطر يزداد حدة وبهـاء. الخضـرة النضرة تنبثق من أعماق الأشياء المبلولة. أحدق بالمطر وأتـابع إصاباته الغاسلة. وسخ الرأس، هو الآخر، يتراكم مثـل وسـخ الكيان. فتصور كائنا لم ينظف " نفسه" منذ أكثر مـن عشـرين عاما. كانت لا تزال تنتظر الإجابة. وكنت أحكـي. ولـم تكـن تسمع.

أردت أن أقول لها: أنا لا أعرف شيئا ولكني سكت.

ولوج الأشياء المبهمة بعضها ببعض، أعطـى لمقـولتي التـي كانت، توا، شبه أكيدة، مظهرا من مظـاهر الاكتئـاب البليـد. وبتأثير المطر الذي غدا، فجأة، عنيفًا، لم أعد أريـد أن أؤكـد شيئًا. كان الغضب بمتناول يدي. وكنت ألعـب لعبـة التمـايز والانسلاخ. كان كم من التراكمات الغبية يفور في داخلي.

وكنت أقرر: "أنني لن أكون أنا. بعد الآن": لكن ذلك لم يكن إلا حلما. ولم تكن أهميته نابعة إلا مـن كونـه كـذلك. فمنـذ أن اكتشفت، مؤخرا، أن الحياة لم تكن ما أعيشه، فحسب، بـل مـا

أفكر فيه، أيضا، زال عن عيني الانسـلاب: انسـلاب الجسـد والروح. بوهم مخيف، مثل هذا، كنت أعلل نفسي؟ كنت أتصور أنني أبحث عن المتعة والاختلاف. وكان قانون اللعبة الهمجيـة يتولى دمجي القسري في حظيرة المنبوذين.

أردت أن أقول لها شيئًا من هذا. لكنها هبت:

-لا تنظرني.

وأتعجب.

النهايات المفتعلة تافهة وكريهة. أول الخلاص هو الخلاص من الذات.

من هذه المعتوهة التي تنفث السم في وجهي.

ويروح الصوت. ويعود الصوت. وأظل صامتًا أتكلم.

الأشياء بيض. لا لون لها ولا إحساس. غمام قاتم يركب المكان أتطلع، من جديد، إلى الوجه المكور. الوجه المدور. وجه مليء بانفعالات سود مجنحة. لماذا يحمل هذا الوجه كل هذا الحقد؟

وأتهيأ للانقضاض: وجها لوجـه كنـا نتواقـف. وكالملسـوعة انفجرت: تفو.

الغمام المعلق في السماء يتكاثف: سماء باريس اللعينـة. عبـر الغمام النائم أرى، في البعيد، عواصف الشـام واضـطراباته. السماء الزرقاء البنية تغمز لي في الأفق القصـي. والليـل إذا

عسعس. والصبح إذا تنفس. والقهر وسنين عشر. وهي متربصة في الخلف. تكاد تنط علي. ترميني وتدميني. حركـة هوجـاء تجيء من الوراء تلقي بي من الطابق السابع والعشـرين إلـى الطين وأنعجن. أغدو ملمسا لا قوام. انخلط بمكنونـات الأرض وبثورها. أفقد ميزة التحمل والاشـتهاء. ومـن جديـد يجـيء الصوت:

-اسمع، وصلنا آخر الخط. عليـك أن تهـبط الآن . لا تنظـر السماء بحنانك الكاذب. أنت تعرف أن سماء بـاريس لا تـرى. هيامك الشبق ولوعتك المستديمة، خلهما لك. أنا امـرأة طليـق. الحب الذي قيدتني به اهترأ ومات. ومن العبث أن تحاول بعـث الموتى من القبور.

-الحب؟ قلت مستغربا. ودون أن تهتم بما صدر عني، تابعـت ارتجالها المحدد (دون أن تنظر إلي):

- لماذا لا تريد أن تدرك أن مركب الحياة يمر بتحولات شتى؟ تحولات ترهق الجسد والروح. لماذا؟

من الأرض كانت تتطلع إلى الأرض. ومنها إلي. ومني عليها. وكنت أتطلع في وجه العتمة المخيف. كانـت الحـرب تأخـذ أبعادها، وكنت أولي الأدبار.

(٢)

الغيم يمر. يتبعه الدخان. دخان " باريس " المتراكم باستمرار. وفي القاع كانت الأزوال، هي الأخرى، تمر. أزوال لا ماهية لها ولا ألوان. هيئات راكضة مثل الطيور الهاربة من صياد. حفيف الشجر البعيد، على "السين" هو الآخر، لا يصل إلينا. شجر واقف مثل الهياكل الحجرية الصاغرة. وفي الأسفل يبدو الماء آسنا وغثيا.

إلي الماء الباهت، هذا، كنت أعطش؟

لا، ذلك لم يكن إلا حلما، حلما مفتعلا ورديًّا.

وبدأت تركبني الفكرة المتسلطة: لماذا يفقد الإنسان، شيئًا فشيئًا، صفاته، ويتحول إلى إنسان شبيه؟

صمت.

كنت في المقهى، ومر بائع الأزهار. أزهار حمر بيديه. نظرت الأزهار الحمر بشغف، ولم أشتر. كان الوقت مساء. وكنت وحدي. لمن أشتري زهرا؟ ذلك المساء قررت (وقراراتي صارت ملزمة لي): ألا أفرط في شيء أحبه بعد اليوم. يكفي

لذلك ألا أتابع "اللعبة اللفظية" للحياة. لماذا أضع نفسي في وضع تافه؟

أن نفعل ما لا نريد، هو أن نضع أنفسنا في خدمة القمع المعمم. في "خدعة الكون".

أعود إلى الهوس. إذن. هوس التخلص من الالتصاقات القديمة. هوس تفكيك الذات وتركيبها.

كانت لا تزال لاصقة بي. تنظرني خلفا. تـرى إلـى ضـعفي وشتاتي. تفهمني، ربما أكثر مما أفهـم نفسـي. يـؤلمني هـذا الإحساس بالعجز عن اتقاء شر من لم أحسـن إليـه. اللعنـة، لازالت أبحث عن وسيلة أمزق بها الغشاء السري الـذي يكبـل عقلي البليد.

وأخرج كالملسوع. دمشق. الساعة السادسة صبحا. الجو هـادئ وجميل. التيه يبدو في متناول اليدين. الطرقات خالية. أبحث عن تاكسي أريد أن أركب فورا. أن أطير إلى الحدود. الثلاثاء كانت البارحة. إجازتي انتهت. إجازة اليوم الواحد في الأسبوع. الجسد الساخن الذي كان ملتصقًا بي لازال يلتصـق بروحـي. أحـس مادته تترامى علي. تلبسني كما يلبس الثوب لابسه. كنت لازلت أنفرد بين أثنائه وفضاءاته. أتمتع بالمزج والاختراق. وأحصـن نفسي بلذة، لئلا يسقط الجسد اللطيف عن الأغصان.

أحضنها وأنا أتابع المسير بهجا، حتى الكراج. كراج سـيارات النقل العتيقة الذاهبة إلى الحدود: "انخل"، "نـوي"، "الصـنمين"، الأحجار السود المرمية على القاع. ونهوضات السنابل الهشـة مثل الدخان الوليد. أريد ولا أريد. وأحسها تململ خلفي.

تريد أن تنهشني. وأخاف حقا.

أريد أن ألتفت.لا. أرى من جديد إلى أسـفل الأرض. اخـتلاط مستمر يملأ نفسي: عندما ينتقل الإنسان، كيف تنتقل الذكريات؟ وعندما يغير مكانه لم لا تغير هي الأخرى مكانها؟

وأمتلئ، فجأة، برغبة الطيران. ألقح نفسي من علٍ نحو القـاع. أحس بيدي تمتد إلى الزجاج الغامق الكتوم: زجاج منع الضـجة والصوت. وأكاد أسمعني أردد:

-عندما تأتي إليك المرأة فهي تأتي لأمر ما.

-سخيف. قالت.

-لم أقل شيئا. قلت.

سخيف، أيضا. قالت وأضافت فورا:

سخيف كلك: صمتك. كلامك. انفعالك. مشيك. وقوفك. سكونك، حركتك. أنت كلك سخيف من الشام إلى باريس، ومن بـاريس إلى الشام، ذهابا وإيابا وبلا " اسكال".

عبر النافذة العالية، الواقفة، في غمام باريس اللئيم، كنت أتطلع. لم أر شيئًا. بعيدا كانت الأشجار يابسة وكئيبة. أشجار تخلـت، هي الأخرى، عن أوراقها. أوراق أخذت تهـر مثـل المطـر الرقيع. قريبا مني، قريبا رؤية لا مقاما، كان فتيل الدخان الأبلق يصعد ملتويا في الفضاء. يبتعد، يبتعد في بداية الظلام الشغيف. أبتعد، أنا الآخر، عنه. شرقًا، هذه المرة، كان يبتعـد الـدخان. (وكنت أبتعد في مكاني). أغمضت عيني، برهة. أحلل المشهد، وأنقيه.

أريد أن أفهم اللوعة والاحتضار. اكتشفت مؤخرا، أن الحياة لـم تكن ما أعيشه، بل ما أفكر فيه (كما قلت من قبل؟) وهـو أمـر أوقعني في مصائر شتى. مصائر أنتجت مسائرها الخاصة. حتى صرت في نهاية الأمر مجرد "عقل" صغير في عالم واسع شديد الاختلاط. عقل لا يفكك الأشياء من أجـل اسـتيعابها، وإنمـا يزحمها كما هي في ناموسه الضيق والمحدود.

وسمعتها تقول:

- بعقل صغير كهذا تريد أن تفهم العالم؟

صدى خافت لضحكة شامته، دق أذني.

وتابعت بهدوء: أنت لا تشك في شيء. حاسة الشـك، عنـدك، تعطلت. من الصعب انتشالك من الجحيم. علاقة الإنسـان مـع العالم، ومع نفسه، سيرورة مستمرة، وليست طفرة. وأنـت لـم تبن، منذ عرفتك، هيكلا.

صمت.

كنت لا أزال أحدق دون حراك، في العالم المترامي الأطـراف خلف النافذة. كان المطر يخر. مطر استوائي، مـلأ الشـوارع والساحات. هرع الناس منه إلى الحانات والمقاهي. أجلس بينهم هادئًا ومستتبا. أريد أن أحكي أي شيء. وأكاد أتـذكر البارحـة مساء: الشمس صفراء. باهتة. الأفق غائم. وأنا وحدي أسير في شوارع باريس الرمادية. شوارع تختلط بلا حدود مـع وجـوه البشر العابرين. كنت ألمس مدى الخراب والانكسار: ولد لوحته الشمس ولم يعد يراها؟ أول حنين عنـدي كـان الحنـين إلـى الشمس. حنين إلى الأشعة الحارة التي تنفذ عبر مسـام البـدن رأسا. عاطفتي عاطفة شمسية.

لكنها لا تفهم هذا. كيف أشرح لها الأمر؟ كان كل شيء يتهاوى. يتهاوى ببطء ثمين. كنت أحس أن ما عجنته يداي، لـم يصـبح خبزا بعد. وأن ما حشي به رأسي لم يكن إلا طينًا. كنت أحـس أنني لم أكن بحاجة إلى نقد ذاتي بائس(كمـا علمـوني) وإنمـا

بحاجة إلى تطور. تطور داخلي ينقلني من مرحلة إلى أخـرى. من مرحلة التعلق إلى مرحلة التخلق.

لكن صوتها المسموم جاء مرة أخرى:

- مأساتك هي مأساة إنسان بائس بلا مأساة. وهذه المـرة. فـي هذا المكان، عليك أن تكون اثنين، من أجل أن تكون واحدا.

السماء تنظر إلى الأرض باشـمئزاز. المطـر انقطـع خيطـه المتدلي. الناس لم يتركوا ملاجئهم، بعد. الشـمس التـي بـدأت غيابها الفاتر، أكملته منذ زمان. كانت لحظـة سـفن الضـوء السياحية البليدة قد حلت. وبانتظار أضـوائها الملونـة، ظللـت ألتصق بالنافذة العالية المطلة على " السين". هذا المسـاء كنـت مصرا على تصفية حساباتي القديمة كلها. لحظة الانفجار، الذي أجل طويلا، حانت. كانت مسألة إعادة النظر بكل شـيء تبـدو مصيرا لا فكاك منه. لم تعد المواجهة محدودة وغبيـة، وإنمـا صارت بحرا. ولم تكن " الإنسانية" الجاثمة خلفي إلا نقطة الندى المعلقة في أعلى الجبال. ومع ذلك، كان علي أن أفركهـا بـين أصابعي قبل أن أخوض في مياه البحر. لم أعد أريد أن أتـرك خلفي حاجزا أو لغزا. كنت أريد أن أفهم كل شيء: ولد الشـام العابس. مواطنه الموجعة. احتباساته. انتكاساته. إحباطه القـديم الهائل. وعلاقاته المريضة بمن يحيطه وبما يعنيـه. الشـمس،

وحدها، كانت الحب الناصع. شمس بلا بشر. شـمس حمـراء تدفئه وتغريه. في كنفها، اخترق، المرة تلو المرة، أطناب العالم وحدوده. ولكن أين هي الشمس الآن؟

-هي خلفك. قالت.

صحيح. يكاد ذلك أن يكون صحيحا. علمتني كيف أحبها، ولـم أعد أعرف كيف أحب أحدا آخر. لكن الأمر يتعلق، هذا المساء "بالخروج"، لعبة العادة لم تعد ترضيني. فما هو الحـب إن لـم يدفعنا إلى أن نحب باستمرار؟

لا، المسألة لم تعد هي التأكد من عاطفة غير أكيـدة بطبيعتهـا. الفاصلة صارت الآن ضرورية: فاصلة القهر. فمن يتمعن فـي ماهية القهر وأشكاله لن يسلم نفسه لأحـد بعـد الآن. أكذوبـة العواطف والأخلاق تمشي اليوم عارية تحت الشمس. المرعـب هو أن تقود نفسك بنفسك حتى الحظيرة. وأنا فعلت هذا. فعلتـه أكثر من مرة. والآن انكسرت الجرة. الآن.

-مفهومات بائسة، تحاول أن تنقذ بها عالما أبأس. قالت.

-مأساة الإنسان لا تنبع من ماهية الحب وأشكاله، وإنما تنبع من الثبات. أضافت.

ماذا يصنع الإنسان بالألم عندما يفيض عن الحاجة؟ لا، لم أكـن في موقع يسمح لي بالرد. لـم يعـد الأمـر يتعلـق "بالصـح"

أو"الخطأ"، وإنما بالمتعة: متعة انتهاك المحظور. لا المحظـور الخارج عن الذات فحسب، وإنما المحظور الجـواني، الخبـيء أيضا.

يكفي. لو كان ثمة شيء نهائي لانتهينا منه. ما يهمني الآن هـو الذريعة. الذريعة التي تخلصني من قيودي القديمة، كلها. لـيس ثمة قيد جميـل. العواطـف أخـلاق. والأخـلاق مفهومـات. والمفهومات سكونية. الذريعة، وحدها تخرب السكون القاتل، هذا والتخريب، دائما، متعة. متعة الالتقاء بشيء كنا ننتظـر لقـاء نقيضه بالضبط. متعة التخريب الهائلة، هذه، كالمرأة الرائعـة: وأنت فيها لا تراها. ومع ذلك تظل تحسها "بامتناع".

صار الأمر اليوم يتعلق "بامتياز الغضب". فمن يستطيع الآن أن يغضب يستطيع أن يحرك السكونيات. أن ينتقـل مـن موقـع "العاقل" إلى موقع الفاعل. وليس للغضب النقدي تبرير. العـالم الذي يحيط بي كله حق. لا أهزأ. لنعتبره كـذلك. أنـا وحـدي المخطئ. لكن هذا الاعتبار(أو الاعتباط) هو وحده الذي سـيقود خطاي المتوثبة للوصول إلى نقطة الاتفاق مع المحيط، أو إلـى لحظة الافتراق معه.

-لم تزل كما أعرفك، تماما. قالت، بأسـى، (وأضـافت بحـدة متقطعة) تبحث حتى عن تبرير للمتعة. أمرك غريب! (سـكتت قليلا وأكملت):

-كنت أظنك لا تركن إلى شيء. واكتشفت أن سكونك الأخلاقي البائس هو مصدر تعاستك المفرطة. كانت الشمس اللاهبة تطفئ حرقتك المستمرة. تطفئ امتعاضك الغامض مساء علـى ظهـر قاسيون. كان ذلك مثيرا للسعادة واللمس. كنت لا تزال في بداية القهر الذي جعلك فيما بعد متبجحا ومنبوذًا. لا قهرك للآخـرين (ولا قهرهم لك) وإنما قهرك المتزمت لنفسـك. كنـت أراقـب المشهد. أراقبك. أراقب الأرض التي كنت تدوسـها. أريـد أن أحيط بك كما كنت تريد أن تحيد بي. كنت أعرف أنـك كنـت تريد إبعادي عن امتلاك توتراتي الملجومة. ولم يكـن ذلـك إلا وهما.ومنذ ذاك التجأت إلى التبارير.

كانت تحكي. وكنت أبكي.

شمس الشام الجميلة التي ملأتني بالتوتر، والتراب الأحمر الناعم لم أشلائي، وأشواك الأرض الطرية التي نمنا فوقها، غروبا بعد غروب، لا، لم يكن ذلك كله هروبا. ماذا تريد أن تؤكـد، هـذه الممسوسة؟

(٣)

كنت أحس أنني أنكشف.

فعل الانكشاف مدهش ولذيذ. في الانكشاف شيء يشـبه كشـف العورة في فضاء ممتلئ بالناس. لكن المؤسف هو أن " هـذا" لا يهم أحدا منهم. وهنا تكمن مأساة " المشهد" وموته البارد.

كانت تحسب أنني لا أشك في شيء مما تفكر به، أو مما لا تفكر فيه (هذا هو كل ما كانت تحسـب؟) لكنهـا تعـرف جيـدا أن "ما كل ما يشك يقال".

كان الليل قد بدأ يجيء. الماء البعيد في أسفل الأرض بدأ يسـود صرت أنتظر مرور سفن الضوء. سفن السياح البليـدين، ذوي العيون الباهتة اللئيمة، الذين يخترقـون الليـل وهـم يلوكـون بأفكاكهم التي لا تفرط بشيء. دليلهم الضوء المنصاق من أجنحة السفن المتطاولة. الضوء الكشاف الذي ينيـر أحجـار الأبنيـة المرمية على الضفتين. عيونهم تختبئ، حتى في الظلمة، خلـف أزججة نظارتهم العمياء. ماذا يرى هؤلاء العابرون من المدينـة سوى النوء؟

في الشام كان الاحتواء مباشرا وسليطًا. الأرض تحتوي البشر. البشر يحتوون بعضهم بعضا. النظر يمر مـن الضـوء إلـى الضوء. حتى الظلمة كانت مشرقة.

من قبل، كنت أحسب أن البؤس الإنساني مرتبط بالمكان. وكنت أدخر بؤسي في أعماقي المليئة توترا وإحباطًا. هنا عرفـت أن الأمر لم يكن " صوريا" إلى هذا الحد. ولم يعد لمقولتي الهوسية التي ما فتئت أرددها: "لننته من بؤس الحياة، هذا" إلا قيمة نسبية جدا.

ووجدتني أشهق باتجاه الريح. أريد أن أجمع الليل الـذي بـدأ، للتو، بين يدي. كنت أريد أن أمسك به من أوله، وأقضمه لحظة لحظة حتى مطلع الفجر. كان مساء الشام يمسك بتلابيبي. وكنت أتمتم: "هذا المساء المليء بالمجهول، أيكون ولـد مـن ذاك؟". وفجأة توهج الصوت:

- حتى اللهفة تريد تزويرها؟ الشام الذي تبحث عنه هل عرفتـه حقا؟ ألم أكن أراك تمشي كالمعتوه في أزقة الجـامع الأمـوي مستسلما للجوع والخواء؟ ألا تعرف أني أعرف كل شيء عـن تلك الحقبة التي لا تني تثير بذكرها غيظي؟ كنت أرى المـوت اليومي يركب هيئتك ومزاياك. كنت أصفر محشوا لؤما وغمـا. كنت تسوع، وأنت تهذي: "عالم بلا مشروعية خراب". وكنـت أنتظر الغروب لكي ألقاك. نصعد الإسفلت المكور بعضه علـى بعض من دشة الحر، قبل أن تمسك بي من بين فخدي، وتنهض

بي إلى أعلى متشبثا بجدائلي وحفا في. ومن بين أسنانك اليابسة تجيء غمغمتك الملوثة برطوبتك المفاجئة، لـتعلن لـي بدايـة الشغف والموت. كنت أحسب، لبلاهتي وقلة وعيي، أنك إنسـان فذ. وكنت تعرف أنني أحسب ذلك، ولم تقل شيئا. كنت تظن أن الحياة مجبولة من الضآلة والزيف. وليست السلطة التي تـدعي مناوءتها، الآن، إلا من طينتك الزيافة هذه.

سكتَتْ، فجأة وسكت.

صمت يابس كالموت.

لا، لم أعد أريد أن أبدد وقتي في نفي البلادة والابتذال.

صرت متأكدا من شيء واحد: قيمة الحياة ليسـت، فقـط، فـي صدقها بل في حركتها، ومهزلة الوجود لا تنبع إلا من الثبات.

وأحسست بك تتململين. تريدين أن تمدي يدا إلي. وتوقعـت أن تلامس اليد القديمة بعضي. ولم يجئني سـوى الغبـار. كانـت الشمس الشامية تحرق كل شيء. وكنت تلبسين الأصفر الفوار. وتحت الملس الرقيق تتنفس أحشاؤك وثناياك.وتبعـت الجسـد المشدود من الطريق إلى الطريق. حريـق. الجامعـة والمـارة والحيوانات والأحجار وأنت وأنا والشـجر الصـامت بانتظـار الآهات التي ستنبثق بعد قليل: شجر الشام العريق. وأخذك الشلل

فجأة. ولم أجد إلا يدي. كان تشابك الأعضاء وتآلفها مثيرا: كنت تحدقين في وجهي، وقد عقد الخرس لسانك.

ولم أقل شيئًا. كنت لا أزال أحتفظ بكينونتي الكبرى وأوهامهـا. كان الشام جميلا وقريبا من القلب. ولم أكن، بعد، أغني:

"وافترقنا يا دمشق، وعلى معطفك الأخضر دم. وانتكاسات وهم"

كنت أعتقد أنني، إذ كفيتك آنذاك، فسأكفيك إلى الأبد. وأن زرع الشام لن يذبل في راحتي. فأنا، كما تعرفين، أحب الشام.و...

-اسكت. (قلت بتوتر مخيف) وأضفت فورا: "لا يمكـن لأحـد، مهما كان جديرا، أن يكفي وحده أحدا آخر".

صمت.

الليل في الخارج الباريسي يستمر. النـاس لا ينقطعـون عـن التمزق. تبادل الأمكنة لا يتوقف. غلالة الظلمة الباريسية تحـيط الكون بغلاف أصفر بلا رائحة. غـلاف مـن أنـوار السـفن المتسابقة، ليلا، على " السين".

وهممت أن أقول شيئًا (ماذا كان بإمكاني أن أقول؟)

ومن جديد، جاء الصوت الشاكي:

- تشبثك الغريب، بذاك العالم، وبي يدعو للحيرة. كنت أحسـب أنك بلا يقين. كنت تتسلق جبالي، وتنحدر على وهادي، بتـبجح واستهتار. تنظر إلي. وعبري ترى الآفاق البعيدة. ولم أشـأ أن

أصير سدا. ولم تكن تعي ذلك، آنذاك. كنت مأخوذا ببضاضـة الجسد. وكنت مأخوذة بكونك مأخوذا بـي. كنـت تريـدني أن أحكي. وكنت أظل صامتة ومبهورة. كنت أعرف أنه لا معنـى لأن نحكي لسامع وعيه أقل من وعينا. وكانت الشـمس التـي تغرب خلف جبال الشام، دائما، تكفيني مغبة القول. كنت تصمت بدورك، وأنت تتابع الطريق. لِم لم تعد تعرف كيـف تصـمت الآن؟

وأريد أن أحكي. ولا أحكي شيئا.

كانت فكرة العناد القديمة تجيء من أقاصي النفس. عناد دفع بي إلى التخلي المبكر عن بعض أوهامي بحجة تحسين الذات.

لكن التحسين المستمر رافقه تعقيد شديد. واكتشفت بـأن العـالم مملوء بأشياء أحبها، وأشياء لا أحبها، وكلاهما عصـي علـى الامتلاك. ولم تعد المقولة البائسة، الأولى: " المرء بركنيه، قلبه وقضيبه"، إلا سذاجة لا مبرر لها.

سذاجة الجوعى والمساكين.وبدأت أقلب النظر بإمعان. ومنذ أن أدركت أن " الكائنات متوازيات، وليس في الغيم مكان لأحـد"، صرت أريد أن أواجه بؤس الحياة بالمتعة. لكن للمتعـة، هـي الأخرى، بؤسها الخاص. وأردت أن أحطم صـورتي، لا فـي

العين الموازية لي، بل في عيني أنا. كنت أردد: " إدراك محدود في عالم شاسع، كيف يمكن الفهم والاستواء؟"
ولكن بلى. قلت. (وأضفت مباشرة):
-دائما، ثمة مجال لقول كلمـة جميلـة. (ودون أن تنظرينـي، تابعتِ):

"النفس الظمأى تحب الكلمات، لا البشر، فحسب. وأنت كـالقش اليابس تحرق نفسك وتحرق غيـرك. قـش جففتـه الشـمس، وعصفت به الريح. وفيما يعنيني، لم تكن الصدفة صدفة: كنـت أبحث عن أحد يبحث، هو الآخر، عن أحد، ولقيتك. وحدث مـا حدث. الآن علينا أن نتخلص من "الجثة". علينا أن نغسل أنفسنا منها. لماذا لا تريد أن تفهم هذا؟"
كنت لا أزال صامتا أحدق في الليـل الباريسـي الفـاتر. قبـل لحظات كان الماء الآسن، في أسفل الأرض، يثيـر اسـتغرابي. الآن صرت أقلب الفكر باحثًا عن دريئة أتقي بهـا الضـربات المتتالية بإحكام. كنت لا أزال أردد (وهـل ثمـة شـيء آخـر بإمكاني أن أفعله؟): "بعد أن تعلمنا الكلام، علنا نتعلم الصمت".

وفجأة أسمع الضجة الخافتة خلفي وفورا، أقـذف نفسـي مـن النافذة. أقع رأسا في الحضيض. أنتثر كما ينتثر الحب المسفوح في الريح ويتجمع الخلق حولي. وجوه أعرفها وأرعاها. ووجوه لم أرها من قبل. من بين البشـر المتـراكم أرى إلـى الوجـه المكور. الوجه المليء بالمغص والاحتقان. (وأغمـض عينـي) كنت في طيراني الهابط إلى القاع أحضن اللجة والريح. أنتقـي لعبتي الأبدية. فمنذ أن اكتشفت أن إرضاء الآخرين غير ممكن، أدركت أن إرضاء الذات يقع، هو الآخـر، فـي دائـرة عـدم الإمكان. وقررت في أعماقي:"هذا المساء، علي أن أفجر نفسي". لكن سقوطي المفاجئ من الطابق السابع والعشرين، لم يغير من الواقع شيئًا. لا، لم يكن باستطاعتي إلا أن أكون مخلصـا لـي. وتلك كانت جريمة لا تغتفر. وفيما بعد أدركت اللغز الأساسـي (والواضح بشدة): "كان علي أن أكون سعيدا، باعتبار أن الحياة لا معني لها "(أدركت ذلك، قبل لحظات فقط) ومـا معنـى أن أدرك ذلك متأخرا: معناه أنني لن أعيش إدراكي. لماذا؟ "لأننـي لم أكن أرعى في السهل وحدي"، قالت. وأفتح عيني. أتملاهـا. أرى إلى السحنة الغائمة. ومن العين المغروسة في قفا الـرأس أرى الفوهة المفتوحة مثل فوهة الفجر الملوث بالـدم. وأرسـل بصري بعيدا، أرسله إلى الهوى والغيم. أبحث عن نقطة المطر

النازلة هناك. مطر باريس سمج وغبي. مطر بلا قاع. مطر لا يبلل الأشياء ولا يغريها. أدع المطر واقفًا، وأهبط. من عـل، لا يخفى شيء: الطرقات سود. الأشجار مثل الدببة الواقفـة علـى أطرافها. الناس ذباب. ذباب يمشي مشيا أصم. لا حس لـه ولا آثار وفجأة، يتلوى الجسد الذي لم يعد يملك إلا حركته: الحركة الوحيدة التي صارت كونه ومعناه. لكنها، هذه المـرة، كانـت حركة فارغة. فارغة تماما. كيف يفرغ الجسد من توتره؟. كيف يصير مبتذلا وبلا فضاء؟ جسد كنت أقاطعه كالريح، وصـرت أجانبه وأوازيه. جسد كان متعة وصار عبئًا. ومن لعنة الجسـد، ينقذني الدخان: دخان خفيف يترك منشأة السفلي ليرقى عاليا في الفضاء. دخان حطب البطم القديم كان يظل لاصـقا بـالأرض. كان الشتاء قاسيا ولذيذًا (شتاء الجزيرة المطير). كانت الأرض الشبقة تمتص كل شيء.

لا شيء يبتعد عن منشئه ومنحاه. دخان باريس، هـذا المسـاء، ليس من ذلك الدخان. ولكن هل للمقارنـة معنـى؟ ألا يكـون مضحكًا، مثلا. أن تقارن الأفعى بالحصان؟

كدت أتساءل،بصوت عال:"إذا كانت مقارنة عناصر الطبيعـة، بعضها ببعض أمرا مضحكًا، أوليست مقارنـة الطبـائع أكثـر إضحاكًا"؟ وأتابع خروجي نحـو القـاع. ويلحقنـي الصـوت

المرتاع:"لا تخرج - لا تخرج بهذا الشـكل ولا بهـذا اللـبس سيعرفون أنك مجنون. ومنذ أن يروك سـيقذفونك بالحجـارة. سيقذفونك حتى تسيل الدماء. وأنا وحدي لا أسـتطيع أن أفعـل شيئًا" بلى، بني. أنت وحدك تستطيع. تسـتطيع أن تفعـل كـل شيء: تستطيع أن تفعل ما بوسعك فعله.".

وأرحل، مع الدخان الهائم، بعيدا. أريد أن ألامس الرفيـف. أن أشم الريح، ألا أسمع، بعد الآن، تنفسها العكر الذي كان يتـواتر قربي. كنت بحاجة لأن أكون وحيدا. ولم تكن الوحدة المنشـودة إلا الوجه الآخر للهزيمة. ألتفت إليهـا. هادئـا: كبـة الغـزل الملفوفة. تكاد تنط. تلسع الوجه والعين.

تريدني أن أذهب بعيدا؟ إلى أين تريدني أن أذهب؟

وهذه، هي الأشجار في مكانها واقفة. والبشر لازال يمر. والنهر لا زال متشبثًا بالأرض. والجدار هو الجدار. وأنا كما أنا، أقف، كما أقف كل مساء. أرقب النجم الذي لم يطلع بعد. أتملى، فـي صفحة الماء، ماء السين الآسـن، ذرات النـور المتنـاثر فـي الفضاء. ألاحق حوافر الخيل التي كانت تدك وجه الطين. تعبـر الجبل و" ماردين". أستسيغ حركات الأصابع اللطيفة وهي تلـف التبغ بورق الشجر العطن، وممصوصات الشفاه اليابسة وهـي تقلب البذور بين أسنانها. كنت في الجب، بعيدا عنها. وأخـذت

تسحب الدلو. ووجدتني أصعد إليها مع الحبل المتقاصر. كنت لا أسمع إلا أنفاسها اللاهثة فوقي، وصرير المحالة: محالة الخشب العتيقة. دلاؤها كانت تأتي نصف فارغة، (لكن ملآنـة). مـن طينها الرحيق كنا نشرب. من يسقيني؟ عطشان.
اشرب سما. قالت.

لا، ليس منطقيا، أبدا، ألا يحس الإنسان بأن حياتـه عبـث إلا عندما يداهمه الخوف. مع شربة السم المريعة ولم أكن أفكر إلا في شيء واحد:"من سيستخدم عيوني لرؤية العالم بعدي؟".
-عيونك؟ عينان سيئتان جعلتهما عيونًا؟ قالت.
" الليل والوحدة وخواء الذات، ذلك كل ما بقي لـك". أضـافت.
استدرت نصف استدارة. صار وجهي لصق الجـدار. تمامـا، لصق الجدار الوسخ اللئيم. وجهها حل في الفضاء المقابل. مـلأ المساحة كلها، إلا قليلا.
أخيرا، صرت أحيط بحركتها المنهكة المتخاذلة. حركة الخاسـر الذي لم يعد بإمكانه أن يربح، بعـد الآن، شـيئًا. ولأول مـرة. أحسست أن كل شيء غدا ممكن الصيران.

(٤)

تحضرني أشياء. وتخسرني أشياء على الجدار الذي التصق به، يفور الكون، كله، ويدور. عليه قرأت آلاف الكتـب - ورأيـت أكوام الأحشاء. خطوطها العدوة ترتسم في كل نحو منه. أخترق الجدار. أعبر اللجة والشط. أجيء المنتظرين. أختلط بهم. وجوه مرسومة بحشمة وبلا خيال: وجوه مخذولـة. أسـأل القريـب والبعيد: ماذا يجري؟ (وأنا أردد في سري) " يا ويل هذه الجبال تمشي بلا نعال. يا ويل هذه الجماجم تحكي بلا معاجم" لا أحـد يرد. رعب مكبوت يمـلأ الأجـواف. ومـن قريـب أسـمع الهمس:"كنت قاعدا أتغوط وجاء خبر الانقلاب. تركت النـازل والمنزول، وانزويت. كانت الآلات تعبـر الطرقـات كـالبرق. عليها يرتع جنود قرع. ثيابهم حمر ومجلوخة. بأيديهم حـراب مسمومة، ومن حولهم يتطاير الذباب. قعدت، مـن جديـد بعـد مرورهم العاصف. قعدت أتغوط. وجاء خبر الانقلاب. ورأيـت التراب يتطاير من جديد. كان الجو قد تبدل هذه المرة. صارت الريح تخش مثل صدور المسلول، مسلول "الجزيرة" الذي نسـيه الموت. وتراكض الناس. كان الغروب على الأبواب. وبدا الشيخ

ينادي" من أضاع عنزا مخضوبة القوائم، في عنقها خـيط بـلا جرس، فقد لقينا العنز ولم نلق الجرس. تعالوا" صمت. لا أحـد يأتي للقاء العنز المثبورة. كان الانقلاب على أشد. وكان النـاس مبتئسين:

-... انقلاب آخر؟

-لا، انقلاب على الانقلاب يا أحمق.

كان الأمر يبدو مثيرا للسخرية وللتعكير. تعكير مـزاج البشـر يشبه، تماما، تعكير الجو. صفاؤه، في النهاية، هو المطلوب. ولم يكن أحد يستطيع أن يجيب، بعد الآن، متـى سيصـفو الجـو. الانقلاب، هو الآخر، له وجهان. مثنوية لا يمكن الخلاص منها. كان الليل يتسرب، من بين أصابعي. وملأني الخوف: إذا تنفس الصبح ولم أتنفس، فستكون نهايتي. كنت أحوم، منذ أول المساء، حول الشغف بعالم جديد، عالم أحدد أسسه وأختاره ولـم أكـن أعرف، بعد، إلى أي قاعدة ارتكز.

لم يكن لذلك، كما أدرك الآن، أية قيمة. الأسس والقواعد تبـدو الآن شديدة الابتذال. فمنذ الخطوة الأولى، نخلق القاعدة الأولى، في حياتنا الجديدة. لكن خوف السكون من الحركة هو الذي يدمر كل شيء. فليس من الضروري أن نعقل العـالم. ولـيس مـن الضروري أن يكون كل شيء مفهوما. ليسـت المفهومـات إلا

أساطير نخلقها نحن. وعلينا، نحن، أن نقـوم بتفجيرهـا. لكـن الإنسان الكتيم الذي كنته لم يكن ليشف عن هذا. كنت مـأخوذا، كالجرذ المرعوب، بحماية نفسي. ولم أكن لأسن أسناني إلا في مواجهة جرذًا أضعف مني. كان العالم يبدو لـي مـن مكمنـي الهزيل قلعة حصينة. وكنت أعتقـد أن الحـب هـو الطريـق السلطاني الذي سيقودني إلى حيث أريد. إلا أن الحب، الذي لـم يكن " ضرورة أولية" في الحياة، لم يكن شيئًا أساسيا في حياتي. وبدأت الأمور تتعقد. وبدلا من أن أصير شفافًا، غدوت كتيمـا، أكثر فأكثر. وفي السلوك الكتيم تهترئ الحيـاة: المعلـوم فيهـا يغدومجهولا. والرحب ضيقًا. وخشية الرغبة تسيطر على إغراء المتعة. وفي هذا السلوك حجب كثيرة ولا مبالاة. إنه سلوك كائن لم يتوصل، بعد، إلى إنجاز منظور نقدي لذاته. كائن لا يـزال يطمع في تبرير الواقع والتستر عليه. السلوك الكتيم هـو هـذا، ولكن ما هو السلوك المشرق؟ واختلطت الأمور علي. ثمة أشياء كنت أريد تحقيقها، وأشياء أخرى، كثيرة جاءت بها عملية تحقيق هذه الأشياء. وشيئًا فشيئًا، اقتربت الشام من باريس. التصـقت إحداهما بالأخرى. ولم أعد أفرق بينهما: وضع كوني لا تمـايز فيه، ولا فروق. الفرق الأساسي الذي تبقي، هو فرق الحنـين، لكن الحنين وحده لا يكفي لبناء حياة بلا أوهام. أوليس الحنـين

نفسه، هو ما لم يعد بالإمكان التحقق منه؟ ما ساءني، هو تطابق الشام وباريس. قبلا كنت أجد ملجأ أحتمي به: الشام. كنت عندما أزعل من "هنا" أنط إلى "هناك". وكانت المقارنة المستمرة، هي الداء الذي استعصي علي الشفاء منه.

- أخيرا تعترف؟ ألف مرة قلت لك ذلك ولم تسمع. وأنت تقول الآن هذا، لابد أنك تطمح إلى الإحاطة بشيء آخر. آه لو كنـت أعرف نفسي كما أعرفك أنت. كانت تردد بهدوء.

-"معرفتي" أسهل الأمور. فأنا كائن متناقض ومفزوع. علاقتـي بالعالم تحددها الطفرة، عـواطفي متسـاوية الشـدة، متوازيـة الاتجاهات. علموني أن " الغصن الذي ينحني أمام الـريح لـن ينكسر". وأن الربح ليس هو ربح الإدراك، وإنما ربح العـراك. وتعلمت أشياء أخرى كثيرة ولدتها قواعد الرهبة والخنوع. ولـم أكن أدرك، بعد، أن تسليم الذات الحية لتعاليم ميتة، لن يقـود إلا إلى الخراب. كنت لا أزال أعتقد أن أنظمة المؤسسة لا تخطئ. وهي إن أخطأت فلغرض مدروس. فالنظام كون قـائم بذاتـه. ولست، في النهاية. إلا بعض تجلياته. أتدركين الآن في أي بحر كنت أسبح عندما عرفتك؟

-لا. كل ما أعرف هو أنك أحمق. أحمق عنيد. منذ البداية وأنت تتصورني تصورا سلبيا. تصور الذكر اللئـيم لامـرأة عديمـة

الفعلية. وتعتقد، لسوء النية المواكب لتصورك هذا، أن التطـور مقصور على الرجال دون النسـاء. صـحيح أن ثمـة أنظمـة اجتماعية تناصر هذا الإحساس الذكوري بالتفوق (كدت أقـول بالتفوق) إلا أنها أنظمة وحسب.

وأنت، نفسك، الآن، كنت تتململ من سيطرة هذه الأنظمة اللعينة ومن سلطانها، عليك. لكنك، كما صرت أدرك الآن، تعتبـر أن تمردك ضدها تمرد مبجل، وأن تمردي ضدها تمرد ضدك أنت. وهو ما يثبت تماهيك معها. ولكن اسمع: إذا كنا تركنـا الشـام معا، فلن نرجع إليها معا. وإذا ما رجعنـا، فلـن نكـون مـن غادراها. لم أكن أسمع ما تقول.

كان الوقت ليلا، وأنزلوني من القطار. قطـار أسـود طويـل. يوصل (مدريد) بـ (باريس). كنت أحوم في ساحات مدريد منذ شهر. في المقهى المقابل لمتحف" برادو" كنت أجلس.

لم أتكلم منذ شهر. منذ الفراق التراجيـدي المفـاجئ. الحاسـة الوحيدة التي ظلت تعمل بانتظام عندي، كانت حاسـة الشـوف. كنت أبتلع العالم بعيوني. المطر، نفسه، لم يكن يصيب القاع بل كان يبلل رؤيتي. أنوار وهيئات. شوارع طويلـة ومسـتديرة. حركة مستمرة بلا موانع. لأول مرة أرى أن الكـون يمكـن أن

يكون عامرا بلا رقيب. لكن حقدا خفيا كان يتجمع في أعمـاقي المضطربة من ضخامة الحياة. حقد لا على الشام وإنما....

-علي، قلها. قالت بتصميم.

ولم أقل شيئا. كان الوقت ليلا وأنزلوني مـن القطـار. قطـار "البيرينيه" الجميل، في منتصف المسافة أنزلوني:

-من أين أنت؟ صمت.

كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل. وكنـت أختبـئ تحـت أفرشه القطار: كنت أنام ببساطة، وأنا في طريقي إلى " النور".

-ديساند/ انزل. صمت.

-ديساند (بعدها تلت جملة طويلة، فحواها: انزل فورا أقول لك) مدريد تملأ عيوني. تملأ حواسي كلها. تمـلأ الليـل بأنوارهـا وألوانها وأنا بلا لسان. كنت أفكر ماذا أقول لرجـال الشـرطة الذين نهبوني، قبل أن أقول شيئًا. كنت أخرس. لم أتكلـم منـذ شهر.

عالمان.

أول كلمة نطقتها، وأنا أُرمي على الطريق.

ولم أفهم من اللغط المتشنج، حولي، سوى: عربي (آراب).

وكالمسحور يختفي القطار. محطة "سان سيباستيان" الصـغيرة الخالية من الإنس. البرد. أنا. الريح. الليـل. وصـدى (آراب).

وصرت أردد (بهدوء غريب): الكلمة التـي نطقهـا شـرطيو الحدود، كما نطقوها.

ولم يقطع الترديد إلا المحيط.

عبرت "سان سيباستيان"، ليلا. لك أن تتصوري، في أيـة حـال كنت في التلة المشرفة على المحيط الأطلسـي وقفـت: بحـر الظلمات. بحر متعجرف. يبعث بأمواجه الهائلة لـيلا. وأتلقـى الموج المجنون بصدري. وأحس بالبرد الغريب يدخل أحشائي: "برد كهذا لم أعرف. وموج كهذا لم أر!" ظللت أردد ذلك الليل، كله، وأنا أفكر فيك.

(٥)

لحظة.

لحظة مواجهة المحيط الذي لم أكن أتصور أنني سأواجهه يومـا ما.

اللحظة التي أجبرت فيها على الوقوف وحيدا، ذلك الليل، هـي التي فجرت مشاعر الاحتقار العميق عندي. احتقـار الشـرق، واحتقار الغرب. ولم أعد أردد، ببلاهـة (كمـا منـذ قليـل): "عالمان". صرت أهذي: عالم واحد. عالم واحد. وبرغم حلكـة المحيط الشاملة. بدأ الأمر واضحا: أساليب القمع، وحدها هـي التي تختلف.

من تلك الأفكار المخيفة انتزعتني أمواج المحيط التي هجمـت، فجأة، علي. وبدأت أحكي لك، فوق تلة سان سيباستيان الصغيرة الموحشة.

كنت في الجبهة، بين " نوى" و" الصنمين". وكنـت أعتقـد أن الشمس هي التي تدور حول الأرض. وأن أرضي هي مركـز الكون. كنت أغادر الشام صباح كل خميس (أو قبله بيوم) مـرة كل أسبوعين. قبل طلوع الشمس، كنت أركض نحـو الكـراج.

كراج حي (الميدان) العتيق: يا رب، السيارة المحصورة نفسها. والسائق الصموت، نفسه، والمرأة الحصناء الصـابرة، نفسـها. والركاب، هم الركاب. ويوما، بعد يوم، كما صـرت تعـرفين الآن، تغيرت الرؤية والمشروع. كنت أحيـا تماسـا: حـدودي الجسدية هي حدود عالمي. ومداها مداي. محيط الكرة الأرضية، حتى حسابيا، كان يبدو لي أمرا شـديد التجريـد. كنـت أحيـا كالمنوم: من قبو القصاع إلى كراج الميدان ومن ثم إلـى نـوى فالصنمين، وبالعكس. لكأن أحدا فرغني من اللب. ذلك الليـل، على التلة النائية الغريبة، كدت ألتقي بخصائصـي الشخصـية (التي احترفتها فيما بعد). في وحدتي الخائفة، تلك، لم أكن أدرك آنذاك أنك جزء من ذلك العالم الرهيب الذي قذفت، غير نادم، به (وكان علي أن أقذف بك وإياه).لا، لم أكن قد توصلت، بعد، إلى القاعدة الأساسية:"لا تبرر، ولا تكرر". كنت في طور قبلي وكان ذلك قبل أن أقدم على ما سيسميه أغنياء الشام: هربـا. وكـأن الخروج من رحم الأم، جريمة لا ولادة.

كنت أخبئ في صدري كثيرا من الأمور التي ربما، لم تكن ذات معنى، إلا أنها بالنسبة لي، كانت محاور أساسية مـن محـاور أنظمة الكون وكانت الأمور تلك بحاجة إلى فضاء تنفـتح فيـه،

كان " وعي الرعاع" الذي تشبعت به لم يتحول، بعد، إلى وعي نقدي (وربما لن يتحول أبدا. وهو ما صرت أدركه الآن).

كان علي أن أتخلص من كل شيء. لأبدأ شيئًا ما.

إشكالية الوجود اللعينة: هل على الإنسـان أن يلغـي تاريخـه الشخصي كله إذا ما أراد أن يعيش حياة جديدة: وما ستكون هذه الحياة التي ستكون بلا حياة؟

لا، ذلك لم يكن ممكنا، لا الآن، ولا آنذاك.

-وهو مع ذلك هرب، برغم تبريرك العجيب، قلت.

-بلى كان ذلك هربا، حقا، هربا من عالم لم تعد أكاذيبه تطـابق حقائقي، ولا أوهامه أحلامي. إلا أنه في الوقت نفسـه، خـروج للبحث عن أحسن ما عندي. للبحث عن حياة مجهولة(محتملة)، لأن الحياة التي كنت أدوسها بقدمي لم تكن تستحق حتى هـذا. كنت لا أزال أعتقد: أنني بمجرد تغيير المكان سأغير الكيـان. وكانت أنشودتي الليلية على الجبهة: "لا يجدد الوجود إلا عبـور الحدود" تجسد ذلك الاعتقاد (وكنت أضيف أمامك بزهو: حـدود الجسد وحدود الفكر، ألا تذكرين؟)

كنت أتصور أن مشروعي الشخصي مشروع كوني.

مشروع سيسانده الآخر، مهما كان. ولم أكن أعرف. آنذاك، أن الكون مليء بالمشاريع الصغيرة والكبيرة، وأن العـالم مقسـم

ومحجوز. وأن علي أن أبدأ ببناء نفسي قبل أن أتطـاول علـى مشاريع الآخرين. لكن الحب الذي كان يملأ أحشائي لـم يكـن ليدع لي متسعا من الوقت لأفكر. حب مفـروض بقـوة العـادة والتاريخ.

كنت ما إن أرى الآخر حتى أمتزج به. لم أكـن أملـك، بعـد، حواجز نفسية واضحة، تحميني. كانت نظرتـي إلـى التـاريخ العصابي الذي لُقنْته نظرة إجلال أحمق وتنزيه. لم أكن أعـرف يومها أن كل حركة هفوة، وكل هفوة قاتلة. كنت مصـابا بـداء الاحتشاء. احتشاء سببه الامتلاء القسري بالغث والرديء. بذلك، كله كنت تختلطين.

وتريدين مني الآن أن أروح؟ نعم. ولكن إلى أين؟ إلى أية جهة؟ ومن أية قاعدة أنطلق؟

-إلى جهنم. إلى جهنم الحمراء. إلى أي مكان لا أراك فيـه ولا تراني.

كان الماء، في أسفل الأرض، لازال يحتفظ ببعض أشعة الشمس التي خلفت وراءها الكون. وبدأت أواخر الضوء الباهت تـولي الأدبار. كان الليل يتساقط رذاذا. ومن بـرج" السـين" العـالي صرت أتملى بامتعاض شرذام البشر العائـدين إلـى سـجونهم البائسة. من النافذة التي تعلو المدينة، كلها، تطاولت على قـدمي

لاحقا شعاع الشمس الأخير. الشعاع الذي أحاط به غيم مفاجئ، وغطاه: الشعاع القتيل.

شيء يشبه الاهتراء كان يحيط بالعالم. اهتراء لم يكن عابرا ولا لطيفًا يكاد يطال مكونات الحركة والسكون، بلا استثناء. ومـع الاهتراء لا ينفع إلا تغيير خصائص الأشياء.

من الجدار، المقابل، الذي كان تلتصق به، جاء صوتها راعدا:

-مرة أخرى الأشياء؟ ما يلزمك هو تغيير خصائصك أنت. هو التخلص من إرثك المخيف: معرفتك الشكلية وأصول نظرتـك العتيقة للعالم. تلك العناصر المبجلة لديك، والتي هـي أسـاس الحماقة عندك: حماقة الغيرة وحماقة المثل، وحماقة الانتظـار. وإن كنت لا تزال تعتقد أن قلبك أبيض، فإنني أصـر علـى أن رأسك فارغ. وفراغ الرأس هو المسئول عن خواء النفس. نفسك اليابسة مثل الحجر المشوي. وأنني لأتساءل الآن، كيف يمكـن لك أن تقف مثل الموتى، لاصـقا بزجـاج النافـذة، منـذ أول الغروب. تقف بلا حراك. تنظر ببلاهة في فراغ أصفر دون أن يرف لك جفن. أكثر من مرة اقتربت مـن ظهـرك والسـكين السوداء الحادة بيدي. ولم تنظر حتى إلي.

كنت أحدد، من وراء، نقطة الطعن. مرة أختارها يمينًا، وأخرى يسارا. واستقر الرأي، أخيرا، على القلب. وكأن جسدك لم يكـن لك، بقيت صامتًا كالتراب. كتراب منسي.

وانتفضت مأخوذًا: تريدين قتلي؟ ودون أن تهتمي تابعت:

-منذ متى وأنا انتظر لمسة أو كلاما. ولكنك لست هنا. كما أنك لست هناك.. فأنت كما أعرفك لا يمكن لك أن تكون إلا تابعا أو متبوعا.تتلاعب حتى بحياتك. مقابل سلوكك البائس تتطلب دائما، " سلوكًا آخر" أكثر بؤسا. وما تحـررك المزعـوم إلا وسـيلة إضافية لاكتساب غنائم جديدة إذ لم يكن التحرر عنـدك، كمـا صرت أعرف الآن، فعلا ينفعل لذاته، بل مدخلا للولـوج فـي متاهات إضافية، لم تكن مهيئًا لإدراكها. ولم يكن ذلك عيبا، لـو حاولت أن تتطور. أن تنمي مشاعر الثقة بـالنفس. أن تتحمـل الألم الأخلاقي المواكب، عادة، لمثل هذه الابتسارات.كنت أراك تتدحرج من دوامة إلى أخرى قبل أن يتسنى لك التفوق والنبوغ. وأردت أن أشد أزرك ولم تقبل. كنت تعتقد أن ذلك حدا لك ولم يدهشني ذلك منك. فمن يملك تصورك الشكلي المبسط للعالم لن يكون إلا متبجحا وجروحا.

نقطة، نقطة، كان الخوف يتجمع في عيني.

لم تكن صادقة، ولكنها لم تكن كاذبة، أيضا. كانت " الرعبـة"، ذلك الليل، تنبثق من التقاء ما مضى بما يحضر الآن.

التقاء لم يخطط له من قبل. إلا أنه لم يكن صدفة. التقاء عالمين؟ لا التقاء بشرين؟ لا، بالنسبة لي كان انشقاق بشر واحد: نهايـة اتحاد الأنا بالآخر وتماهيها معه. هذا الاتحاد الذي تعلمته: ميزة، لم يعد كذلك الآن وشيئا فشيئًا، اكتشفت، أن اتحادي الدائم حتـى مع نفسي عطب يجب التخلص منه. كنت لا أني أردد، منـذ أن تركت الشام: "هذا لكي تتعلم ألا تخضع لأحد، أبدا". كنت أدرب نفسي على الالتفاف المستمر عليها.

لم تكن المشكلة تتعلق بالثقة، وإنما بالمشروع، فمنذ أن عرفـت أن الإنسان ليس سوى مشروعه الشخصي، لم أعد أفـرط فـي شيء، مهما كان ضئيلا، وهو ما جرني إلى تنـاقض مسـتمر وأحيانا غير مفهوم. تناقض. لا مع الآخرين، فحسب، وإنما مع نفسي أيضا. كنت أريد أن أصل الدرجة القصوى من الـوعي. ولم يكن إلا وهما. وهم مريع ومحبط فتصوري للوعي كان ينبع من تصوري للعالم. وهو تصور لم أفرزه أنا. وإنما رضـعته. تصور مبني على أسس أخلاقية أثبتت يوما بعد يـوم عسـفها، وابتذالها. ومع ذلك، كان لابد من إعادة النظر بذلك كله. وهو ما صرت تسمينه الآن " توتراتي".

لكن تلك التوترات التي ترينها بائسة وبسيطة أتعرفين كم أقاسي لإنجازها؟ جبال ووهاد ورياح تتقاطع خلال دهور في أعماقي، قبل أن يرى توتر من توتراتي النور. لم أكن أحسب أنك شديدة الاحتقار لتوترات الآخرين إلى هذا الحد.

وفجأة توقفت عن الكلام.

كنت أريد أن أطبق قاعدتي الجديدة: " تنفس قبل أن تحكي". من قبل، كنت أسابق الريح أريد أن أبلغ الآخر رأيي(حتى ولو لـم يطلبه).

كنت أعتقد أن ما أملكه لا يملكه أحد غير. لكن تغييـر المكـان ضيق رحابة اللسان. ضيقها بالمعنى المحدد: فلم تعد ذخيرتـي من اللغة تسعف "لساني الجديد". صرت لأول مرة أفـتش عـن كلمة واحدة أنقل بها أكثر من "مغزى" (لكأن المعاني قيم جبرية، تنقلها عبارات هندسية لا يمكن ارتجالها). وهو ما أحالني، هـذه المرة، إلى "النفس الصامتة". هل تفهمين؟ كدت أسـألها، لكـن الضجة المفاجئة ملأت نفسي بالخوف. شظايا. شـظايا. كانـت الأشياء تبدأ كرها وفرها من جديد.

(٦)

هذا المساء قررت أن أجلس مع نفسي. أن أجلس معهـا مهمـا حدث وفعلا جلست. كنت أريـدني، هـذه المـرة، محـاورا لا محايدا.

كانت تلح علي مشكلة تنظيف الذهن. تلك المشكلة التي انغرست في رأسي بتأثيرها. وأتطلع، بشغف، حولي، أبحث عن مكنسـة أكنس بها البيت. ولم أجد غير القصيبات اللاصـقة بـالأرض. وطفقت أركض إلى النهير الناشف، أقطف الأعشاب الحجريـة والأشواك المثلومة. أريد أن أصنع منها "عملا" أزين به رأسي. لم يكن البيت بحاجة إلى كنس. أنا الذي كنت بحاجة إلى لـبس. ولحقت، قبل أن أعي. بي: " تعال"، "تعال".

لم أكن أعرف، بعد، ما كانت تريد. كانت أعشاب النهير الناشف تنبت متلاصقة: قرنفل ونفل وزيزفون. حلفاء وبابونج وقصـب وزل. وورود صغيرة لاصقة بالوحل.

وهي خلفي تعد نقر الماء وعيدانها.

كنت أغني من الحزن. وكانت تبتسم. وبلهفة قالت لـي: "تبـدو سعيدا هذا اليوم". (كانت ترى الصوت ولا تسمع الألـم) قلـت: بلى. (وأنا أريد أن أقول:لا). وجرتني برفق (وهـي تسـحبني بعناد): "تعال. إنه لمن المفرح، حقا، أن يكون أحدهم سعيدا هذه الأيام".

وجررت نفسي منها:" إلى أين تريـدين أن تأخـذيني؟" وعلـى الوحل وقعت. ووقعت هي علي. وأحسست بالطين الغضـروفي اللزج يدخل بي. كان الحزن يتبدد بهدوء، وهي تدخل أنفاسـها في محطاتي. كنت أتنفس كالطاووس. كانت تتمدد، كنت أتردد. وبحنان مطلق حاشت ذراعاي أغصـان الشـجيرات اللاصـقة بالأرض. حاشتها وأنا أنكب على التراب مهملا مآخـذ الجسـد المبذول.

كانت تدفعني فيها وكنت أقاوم الانزلاق. كنت أطلب العون مـن العشب الصغير الذي رعيته يوما بعد يوم، ولم يتحـرك. كـان العشب يتملاني هازئًا منهـا. كـدت أضـحك لـولا إلحاحهـا العنيد:"أدخل. لا تخف ليس له أسنان". كنت أقاوم الإغراء فعلا. لم أكن أعرف بعد معنى المتعة ولا مداها. وصـارت تـركض بي: "ألم تركب فرسا من قبل؟"، تعال اركب" أضـافت، وهـي تعطي ظهرا للريح.

كان البلل يشتد وكانت تهذي. وبقيت منحصرا بين فخذيها. كنت أبكي. وكانت تقهقه بافتتان. وبدأت أتصرف وكأن الأمر واقع لا محال.

كنت أتكمش بالشجيرات الهشة وأنا أقاوم: " لا، لن تفترسني هذه البعوضة" وجاءت الشجيرات منقلعة. وبقيت أنا فيهـا. كانـت تحضني على المقاومة: تشبث بالشوك، تشبث، لأرى إن كـان ذلك يفكك". انقلع الشوك كله، وظللت عصيا على القلـع منهـا. خدعني يقيني. ذلك كله لم يجد نفعا. كان القطب الأسفل يفلـت مني نهائيا. يغدو ملك يديها. كنت أحسه يبتعد عنـي مرغمـا. وصرت أتفرج عليه وهو يختفي في محيط الجسد الهاجم.

واقتربت أنظر. لم يكن ثمة إلا الماء. كانت حـوافي " السـين" خالية من البشر والأشياء. أين أختفي..(وقبل أن أتم الجملة التي كنت لا زلت أفكر فيها) قالت شبه مبتسمة:

- تحب أن تنتظر، وألا يأتي أحد، أعرف ذلك، ولكنني لم أكـن أتصور أنه كان مشروع حياتك الأساسي. ولا أرد. الليل، والماء والأضواء الخافتة تغريني. (كدت ألتقي بنفسي، من جديد، بعـد أن أضعتها للحظات على حافة نهيري القـديم). وفجـأة بـدأت تصيح:

-أين تراك ترى الليل والماء والأضواء الخافتة؟ أين؟ هنـا، أم هناك؟ أم..

-أم، ماذا؟(تساءلت مبتهجا بلا سبب) كنت أفرح عندما أسـمعها تحكي. ولم تقل بعدها شيئًا.

ظلت تجثم على الأرض، تحت الجدار المقابل للنافذة التي كنـت أسدها بهيكلي. وللحظة حسبت أن هذه المحاورة لم تحصل أبدا. ولكن بلى. فأنا لا أهذي كما أنني لست وحيدا. والوقت ليل فعلا. وها هي ذي خلفي. وأريد أن أستدير لأتاكد من وجودهـا. ولا أستدير. ولم أكن بحاجة إلى الاستدارة لأتاكد من أنها ليست هنا، و حتى لو استدرت فلن أراها.

"فمن لا يراه القلب لا تراه العين" ما حـاجتي إلـى التلاعـب بعواطفي، إذن؟

كنت أردد منذ أيام: " لا تشغل نفسك بما فات. افهمه فقط" كنت أدرك أن ذلك لن يعود ولم أكن متأكدا حتى إن كان قد وجد يوما ما.

في وجه الظلمة المقابلة لي، تلك الظلمة الشاسعة، أخذني خوف قاهر. المنطق وحده لا يحمي النفس من الجزع والموت. كنـت أنتظر بفارغ الصبر لحظة سقوطي من عل إلى القـاع. كنـت أحدد في أسفل النافذة التي انفتحت قليلا بؤرة السقوط. وأتصور،

بشكل تشريحي رضوضي وكسوري التي ستكون بلا ريب غاية في الخطورة.

لم يعد ينتظرني أحد، وصرت أنتظر كل الناس. كل الناس الذين لا يهمهم أمري. وأتطلع حولي بنوع من الأسف والاكتئاب. كان عازف الأكورديون يعزف لحنا جميلا. كان يمشي بين المقاعـد والجالسين، وهو يسحب خلفه أذيال جسده الذي ترهل وطال. لم يكن أحد يهتم بعزفه. أنا أيضا لم أكن أصغي إليه. كنت أتـابع هذياني. صرت أحب أن أجلس في المقهى وحيدا. لم يعد ثمـة أصدقاء أحب رؤيتهم. باريس صارت جحيما، كما كانت الشام. كنت أحسني أعدو عضوا في جوقة الخلعاء الأممين الذين أراهم يجوبون الشوارع، بلا غاية، حولي، ولم يكن باستطاعة أنوارها الغامرة أن تنقذني من هذا المصير المظلم.

كنت أعرف أن مصيري الشخصي يتوقف على التخلـي عـن أمرين: تبرير المتعة وتضخيم الحنين. عاملان أساسـيان كنـت بحاجة إليهما إذن: الزمن والصدفة. وأحدهما يكفي. لكن الالتقاء بالزمن صار يعادل استئناف حياة جديدة. وهذا هو بالدقة معني المستحيل. والعثور على الصدفة معناه التخلص مـن التـراكم الهائل الذي يفسد الجسد والروح. وهو ما يعنـي (كونسـيبت) الاستحالة، نفسه.

بدا لي ذلك مخيفًا، فعلا، لقد كنت أقف، في الحقيقة، على عتبـة الطور الذي يسبق الجنون: " طور الخوف"

-الذي يسبقه؟ الذي يلحقه بالأحرى منذ عرفتك وأنت تخـوض في مستنقع التوتر والجنون. كنت تخاطب الأشجار المرصـوفة في ساحة " عرنوس" وكأنها خليلتك المشرقة. قالت. كنت تدور وتدور (أضافت فورا)، وأنت تعرف أن المسـتحيل يولـد مـن الدائرة، ومن المستحيل يولد الجنون. كنت أخمن هذا وأخبئه في قلبي. كنت أخشي عليك لأنني كنت أخشي على نفسي. ومثلـك كنت أتابع الأشجار المهملة في "الصالحية" "وعرنوس" ولكنني لم أكن أكلمها كما كنت تفعل أنت كل مساء. كانت أنوثتي بادئـة، آنذاك. كنت أعتقد أن كلامك مع الشجر موجه إلي. وكنت أحمر من الرغبة. يومها اكتشفت أن للرغبة متعتها الخاصة حتى ولو لم تتحقق ولم تكن تعرف ذلك أنت. كنـت مـأخوذا بالتصـادم والتماس. وكان ذلك يغريني. كنت أتفرج عليك وأنت تحضـن الأشجار بمتعة غريبة. كنت تصمت لحظات طويلة والشجر بين ساعديك. كنت تعرف أشجار الشوارع، واحدة واحدة. وفي كـل يوم تنام، واقفًا، مع إحداها.

صمتت برهة، وأضافت محتدة:

-"أريد بيتًا في كل مكان، وامرأة في كل فراش"، كنـت تـردد أمامي كالمأخوذ. تردد وأنت تشير إلـى أشـجار" الصـالحية" اليابسة. وكنت أتلصق بك بمتعة ملعونة. كنت أخاطب نفسي: إن كان يعطف على الأشجار ويلتوي عليها، هكذا، فبـأي عطـف والتواء سيحتويني؟ بلى، كانت مزايا وصارت، كلها، سـيئات: القلق والحب والحياة. وصار شعاري، اليوم: علي وعلى أحبائي (القدامى) يا رب.

التفت إليها لأقول شيئًا، كانت صامتة كالموت.

وكالبرق خطفت نظري منها إلى النافذة التي كنت أسدها. كنـت أريد أن أقول لها إنني كنت أنام واقفًا، في الشام، لأنني كنـت، ببساطة، بلا مأوى. لكن الاستياء القاسي الذي يشع من قسـماتها أخافني. ذلك المساء اكتشفت سرا خطيرا: التماس الحنـان مـن المرأة هو الذي يجعلها قاسية.

والتماس الحب منها هو الذي يجعلها عنيدة. فلقد تعـودت منـذ قرون، على الالتماسين. التواصل الحسي، وحده يجعـل منهـا كائنا رائعا وإيجابيا: كائنًا يعرف خصائصه ومزايـاه. يعرفهـا ويحسن التصرف بها. جسد المرأة عالمها الأساسـي وملجؤهـا الأول والأخير. وعلاقتها بالرجل مثل علاقتها بالماء:

تستحم به، وتتنسخ، لتستحم به من جديد. لكـن غبـاء الرجـل وسذاجته سلبا منها كل شيء: " حق التمتع المطلـق بجسـدها". سلبها الغبي كل ما تريد، وأعطاها ما لا تريـد (أو مـا يريـده هو):"حبه" البائس. سلبها ما تحتاجه وأعطاها ما لا تحتاجه.

شقها المتزمت شقين. ومذ ذاك وهي تعاني مـن أجـل توحيـد نفسها: " امتلاك جسدها بعد تحريره من قيود الحب". وهو ما لم يفهمه الرجل.

- القرصان بعد ذلك المساء، كنت أدرك لِم تعاند المرأة الرجل. ولا تسانده. هذه النزعة المجيدة، هي، في الواقع، نتـاج تـاريخ صراعهما. فالتماس بين الرجل والمرأة لم يؤد حتى الآن إلا إلى الانهيار: انهيار أحدهما في الآخر. (وغالبا ما تكـون المـرأة.) وهو ما فرقهما وفرغهما، معا. تماسك المرأة يأتي من استيعابها التدريجي للإخفاق. وهشاشة الرجل تنبع من استهلاكه الفـوري "للنجاح". وهو ما باعد المسافة بينهما أكثر فأكثر. مسافة لم يعد من الممكن اختزالها، لا بالحب، ولا بالقمع.

ووجدتني أتنفس بصعوبة. أكاد أقـع علـى الأرض. رفيـف. اختمار. انخطاف. قرف. تمزق، اكتئاب. انكسار. خوف. خوف قاتل يشل الطاقة: طاقة الفرح والانتشاء. (كدت أضـحك مـن حالي).

كان الليل يغمر " السين"، تماما. ولم أعد أرى المـاء. كنـت لا أرى إلا أنوار سفن السواح الحوامة، كالذباب. وفجأة هبت مـن خلفي:

-لم تظل ساكتا كالملسون؟

وأمر بعيني على " السين". السين اللئيم. سين المـاء الأشـهب السائر في صمت. الماء الذي لا أعرفه ولا يعرفني، مع أننـي أشربه كل يوم، وكل يوم به أستحم. لا، لا أحد في مثـل هـذه الساعة وفي مثل هذا الجو: عتمة وخصام.

معركة حقيقة: معركة ضد الذات، إلا أنها، لأول مرة، لم تكـن لمصلحة الآخر. كنت أريد أن أحكي قليلا. أن أتخلص من كـل ما يجب الخلاص منه: أن أكف عن إرجاع الأمور" الضالة" إلى مجاريها. إلا أن حوائل عديدة كانت تحول دون ذلك: إحداثياتي القديمة، وآمالي التي انتهت بلا مآل، والبرهة التي آلـت إلـى الزوال، والحماس القديم المحبوس في جسدي مثـل البرغـوث الجائع، والأشياء الأخرى، جميعا. الأشياء التي غدت ركاما فوق ركام. ومع ذلك كانت المسألة شديدة الوضوح: لا يمكن للنهر أن يحفر مجراه مرتين.

برهة.

برهة صغيرة اعطني.

أفكر فيها قليلا من التفكير. تفكير حقيقي يساعدني على الانعتاق من أسر الماضي. من أسر التاريخ الكامن في الخلايا. من كـل ما كنت أتمنى حدوثه. مما حدث. ومما لو يحدث، بعد، وفجـأة هبت:

-أنت محافظ وسكوني وهما أسوأ خصلتين عرفهما البشر. فبدلا من أن تجذّر ما تفعل وما تعيش، أهدرت طاقتـك بالمصـالحة والاستيعاب. وما بحثك المستميت عن " البرهة" المشـتهاة، إلا نوع من البحث المفتعل عما بين يديك، وقد فقدت نفسك إياه.

- أنت ناقمة. قلت

- أنت لا تعرف نعمة النقمة. قالت.

"الروعة هي التمييز بين " الهائل" " والمستحيل." وأنت لا زلـت بعيدة عن ذلك. فنحن في الحقيقة، لا نملك من الـزمن الهائـل الذي بين أيدينا شيئًا. ومشروع الحياة الأساسي، كله، يـتخاص في محاولة امتلاكه، وذلك هو المستحيل" قلت ساكتًا.

(٧)

كان في الأفق ضياء واختفى. لم يبق في الأفق إلا ضيقه. كنـت أريد في تلك العتمة الصامتة، أن أستدرجها إلـى المـوت. أن أحيط منكبها بذراعي وأن أقودها إلى الجحيم. صـرت أخشـى فشلي، وأخاف منه. ولم تكن، هي، تمثل ذلـك الفشـل، وإنمـا تضاف إليه: كانت تسرع، وكنت أبطئ، وكنا علـى الطريـق، نفسه. لم يكن ثمة مفر من الاصطدام. كانت النقـيض الأنثـوي الجاد لذكورية تاريخية هزيلة. كدت أستدير. أبحث في ملامحها عن...

- لِم تنظر إلي بمثل هذه الوقاحة والاستخفاف؟ قالت. وأعـود، سريعا، إلى النافذة. النافذة المعلقة في الفضاء. واقتـرب منهـا سهلا. اقترب حتى الرماد. الرماد الأصفر اللطيف. رماد ضـفه "بردي". ويكون ثمة الغراب والفيلسوف والشاعر. معهـم أقعـد مكتئبا وحزينًا. كنت أعتقد أنني مسئول عن تدهور التاريخ، وهو ما شغلني عن تدهور نفسي. في ذلك المساء الغامض واللطيف، اقترب من " بردي" حتى اللصاق. أدس قدمي فيه. أحس حرارته اللزجة: حرارة حليبية غنجاء. أخض ماءه بأطرافي وأنا أتمنـى

عليه: بردي ماذا يحدث للعالم من خلال لو حدث كل شيء كمـا أريد؟

" العالم؟ لن يحدث له شيء، لكن أصول اللعبة ستتغير، وهو ما سيغير العالم" يرد بردي اللطيف، هامسا. وأخضه مـن جديـد.

وقبل أن أسأل يجرني بردي، وأروح أسبح فيه. كنت أحلم بحياة بلا خيبة، وهو ما خيبني باستمرار. كنت لا أزال أردد: " تجنب ما لا يمكن إصلاحه" ولم أكـن أدرك بعـد، أن مـا انعطـب لا يصلح. وأنه لا معنى لاضطرابنا خوفًا من الهزيمة، وطالمـا أن الحياة ستهزم، يوما ما أمام الموت. تلك الليلة اللطيفة أهـبط بردي، مرارا، وأصعده،ومع مويجات الماء الحنون أتموج، أنـا الآخر، ذائبا كالرذاذ. كانت أنوار دمشق تقبـل " بـردي " بـلا انقطاع. وكنت فرحا بالماء والنور.

لكن عتمة النافذة، هذا المساء، لا ماء فيها ولا نور. ذلك الجمال الذي سلب مني عنوة لازال يحيرني.

الآن أتساءل عن معنى خشيتي الحمقاء من المحيط. أتساءل، وقد أدركت للتو أن الإنسان لا يهزم في حياته إلا مرة واحدة. وهـو ما حدث لي من قبل؟ لكن المسافة بين الإدراك والانتهاك مسافة واسعة ومخيفة. كنت من منظور تاريخي، لا أزال في مسـتوى الأحياء الزاحفة، التي لا تعرف، بعد، كيف تمشي. لكن حركيـة

الذهن لا ترتبط بالضرورة، بحركة الجسـد وحـدودها ليسـت حدوده. وألتفت خلسة. أريد أن أقول لها بعض ذلك، الذي.
وفورا، أعود إلى النافذة. أواجه العتمة والفراغ: كانت مقلوبـة، بعضها فوق بعض وعيونها مغمضة ومفتوحـة، مثـل عيـون الخيول النائمة ليلا.
على الطرقات التي نعرفها جيدا تقع أكثر الحوادث خطورة. ألم تكن تعرف، هي، ذلك؟ لماذا استفزتني. إذن؟ والاستفزاز عدوة، والعدوة تولد الاستياء. تحسب أنها تعرفني، وأنا لا أعرف نفسي " أنا الموقع أدناه خليل بن حمد النعيمي من أهالي باديـة الشـام أقر وأعترف أني لا أعرف كيف هي نفسي."
في الحقيقة، سوء تفاهم عميق كان يربط أحدنا بـالآخر. سـوء تفاهم جذري. وإنني لأتساءل الآن إن لم يكن سوء التفاهم، هذا، عاملا من عوامل تغيير التاريخ الأساسية.
عبر النافذة المعلقة في فضاء باريس البارد، ينبح القمر فجـأة. قمر يجري خلف غيوم رمادية كئيبة. غيوم لم تر الشمس مـن قبل. غيوم تتسابق ولا تمطر. إلفتي الأولى كانت مـع الغيـوم، وفرقتي الأخيرة ستكون معها. ربيعا بعد ربيع كنت أسابق تحتها الخراف في بادية الشام: إن أمطرت تروي، وأن سكنت تظـل. إن اجتمعت تهمي، وإن افترقت تحل. غيوم قريبة مـن الـرأس

والقلب. تحجب الشمس الحامية، وتروي القاع الظاميـة. تلـك الغيوم كنت أحبها، وكنت أعرف أنها تعرف ذلك.

كيف تعرف الطبيعة كائنا يحبها؟ تتحسسه كالأم الرءوم. أعرف ذلك من تدحرجي الليلي على التراب في ضـوء أقمـار الشـام الخجولة. قمر باريس، هذا المساء قمر عدائي. لكأنه، هو الآخر، ساخط ومستاء: أمه تركته ونامت وامرأته خلته وقامـت. وأنـا ألاكم القمر، استولت علي فكرة الاهتراء.

أرعبتني الفكرة: فكما أن الأشياء تهترئ، تهتـرئ العواطـف، كذلك. لكن المرعب، حقا، هو أن الأشياء التي نستعملها تهترئ أقل من الأشياء التي لا نستعملها. وربما كان ذلك بسبب الاعتناء المستمر بما نستعمل. ومصير العواطف المخبأة هـو مصـير مثيلاتها. فليست العواطف حنطة وشعيرا. وحبسها فـي الـنفس يعني موتها العاجل والأكيد.

"قل أحبك، أذن، قل" كدت أصرخ في الليل. كدت أصرخ. إلا أن اللحام الوحشي خرب كل شيء: لجام عزل الكائن عـن ذاتـه. ووجدتني أدور عن شجاعة متبقية في النفس. شجاعة تسـاعدني على القفز من فوق حجوزي. آنئذ أدركت بهاظـة الاضـطهاد. وبعد أن اقتربت قليلا منها، لأقول لها شيئًا ووجـدتني ألصـق النافذة، من جديد. ألصقها وأنا أبحث عن شيء أضـعته. أدور

عليه أين؟ في تلافيف مخي. كان ذلك الشيء هو الأمل. الأمـل الذي افتقدته نهائيا. وعندما نفتقد الأمل نبدأ بالبحث عنه. كـان ذلك هو أول إدراك جدلي لي. ومع ذلك كنت أردد باكتئاب: أية خسارة! من قبل، كنت قادر على إقناع نفسي بعكس مـا كانـت مقتنعة به. وكان ذلك، بحد ذاته، طاقـة حيويـة هائلـة. الآن، أجدني كالمنوم، أقف منذ أول الليل في وجه الزجـاج البـارد. أنظر في عتمة عدائية. خلفي الجسد المنهك (لا من المتعة، وإنما من الإحباط) ملقى على الأرض كالرثاث. وأنا ساكن كـالحجر الذي لا يهزه ريح: ساكن فكرا ومقاما (لكأن أحد فرغنـي مـن اللب) تلك صارت عادتنا. عادتها وعادتي. مـن أيـن تجـيء العادات اللعينة؟ وكيف تسـكن الأجسـام والأرواح، ولا تعـود تغادرها حتى الموت؟ كل شيء عادة. حتى الاسـتهيام، نفسـه (أعرف الآن ذلك) استيهام أننا نبدل أنفسنا عندما نبدل الأرض. والأرض لا تتبدل. الأرض الواحدة. الجسد الواحـد. الرغبـة الواحدة. الفكر الواحد. وصلنا نهاية الخط، إذن؟ بـدأنا نتفسـخ. لكن التفسخ " المحدود؟ الذي أصابنا، لم يكن محدودا إلـى هـذا الحد. وما أصيب به لم يكن عاطفة حب في نهاياتها، ولا عملية " اتصال" بدأت انفصالها. وما أصيب به هو تكويننا التـاريخي،

ذاته، التكوين الذي جمعنا في البدء، هو الذي يفرقنا الآن. ولكن كيف أشرح لك ذلك؟ وكأنها لم تنم أبدا. قالت بغضب:

- تشرح لي؟ تشرح لي أنت؟ وأنت بك الصفات السيئات، كلها: جبان وطماع، وحسود.

وكأنها أصابت القمر بطلقة فضائية، رأيت القمر يعود القهقـرى ويغيب. والغيوم الصغيرة التي كانت تحاذيه غطته فجأة. كنت لا أزال أدير للجنوب ظهري. وأصبح مدى النظر قريبا جدا. يكاد النظر أن يلتصق نهائيا، بالزجاج، حتى العتمة المؤنسة اختفت. وللحظة صار وجودي وجودا حياديا بعمـق: وجـودا مجانيـا. أردت أن أضحك من المسألة، كلها، إلا أنني بكيت. كنت أردد. في زوبعة من الدواخ: أفهمك بوضوح. أفهمك، بقدر ما يكـون المطلق مفهوما. أفهمها؟ ربما. في النهاية، نحن مكونـون مـن عواطف ومقولات، وبين القطبين يمر الـوهج. الآن علـي أن أتخلص من هذا كله، هذه هي مهمتي الأساسية. وفجأة بدا الأمر مضحكًا، حقًا. ولكن من يملك الوقت لكي يضحك؟ لماذا أكذب؟ ليس كل الكلام كلاما. بعض الكلام يدمر. وهو الكلام النافذ الذي يرتكز على إحساس عميق، ويتمتع بهيكل فكري محكم وينقـل بلغة متماسكة. كلام مثل هذا لا يمكن له إلا أن يكون صائبا. في تلك اللحظة أحسست بي شخصا آخر، شخصا أردت أن أمسـك

به وأن أحاكيه. لكن فراغًا موحشًا كان يجعلني عصيا على كل شيء. شخصان متمايزان كنت: أنا وأنا الآخر. من منـا الـذي سيكون؟ بعد لحظة موت قصيرة، وجدتني أبعث من جديد. وكان أول الحياة النظر وبدأت أبحث عن القمر بشغف. قمر لم أعـد أريد أن أراه. لِم علي أن أري المكروه مرتين؟ قمر شهد قبـل قليل موتي، وشهدت موته. وكأنها لم تنس مما قلت شيئا، قالت، بهدوء، دون أن تنظر إلي:

- مأساتك أنك اعتقدت نفسك جذريا، واعتقـدت أن هـذا أمـر مفروغ منه. وليس ذلك، في الواقع إلا صيغة جوفاء. آلة الحياة تطحن الصيغ طحنًا. ولم تدرك. مع الأسف. أن " الجذرية" (إذا وجدت) ليست أكثر من حدث عابر. أو بالأحرى، "معطى" دائم التغير تحتاج، هي الأخرى، إلى رعاية مستمرة ونقد دائم وتنمية بلا انقطاع.

لم تكن بي رغبة لأرد عليها. كنت أفكر: لو كنا نستطيع إعـادة صياغة العالم كما نريد، لكان في ذلك بلا شك خرابـه، وكـأن غشاوة أزيلت، فجأة عن بصيرتي، صرت أقرأ في اللوح أمامي: عالم متنازع عليه، أفضل بكثير من عالم تم عليه الاتفاق. وهـو ما أعطاني نفحة جديدة من الشـغف. وبـدا لـي أن إحبـاطي

المستمر وخوفي من النقد مسألة توجيه قديم ومهترئ، لا أكثـر فبما أننا لا يمكن أن نكون، دائما، أشباها، فإن نقدا ما سيصيبنا، دون شك. متعة الحياة تنبع من منظـور التعـدد والاخـتلاف، وبؤسها مرتبط بمفهوم الإجماع والائتلاف. أنا مخطئ إذن؟ وأي ضير في ذلك: المهم هو أن يكون لأخطائنا مغـزى تـاريخي: مغزى لا يضر بالشخص فحسب، بل بالوضع، أيضا (وفي كـل ضرر بالوضع فائدة). وكأنني كنت أنشر أمامها أفكاري، قالـت بتبجح:

-الجذرية الكاذبة لا تكذب، وإنما تميت. وقبل أن أقول شيئا.

أضافت بهدوء:

- منذ القدم والناس تعيش الكذب وتحاول أن تقول الصدق، وما يضرك، أنت، لو فعلت العكس. وفورا أضافت:

- ألست أنت القائل: "العكس، دائما، هـو الصـحيح"؟ المثيـر للعجب هو أن الكلام عندك لا يزال "طفرا". فما تقوله يستند على الحدس، ولا ينبع من السلوك. وهو ما يجعلك متوترا وحساسا.

وفجأة أفتح النافذة المعلقة في السماء وأسقط من عل نفسي. لـم يكن ثمة في الجو ريح. كان السكون، ذلك الليل مدهشًـا. فـي السقوط الطويل المتتالي، أحسست بي كالطير المكسور الأجنحة.

حياته لم تعد معلقة بما في رأسه، بل بحركته. الحركة التي هي وحدها قادرة على إنقاذه. ولحقني صوتها، ساقطًا، هو الآخر:
-هل أستطيع أن أقول لك شيئا؟ وقبل أن أرد قالت بهدوء:
- أريد أن أقبلك.

شيء ما دب في خلاياي. مشى تحت جلدي الذي اقشعر عنـوة، مثل جلد القنفذ المنصاد. صعد من بطن القـدم حتـى الـدماغ. وحسبت أني أصبت الأرض. وبقوة أغمضت عيني. كان البحر صافيا والنهار قاتلا من شدة الجمال. و"برايتـون" تـنلقح مثـل البقرة الحامل على شاطئ المحيط.
الشمس والمقاعد الخشبية الملونة، وهضاب برايتـون المغطـاة بالعشب الأخضر الداكن، وأشجارها القصيرة الأغصان، وأناسها الهابطون ماء، الصاعدون ماء حصى. حصى كبير مكور متعدد الألوان والحجوم، حصى أملس، مثل كـرات القنـب، يفـرش الشاطئ. حصى بلا رمل. حصى وأخشاب وأجساد وأنا وسـط هذا كله، أسقط. أسقط وتسقط، هي الأخرى، علي. وأتمدد على الحصى اللين، ولصقي تتمدد. وأمسك بها بعنف لـئلا تـنطحن على الأرض. كنت أفكر كيف ستكون هيئتي إن لامست الأرض أولا برأسي.

وكيف أكون إن سقطتها، أولا، على قدمي. وكانت تـردد بـلا انقطاع: أريد أن أقبلك. أريد. تردد وهي تندحس بـي كالـدودة الحفارة. أنفاسها تلج خلاياي، وهي تلج الروح. ويشتد القـوس ويهمي. وتسقط القطرات اللزجة على الأرض قبلـي. قطـرات تصير، في هبوطها، حبالا لينة مشدودة تجرنـي حتـى القـاع. وأصير أتقلب على الحصى الذي غدا، كلـه، عجينًـا. كانـت تضحك. على أي شيء كانت؟ كنت كمن يحترق بالنار وينظـر له الآخر عن الجحيم. بشر برايتون. ذلك النهار، بشـر ملـون وبلا روح. قضيت اليوم، كله، أبحث عن حصى يشبه الأجسـاد التي كانت تمر، بلا انقطاع، أمامي لكل جسد حصـوة تشـبهه. وفعلا. كومت الكثير، منه. عندما تركت الشام كنـت أعتقـد أن نصف الأرض أبيض ونصفها الآخر أسود. وهنـا عرفـت أن اللونين يتوزعان بالتساوي على الناس جميعا. لكن قدرة التمييز بينهما (هنا وهناك) هي التي تختلف. وهنا يكمن مصدر الخطأ. وبدا لي واضحا، أن مسلسل الأخطاء التي لا تنتهـي، مسلسـل قديم جدا. وأن مسألة خلاصنا الديمومة الخطأ، مسـألة تنفـتح بالضرورة، على التاريخ. صرت أبحـث، فجـأة عـن الخطـأ الصحيح. عن الخطأ المنقذ، إن صح القول. انتقالي من الضـفة الأخرى إلى هذه لا يندرج إلا ضمن هذه المسـألة، إذن؟ كنـت

أعتقد أن الهجر (وبالتالي الترك، التخلي) يكفي لإبـداع كـائن جديد مني. ولم أشغل نفسي بـ " موضـوع" فعـل " النفـي " الساذج، هذا. وأول مرة توصلت فيها إلى استحداث مواجهة بين المجتمع وبيني. كنت سعيدا. وكان مصدر تلك السعادة الزائفـة، هو الاعتقاد الخاطئ بأن الخلاص من تقولـة المجتمـع يعنـي الخلاص من أحمالي. لم أكن قد توصلت، بعد، إلى التمييز بـين أنواع "الوعي" المختلفة، والإلمام بتدرجاته. لا، لم أكن أعـرف أن الانقلاب الحقيقي، هو الانقلاب على الذات، وأن الخـلاص الحقيقي، هو الخلاص منها. ذات كونها الآخرون في غفلة منا.

(٨)

كانت تصيح: الدم، الدم.. ودون أن أهتم بصـياحها المتكـاثر، ركضت إلى المحيط، وغطست فيه. بشر برايتون، ظـل يرتـع على الحصى، مثل أبقار المختار السمينة. أخرجت مـن المـاء ملوثًا بالأحمر الثخين. وقصدا، دهنت به وجهـي وأركـاني.. وقصدا مررت بينهم عابرا، بتبختر، وأنا أسرق النظر والنظير. لا، لم يهتم أحد بالمشهد. ظلت الناس تزحف نحـو المـاء بـلا انقطاع. عمق الخسارة لم يكن يكمن في تجاهل المشهد السخيف ولا، في تتفيهه، وإنما في كوننا مسكونين (وربما نقضي حياتنا، كلها في ذلك) بكائنات أخرى غير مسكونة هي بنا. ما حدث لم يحدث، إذن. لقد كان دائما، موجودا. دائما.

في خضم التذمر المتتالي، جاء صوتها الآسف محمـولا علـى الريح:

-هذه المرة، معك حق، فمنذ اللحظـة الأولـى، تلـك اللحظـة المشئومة، أردت أن أخاص منك. لكن ما حدث لم يحدث، قـط. كان دائما موجودا. ومنذ ذاك وأنا أحاول التملص منـه. كانـت

خصائصك كلها معلنة، تكاد تكون مكتوبة، ومع ذلك وقعت فـي المصيدة. لم أعد أشك الآن، في أن من صادني، هو أنا. أنا التي صدت نفسي، وليس أنت (ولكن هل يغير ذلك في الأمن شيئا؟).

والتفت إليها لأقول لها(وقد فرحت، أخيرا باعترافها المفاجئ):
-بلى، يغير الكثير. فقلب المنظور أمر خطيـر. وهـو أكثـر خطورة (أعني القلب) عندما ينقل عقلنـة الإحسـاس، وينبـئ بجذريته. ذلك هو السبيل الوحيد للخروج من المأزق.
-مأزق؟ قالت متعجبة وهي تكشف عن نواياها التي ألهبتني ذلك النهار. كان "بردي" الصغير يتلوى. وكانت تنطنط مثـل كبـة الغزل المنفلت. الشارع القصير في ظهر "الجامع الأموي" خـال من المارة والمشتغلين. الشمس الدمشقية في أبهتها الهائلة. قبـل قليل كنا تركنا ساحة (المرجة). النوبة اكتملت. لا، لم تعد تـرى إلا الشمس المتسلطة: شمس تملأ الجسد بالوهج والاختناق "مـن هنا فقط يمكن أن أتنفس". قالت. ودون أن تنتظر، كانـت يـدها تغوص في باطن الهيكل المثيـر. ووقفـت مدهوشـا. كانـت أعضاءها تتلاقى بانسجام كلي. وكأنما تقودها موسـيقى غيـر مسموعة. كانت لا تزال تقف في الضوء. شيئا فشيئا سحبتها إلى القاع. وأخذت السحب تجتاز أنحاءهـا. كنـت أرى ارتجافـات

العضل المثيرة، وأكاد أرى المتوسط الصغير ينهض من مكمنه، ينهض متكبرا، وبه، يحيط سجفان من لحم ودم. كانت هالتهـا، في الحقيقة تثير الدهشة. غدت، وهي المحدودة، عميقة عمقًا بلا حدود. وفجأة نادتني: شم. شم. وأشم الخرنوب. خرنوب ممزوج بتين طري، سقط، للتو، على القاع. أشم شيئا خافتًـا، غريـب الهيئة والأطوار. في أي زمن نحن؟ وعلى أية بقعة نقيم؟. أشـم رائحة شواء حامض ورزين. رائحة الأخشاب المبلولة. رائحـة الحور الذي تخترقه النار من أين كانت تجئ، ذلك النهار؟ وسط ذلك الفضاء الغريب، وجدتني أبحث عني. ولأول مرة أدركـت خطورة الفقد: أن يكون الآخر في متناول يديك، وفـي الوقـت، نفسه، لا يمكن لمسه. الفرق بين عجز الجسد وعجـز الـروح كالفرق بين الميت والنائم، أحدهما يمكن أن يصحو أما الآخـر فلا. وبلا تردد قاطعتني:

- فكرة العيش معا (حتى الموت)، لم تعد تغريني. مـن حكـم علي بالإعدام؟ العدو المشترك الذي أخفتني به طيلـة الأعـوام البائسة المنصرمة، لم يكن إلا عدوك أنـت. ولسـت أدري لِـم يتوجب علينا أن نعيش وهما مشتركًا: وهـم الحيـاة الواحـدة،

والسلوك الواحد، والحب الواحد. تصور! ونحن لا مـن نفـس العقل، ولا، من نفس النظام.
وفجأة أخذت حجرا من كومي، وألقت به في المحيط:

-أنظر الحجر الذي سقط في الماء للتو، سقط فيهـا ولكنـه لـم يمتزج بها. حتى الأشياء تقاوم الاحتـواء، والانحـلال. وأنـت أنفقت عمرك، كله، في البحث عن وهم سخيف، كهذا.

كانت المفاجأة تامة. وأكاد أقول قاتلة. لقد تصورت الاحتمالات، جميعها، إلا هذه. وبلا حرج، ضحكت شامتة، وهي تقول:
- الأغنياء، هم دائما، هكذا. لا يتصورون إلا الاحتمالات التـي لن يواجهوها.
كان القمر يتلوى غائبا. لم أعد أميز بين الأشجار والدخان. كـل شيء صار ضبابا. أنوار باريس لم تكن إلا وهما؟ طعم الفشـل أسود. بلي، صرت أذوقه في رأسي الـذي بـدأ يفـرغ، مثـل الأحجار المنخورة. متى أخلص من هذا الرأس؟ وكيف؟ كنـت أعرف أن مشكلتي الأساسية هي مشـكلة تكـويني الشخصـي: تكوين الحشو والتفريغ. وأن ثورتي الجذرية، هي الثـورة فيـه وعليه. ومع أن ذلك يقارب الحلم، إلا أن مواجهته لابـد منهـا.

فنحن، غالبا، ما ندرك أن الطرق التي سنسلكها لن تؤدي إلى أي مكان، ونكاد نعرف، مسبقا، أنها طرق مسدودة، ونسلكها، مـع ذلك. لماذا؟ لأن الحياة تغدو لا تطاق إن لم نجـرب الاحتمـال الآخر. حتى اللحظة التي خلت، للتو، كنت أحسني بحاجة إلـى شهود، إلى اعترافات تبهجني وترضيني. كان معنى وجـودي، بشكل ما، معلقا في نظرة الآخر إلي. كان القفص الاجتماعي قد أحكم إغلاقه من حولي. وكأنها لم تكن بعيدة أبدا، قالـت، مـرة أخرى، باحتقار:

-ألا تعتقد بما تفعل ولا بنفسك، فذلك هو شأنك. أما أن تطلـب من الآخرين الاعتقاد بما لا تعتقد به أنت، فتلك هي المشكلة.

وسحبتُ سريعا. سجني غمام باريس الليلي البارد. غمـام بـلا أحصنة ولا بهجة. كانت سفن الضوء البليـدة لازالـت تمـر. وأعرف أن مرورها لن ينقطع حتى الصباح. كانت أضـواؤها تغمرني كلما اقتربت من البيت.

تغمرني ناشرة خلفي ظلا أسود شديد الهيام. في وسط ذلك الظل كانت تختفي وتنام.

-تنام؟ قالت محتجة. محتجة.

كانت شبهات تتوالد في نفسي وتتكاثر بلا انقطاع. كنت أريـد، هذه المرة أن أملك " البداية" التي سأبدأ بها، من جديـد. بدايـة "صغيرة" غير ملتبسة تكفيني. لم تعـد "ضـخامة" الأمـر ولا "كثرته" تغريني. صرت أدرك أن الروعة هي أن تعرف كيـف تتذوق الحياة، لا أن تتخم بها. ما حاجتي، إذن إلى الرد؟ عظمة الإنسان تنبع، أحيانًا من مقاومة رغبته الملحة في تأكيد ذاته، إذ سيكون لديه، دائما متسع من الوقت لفعل ذلك، إن كان يستحقه.

(٩)

المرأة الراديكالية يستغني الرجل عن الحب، ولا يستغني عنهـا. ماذا يبقى، إذن من الهفوات الصغيرة والكبيرة؟ ماذا يبقى منـا، غير ذلك الألق الفضاح؟ ومنذ متى كان الانتهاك عيبـا؟ لمـاذا أكذب؟ أنا لا أبحث عن علاقة عابرة، عن علاقة لا تدوم. (وأنا أعرف تماما معنى "عابرة". أعرفه من منظور نقدي) إنني أبحث عن علاقة تاريخية. إني أبحث عن هذا. لكـن البحـث شـيء، التحمل شيء آخر. وهو ما يعطي الحيـاة متعتهـا الخاصـة، ومنعتها، كذلك. قبل الآن، كنت أخشى فشل الحب، وأنا أغـرق في فشل الحياة: ولم أكن أتميز في هذا عن غيري. الشبه يعمي. لا يعمي البصر فحسب وإنما يعمي البصـيرة، أيضـا. اليـوم قررت أن أنتهك هذا التجانس المشل. وسأبدأ بنفسي. سأقول لها كل الأشياء التي أريد أن أقولها للآخرين. هكذا أتمكن ربما، من اختيار المناسب منها. أريد أن أفهم لم أكون واضحا عندما أتكلم مع نفسي، وشديد الغموض عندما أتكلم مع الآخرين. خطأ الآخر بالنسبة إلي كان يعتبر، دائما "جريمة"! ولـم أكـن أتصـور أن خطئي كان يمكن أن يعتبر، هو أيضا، كذلك. وهـو مـا كـان

العائق الأساسي في " اللعبة". أتذكر، الآن، في الشام انتقـاداتي "العنيفة" للنظام، وللنظام الإنساني، برمته: نظام اللغة والأحكام، وأضحك، أضحك من السذاجة العميقة التي تلتبس، بصدق، مـع العبث. ما معنى هذا؟ أريد أن أقول أن " السذاجة" كانت آنـذاك نوعا من مواجهة العالم، من تحديه. كانت بمعني مـا، سـذاجة "ثورية". لم أكن متمكنا، بعد، من تحليل العالم ولا من فهمه "ولا أزال، بالتأكيد، كذلك" إلا أنني كنت ممتلئًا برفضه. شيئًا فشـيئًا، أقنعت بأنني جزء منه، وأن علي أن أقبله كما هو. الأمر الـذي أدى إلى رفضه، فيما بعد، أيضا. الخطأ الأساس، إذن والقاتـل لكلينا: للسلطة (بمعناها الاستبدادي،وهي دائما، كذلك) وللفـرد، هو أن تشويش الحس لا يخلق عقلا. وأن التفكيـك المسـتمر لا يعني إلا أننا في حالة حرب دائمة. وأول خطوة في تدمير العدو هي تفريغه من الإحساس. منذ البدء وأنا أحث نفسـي، لأعمـل "جهدا خارقًا". وفي كل مرة كنت أجد أن المبذول "معزول".

جهد تجاوزته البنية المحكمة الإغـلاق. مـن أيـن إذن يجـب الانطلاق؟ الآن فقط، يخطر لي، بعد تلك الأعـوام الطويلـة أن أتساءل عن معنى " جهد ضائع". عن معنى فقد جزء من الحياة بلا معنى. من كان يغريني بتلك "الألاعيب" الصغيرة المـدمرة للجسد وللروح؟ وكيف كنت أقبل أن أضيع لحظة مـن حيـاتي

"المحدودة" في " عمل" غير محدود؟ لكن الإغراء، كما صـرت أفهم الآن، كان كبيرا: إغراء أن تكون حمارا جيدا بين الحمير. مأساتي، إذن، مأساة مزدوجة: مأساة حـس، ومأسـاة وعـي. ردموني. ردموني، وعلي أن أحفر النفق شـبرا، شـبرا، لأرى النور. وإنني لأتساءل الآن، إن كان ذلك ممكنا. فـلا الرغبـة بالخلاص تكفي ولا الإرادة. قبل أعوام عديدة، واجهت الأزمـة بسذاجتي. كانت أزمة عميقة وكبيرة، إلا أنها مرت بسلام. كنت أواجهها للمرة الأولى. ولم أعد أعرف الآن إن كانت أزمة اليوم ذيلا لها، أو تبعا. ما أعرفه هو أن طاقة تحملي انخفضت. ومـا كان يغريني قبل عشرة أعوام، مثلا وبالتحمل والتحليل، لم يعـد كذلك، الآن. لماذا؟ لأن المواجهة تبدأ من "وضع" وتنتهي إلـى آخر. وعندما نلجأ إليها، مرة أخرى، تكون الأوضـاع، كلهـا، تغيرت: فلا الرغبة هي الرغبة ولا الإرادة هي الإرادة. بمعنـى آخر: لا الشخص هو نفسه، ولا الموضوع، كذلك. ما لم يهزمنا وهو كبير، في المرة الأولى، يمكن له أن يهزمنا وهو صـغير، في المرة الثانية. وهنا يكمن عمق المأساة: مأساة تبديد الحياة.

أنا وحدي. أنا وحدي أحاول أن أفهم ما حدث لي. وحدي خلف الزجاج النظيف، زجاج مقهى (دي فلور) مساء. في الخـارج،

بشر يمر بلا انقطاع. بشر يمر. هادئًا، تحت المطـر الخفيـف المنهمر. كان الزجاج نظيفًا، وكانت الأضواء صافية وعديـدة. أضواء صفر شحابة. عبر الزجاج، كنت أحاول أن أقرأ ما فـي الوجوه. وجوه العابرين الكثيرة. وجوه لا أعرف منهـا وجهـا، كانت وجوه الشام بعيدة، وجوه ذلك النفر المخيف، وجوه الوحل الجميل الذي يلصق كالعلك على الأبدان. كنت أريد أن أمد يدي. أن ألتقط وجها نظيفًا وجها ألوثه بالمغر والحناء. أطلقـه، بعـد ذلك، أطلقه وأنا أجمع اللعب والأعاجيب. لكن البشر ظل يمـر غير عابئ. بشر رمادي.

ألوان الشام الزاهية مزقته كالبروق، وظل، مع ذلك يمر بعـض النساء، كان يتمعن في وجهي ويدققن فيه. ولم أكن أفهم لمـاذا (لو كان معي أحد آخر لضحك مني، حتما. لماذا؟ لأنني أنا الذي كنت أستجلب النظر إلي) كنت ألاحق الوجوه. أبحث فيها عـن الشفاه. أبحث مستلهما وأكولا: ماذا تحوي الشفاه غيـر القبـل والكلام؟ كنت بحاجة إليهما معا؟ شفاه الشـام غـدت خرسـاء؟ وأظل، ذلك المساء أتابع النظر، عبر المطر، إلى البشـر. أنـا وحدي، حاولت أن أستعيد بعضا مني. بعض ما مر بي. بعـض ما عشته، (وأستحي أن أقول بشكل صميمي): حياتي.

ماذا استعدت منها؟ نتفًا من نتف. لماذا؟ لست أدري. بلى، الآن أدري. لم أكذب؟ لأنني، ببساطة لم أعشها. في الحقيقة، لا يملك الإنسان لا ماضيه ولا مستقبله. والمأساة، هي أن حاضره نفسه موزع بين قطبين: قاعدته مدفونة في وهاد الماضـي، وقمتـه مغروسة في سحاب المستقبل. وتريد منـي أن أكـون متفهمـا وألوفا؟ وكأنها لا تكون هي نفسها إلا في العناد، قالت بترفع:

- منذ أول يوم عرفتك فيه، وأنت تتشدق "بالحياة". وكأن الحياة تركيب سحري. لكأنها " صيغة كيماوية محجوبة عـن النـاس. تدهشني الغفلة عند يدهشني تحليلك السريع للأمـور، وتبجيلـك السفيه لها. أحيانًا أكاد أشك في أنك تملـك بصـيرة. منـذ أول المساء وأنا أصغي إليك معلومة. ماذا سمعت: الحيـاة ومعنـى الحياة.

ولم تكمل الكلام. سكتت فجأة. كانت لا تزال تنطوي مثل الدودة اللينة. تحضن نفسها بنفسها. كان الكلام الذي بدأته قبل قليل قـد تحول إلى فحيح. كانت عيونها لا تزال معلقة بالجدار الملاصق لها. وكنت لا أزال أقف، مطاولا ذلك الحائط البليد. ولأول مرة، لم تلفت سفن الضوء العديد.

- لم تلفت؟ قالت مقاطعة ومتعجبة، معا. كنت أريـد أن أقـول شيئًا وقطعته وفجأة تابعت، بهدوء:

- إن لم يكن ثمة معنى للحياة، فقط يكون للموت معنى. عليـك أن تختار. ولكن المشكلة أيسر من ذلك وأبسط: معنى الحياة من معنى الكائن الذي يحياها. ومعنى الكائن هو "فعله". وفعله هـو تحقيق رغباته.لا، الرغبة في تحقيقها، كما هي الحـال عنـدك. وهو ما يفسر بحثك الدائم عن "الكمـال" ولا أظنـك تجهـل أن الإنسان البدائي، نفسه، ومنذ بداياته الأولى، كان قد تجاوز مـا تبحث عنه أنت، الآن (فجأة سكتت، وقبل أن تسكت أضافت).

- لا، ليس ثمة معنى مجرد لأي شيء (قالت وهي تقترب مني بتصميم) وفي النهايـة، لا تنـتج الحيـاة الفارغـة إلا موتًـا فارغًا."زت" نفسك في الفراغ، الآن، وسترى كيف تمتلئ.

أحسست بيدها تقترب مني مثل عصا سحرية دفاعة. تكاد اليـد أن تلامس الثياب. لكن الثياب لم تكن في مكانها. كـان جلـدي معرضا بشكل مباشر للمس. حاولت أن ألتفت. أن أرى مسـار الأصابع. أن أحتمي، إذا اقتضى الأمر ذلك. لكن أصابع المـرأة اقتربت بلا تردد. المرأة ذات المخالب المعدنية الحادة، أذكرهـا الآن جيدا: دخلت بيضاء ناصعة، وخرجت حمراء كالورد. شيئًا فشيئًا تصاب ظهري. وكدت أحسني أرتفع إلى الحافة.

ارتفعت، فعلا، إليها. رأسي صار الآن محاذيا للزجـاج البليـد. صارت الأرض قريبة وبعيدة. ما إن أسقط حتى أخـر كالمـاء الهابط من أعالي الجبال. من يتلقاني؟ ولم تتردد. حفـزت مـن نومها الهادئ كالجن. صارت، كلها في. يد بين فخذي ، يد خلف رأسي، وبحركة مدروسة ومصممة، قذفت بي خارجا. قـذفتني كما نقذف قشرا يابسا وممجوجا. إلى أي أي مـدى ألقـت بـي وكيف سألامس الموت؟ لم يكن ذلك يهمني. كنت مأخوذا بأشياء أخرى. كانت فترة السقوط المستطيلة فرصة للخلاص من كـل شيء. لكن صوتها اللئيم جاء يلحق بي:

"تتودد، وخلف مظهرك الذليل يختفي طاغية، لن تخدعني بعـد الآن". وقبل أن أقول شيئًا، أضافت محتدة:

- لم تزل، كما عهدتك، تلجأ إلى كل الوسائل لتثبت أنك علـى حق، وهو ما يؤكد أنك لازلت دكتاتورا صغيرا. كـان رأسـي يتشظى. ينقسم إلى فوهات. ينفصل عنـي. أراه أمسـكه بـين السبابة والإبهام. أقلبه. أرى بعجب، إلى فتحاته الخمس. أعرفه؟ لا. رأس بغيض. رأس بلا معنى. رأس صـامت مثـل رؤوس الموتى. أدفعه بقرف، بعيدا عنـي. أتـابع سـقوطه العمـودي الواجف. سقوط الرجل الخائف. أركب الهواء بلا رأس. أرتفـع

حتى النافذة التي سقطت منها. كنت أريد أن أرى للمرة الأخيرة، غضون الجسد اللئيم الذي رماني. لم أقتنع، بعد، أنني لـم أعـد لائقا بالمكان. لم أكن قد توصلت، آنذاك إلى القناعـة الشـئيمة بأنني كنت أبحث عما/ عمن لن ألقاه. كنت لا أزال أحسـب أن لب الحياة هو الحب. وأن الحب سيرة سياسة ولم يتغيـر هـذا المنظور بعد فصل رأسي. كنت أبحث جاهدا للوصول إلى حقيقة الأمر. لكن البحث لا يؤدي إلى كشف حقيقي: فمـا هـو غيـر موجود لا ينتج وجودا مستقلا عنه. معنى الحياة في الحياة نفسها إذن؟ ولكن ما هي الحياة؟ وفجأة رأيت رأسي يرتفع مسرعا إلي يناديني: المعنى في الموت. موت الحياة هو معناهـا الحقيقـي؟ تساءلت بحدة. ومن جديد قذفت به إلى القاع. وظل معلقـا فـي الريح. كنت أراه يتطوح كالخيط المعلق بين غصنين: يهوي ولا يهوي. أي شيء يمكن للموت أن يعبر عنه غير الموت؟ الحيـاة الفارغة هي نفسها مصدر الموت الفارغ (كما قيل قبل قليـل). وفجأة أفقت. لكأني نوديت فتحت عينـي. كنـت لا أزال فـي المقهى. قربي تجلس فتاة. متى جلست الفتاة وكيف لم ألحظهـا؟ فتاه مختلفة.

فكرت: لكأن الشبه يقتل الخصوص. سحبت الفتاة نظري منـي. كانت تجلس برفقة امرأة عجوز. أمها؟ لا أدري – كنت أراهـا

صفحا. كانت ترق تحت بصري حتى تزول. خدها أصـفر، لا، لونه طحيني باهت. شعرها أسود، نصف طويل. فرقته من عند أذنها اليسرى، وأخذته يمينًا، أجمل ما فيها أذناهـا؟ لا. كانـت استطالة الوجه الغني تأسر العين. لم أستطع أن أسـتعيد عينـي منها. ربما كان ذلك بفعل الشمس التي بزغت، عصر ذلك اليوم من بين الغيوم غيوم داكنة ومستديمة. غيوم كانت تسـتقر فـي سماء باريس منذ أحست هي بذلك. صارت تضحك للعجز جملة وتفصيلا. هكذا رأيت أسنانها القوية وفمها الكبير. فم يشبه أفواه الشام الظمأى. حاولت أن أرسم شكل رأسها في رأسي. قبل أن أفعل، رفعت شعرها الهاطل عن عنقها. كان أبـيض، أصـفر شمعيا، عسليا. عنق لو أحطته بين أصبعي، لطوقته بلا عنـاء. عنق هيهات، يعلو جذعا صغيرا ملموما. جذع يلـبس حريـرا رمادي اللون، ينزلق عليه بلا زوائد. ينزلق عليه كمـا ينزلـق الماء على الصخر. جذع أعبره، من الضفة إلى الضـفة، لـو وضعت نفسي فيه. امرأة من الشام؟ كنت أتسـاءل. وقبـل أن يأخذني الفيض، جاء "أبوها". اللعنة! رجل يشبهني؟ لكأنه أنا بعد عشر سنين/ قبل عشر سنين. (هه. أي معني للـزمن الـذي لا يحمل وعدا؟) وفجأة قاموا. عبرت هي الشارع راكضة بـدلال، ومشى "أبوها" هادئًا. كانت حركات أردافها الرجراجة المثيـرة

تتعارض مع حركة الرجل الحالم. كنت أفكر: الشـيخوخة هـي عجز الجسد عن الخلاص من مصيره وعجز الفكر عن تحقيـق أحلامه. وكأنها لم تغب إطلاقًا، لفحتني حرارة أنفاسها المتوترة:

- تتكلم وكأنك تعرف كل شيء. تهرف (تعرف) الحـال هـذه وتعرف تلك. منذ عرفتك وأنـت تعـرف كـل مـا لا يعرفـه الآخرون. صرت أبكي كلما أسمعك تتكلم. هذا اليقين المرعـب كيف أصابك؟ أنظر إلي. هنا، في قاب عيني، أنظـر ألا تـرى مقدار الخوف والشك؟ ألا تري الرعب؟ دعائم الحيـاة لا تقـوم على اليقين فحسب. لماذا تخاف "السقطة"؟ ومن سـماها هكـذا غيرك أنت؟ في الشام كنت تتضور جوعا ولم تكن تشك. كنـت تلبس السمائل ولم تكن تشك. كنت تلتهب لمرأى الجسد العـابر ولم تكن تشك. كنت تعتقد أنك تغامر وأنت تسقط في بئر يقيناتك الآسن. كيف أشرح لك الأمر؟ وكيف أقويك. عيونـك، عيـون الشام اللاسعة، لم تكن ترى أبعد من الظلال؟ لم يكـن لخيالـك عيون؟

صمتت فجأة، كأنها لم تتكلم أبدا وأنا أسـمعها، كنـت أخـتلط ببعضي. كدت أدرك الفرق بين دور الكائن ومعناه. قبل اللحظة،

هذه كنت أحسب أن دور الشك هو أن يوصلنا إلى اليقين. لكـن صدمة الخيبة المفرطة في صوتها، أخرجتني عن مساري البليد. وبدت لي عزة النفس التي كنت أتفاخر بها، مثيرة للضحك: عزة نفس عزلاء. عزة النفس هي التحصن. التحصن بمنظور حركي للحياة وفيها، وبدا لي أن ذلك كله محتمل، وغير محتمل كـذلك، وفي اللحظة التي كنت أنظر فيها شرزا إليها، كنت أفكـر:"دور الشك، إذن هو أن يخلصنا من اليقين". كدت أصرخ لكن قومتها المفاجئة لجمتني.

القمر يتلوى غائبا. لم أعد أميز من العالم سوى الدخان. النهـر وحده يلمع في البعيد. الأشجار، التي كانت طويلة، قبـل قليـل بدت، قصيرة مدقوقة في القاع. كان نوع مـن التـوتر الخفـي يركبني. كنت أحسني هنا وأنا هناك. كيف يمكن للكائن أن ينقسم عميقا بمثل هذه السهولة؟

كنت، في تلك اللحظة، مثل عربة يجرها حصـانان باتجـاهين مختلفين. لأول مرة أدركت أن الحاضر الذي أعيشه ليس أقـل خرابا من ذلك الماضي البعيد. كدت أرى في فورة الاكتئـاب، تلك، يدها الصغيرة تمتد نحوي. تريد أن تلمس جزءا مني. يـد أحسستها مثل رأس الأفعى الملفوف. كان الليل يسرع الخطـى. ورأيت أوائل الظلام تلامس قمم الأشجار، أشجار غابة "بولونيا" القابعة في الحضن. كنت، وأنا أتطلـع مـن الطـابق السـابع والعشرين نحو الأرض، أحس بسرتي على مستوى الشـجر ذي المئة عام. كان نوع من الدواخ الخفي يربط بين رأسـي وبـين ذلك الشجر البليد أن يمنع ذلك الشعور من الانفجار. وقبـل أن تلامسني اليد الهوجاء، قمت أمشي وبلا مبالاة اقتحمت زجـاج النافذة من جديد. لا، لم أعد أخشى ارتكاب الغلطـة، ولا حتـى

ارتكاب " الغلطة التي لا تعود". كنت قد بدأت أعرف أن الغلطة هي التي تقود. وقد أدركت (منذ متى؟) أن "الغلطة التي لا تعود هي الغلطة التي فات أوان تحقيقها من جديد". وبـدأت أمشـي فعلا. كان طين الأرض ينشمط مع قدمي. قلت أترك المكـان، أركب الشجر وأروح. أروح إلى مكان يحبني فيـه أصـدقائي، ويكرهني فيه أعدائي. كانت الوحدة تأخذ بخناقي. كنت أحسـني مقهورا. كان خوف غامض يملأ كياني.

كنت أفكر: "لا تترك، أبدا، مكانًا ليس لك فيه أصـدقاء، إلا إذا أردت أن تتركه، فإنه المكان الوحيد الذي لن تعود إليـه، مـرة أخرى". وصرت ألوم نفسي: لِم أعسر الأمور وهـي يسـيرة؟ روعة الحياة مفهومة، ولطفها قريب، لكن الكآبة من أين تنبـع؟ هل للكآبة علاقة بالقبح، وللقبح علاقة باليأس، ولليـأس علاقـة بالموت؟ كنت أحسني ضحية جهلي: ضحية معرفتي الناقصـة. بلى، يلزم الإنسان معرفة واسعة لكي يعبر عن بعض ما يعرف. فالكائن البشري لم يتوصل، حتى الآن إلى الكيفية التي تمكنه من إيصال كل ما يعرف لا، إلى أحد غريب/ مستقل عنه، فحسـب، بل حتى إلى نفسه، هو، بالذات. وأردت أن أبعدها عني. ولكـن أية وسيلة أملك لإبعادها، وها هي ذي تمشي على الريح مثلـي؟ تتخطى من شجرة إلى أخرى بمثل السهولة التي بهـا أتخطـى.

ومثلي تنتظر إلى الجهات، كلها، وكأنها تبحث عني. تمشي فـي صمت وانسحاب لكي تهجم بشكل أكثر جذرية. أعرف أهواءها. وأهدئ نفسي: كن حليما. ولكن أيمكن لمن هو غيـر علـيم أن يكون حليما؟ صرت أفهم أنها هي التي تتعمـد إثـارة سـوئي. وسوئي هو أسوأ ردود أفعالي. ما لم أفهمه هو أن أثار أنا بمثل هذه السهولة، ومن أجل أتفه الأسباب، وهذا هو بالدقـة معنـى "السقطة التاريخية": " أن يسقط الإنسان في حفرة لم يحفرها هو لنفسه".

مضى زمن طويل بين تلك اللحظة المفجعـة: لحظـة الـروح الأعمى وبين هذه اللحظة.أيام. أسابيع. أشهر. اليوم جئت مـن جديد. جلست في مكاني المعتاد، في مقهاي المفضل، في الوقت المناسب، كان الزجاج نظيفًا. الرؤية مكشـوفة. قـدامي تمامـا يجلس رجل ربعة. أركانه مبنية. وفي مقابله، وقبلـي، تجلـس امرأة، تجالسه، أحسست أني أنظرها. وفورا، أخرجت مرآتهـا المستديرة، قلمها الصغير، وبدأت تسوي وجهها: شفتيها، عينيها، شعرها، شفتيها، من جديد، عينيها مرة أخرى. ابتعدت للحظـة عنها، كنت أريد أن أراها مرتين. مرة قبل التسـوية وأخـرى بعدها. أردت أن أعرف ماذا تغير الألوان في الوجه. وجه امرأة

أعرفه سلفا، أنني لن ألمسه، ولن أتحسس ثناياه. كنت أريـد أن أتأكد من أن وجه الكائن المطلي "حجبة "، حجبـة لـن تسـتر ضحالة الوجود. وقبل أن أفعل قام. وقامت. قامت؟ سحبت خلفها وركيها بالأحرى. وركان هائلات لجسد شبه نحيـل. وركـان محشوان، حشوا، في قماش من الجينز السميك. لكأنهما يحتميان به من العيون. الأوراك الدمشقية كانت حرة. تلعب بها الـريح. تداعبها الشمس. أوراك تجرنا وراءها، وننجر. نتبعها من الريح إلى الريح. نرى نزيزها المرتبـك الفضـاح. تلمسـنا قبـل أن نلمسها. هي التي تستولي علينا، أولا. كانـت أبـواب النباتـات الدمشقية العريقة، تحمي (الأخراب) من العيون. أبواب مصنوعة من خشب الجوز ومطعمة بفتات الهند والسند. أبـواب نـدفعها بهدوء، فتنفتح مثل أبواب الجنة المحرمة. خلفها نسقط الواحـد على الآخر مثل الجلود المرفوعة على عود. كانـت أعضـاؤنا تنتشي. تكاد ترقص، لمرأى الأبواب، كنا نعرف أبواب دمشق، كلها، لم نكن نملك دارا. كنا نملك أبواب كل الـدور. نعرفهـا واحدا واحدا. نعرف خفاياها ومزاياها. لكل برهة مـن الوقـت باب: باب الصبح وباب اللمج. باب الظهر وباب القهـر. بـاب العصر وباب الخصر وباب الليل وباب الذيل. ولكل فصل حي: حي الربيع وحي الحفيف. كل شيء كان يسعدنا (حتى انعـدام

الشيء ذاته) شرط أن نحصل على ما نريد. أين يمكن أن يخبئ الإنسان نفسه عندما يرغب أن يعطيها للآخر، الآخـر يطلبهـا بإلحاح.

(١١)

كانت الساعة تقترب من الواحدة. وكان موعد العودة قد حـان. وحدي. أفتح الباب وأدخل. وحدي. أمر على المطبخ البـائس. وحدي. آخذ قطعة من الخبز الناشف، وبيضة سـلقت صـباحا، وعلبة من اللبن المحنط. وحدي. أخبار الساعة الواحدة ستبدأ بعد قليل. وحدي. وحدي، سأقابل جهاز البث الذي سئمت بثه منـذ زمان. وحدي كنت مصمما هذه المرة على أن أفهم كل شـيء: أفهم القريب والبعيد. الممكن وغير الممكن. ماذا ينقصني لكـي أفهم ما أرغب "حتى الموت" بفهمه؟ وفجأة أرتبك. وكأني أسمع الصوت (الذي صرت أعرفه من بين أصوات البشر، جميعا):

-لا تحاول أن تفهم شيئا لقد فهمت، في الحقيقة، كل شيء. منـذ الآن عليك أن تكون فاعلا. وحدها الأشـياء الصـغيرة تصـنع الحياة الكبيرة. صمت. الأشـياء الصـغيرة، وحـدها؟ (رددت الصوت الذي اختفى من حيث جاء: صوتها الذي لا يحضـر إلا للتوبيخ). وصلت في الوقت المناسب، إذن؟ وقت أخبار السـاعة الواحدة ظهرا. وحدي. وصلت راكبا على قدمي. غربة مخيفـة

كانت تستبد بي: غربة يلازمها فراغ قاتل للنفس. حتى رأسـي، صرت أحسه غريبا عني. غربة الرأس المرافقة لغربـة الحـال بدت لي نوعا من الهبال. كنت أحسني في عالم ورأسي في عالم آخر. من قبل، كنت أحسب أنني أقوم بنقد ذاتي مسـتمر. نقـد يطورني. وكان الشعور الدائم بتلك الغربة دليلـي علـى مـدى فعالية ذلك النقد. ولم تكن تلك الاضطرابات، فـي الحقيقـة، إلا التماسات مغرية للذات لكي ترضى عن حالها. ومنذ أن أدركت ذلك غدا من المستحيل أن أستمر في لعبتي المزيفة، هذه، إنـه الحصار المعمم، إذن: حصار الواقع وحصار المشهد. السـاعة الواحدة، ودقائق. القناة الثانية تبـث أخبارهـا المتواطئـة بـلا انقطاع. (التل) محاصر. محاصر من الجهات، جميعا. من جهة الصديق. ومن جهة العدو. تل صغير في أقاصي الأرض. تـل منفي على القاع، يحاصره العـالم، كلـه. يحاصـره بأسـلحته ومعداته وتقنيته. يحاصره ليعلن على الملأ موته النهائي. الموت وصورته الآنية. صورة الفتك المخطـط والمـدروس.العدسـة تقترب. تلاصق الجثة تدخل الجثة بعد الأخـرى فـي نورهـا. تنزاح الجثة لتقع الأخرى في لقطة العدسة. الدم الأسود ينشـف قبل أن ترطبه العدسات. (العالم الذي يلتهم لا يكف عن الأكـل والشرب) من فوق التل يعلو الصوت. صوت القذف الـذي لـم

ينقطع منذ أخبار البارحة ظهرا. الجثث المعروضة اليوم تكـاد تكون هي نفسها جثث البارحة من أين تنبع تلال الجثث وثيابها؟ وهذه الرؤوس المكسرة كأحجار الجبل العتيق ويضيق بها الأفق ولا يضيق؟ بتردد أقرب الخبز اليابس. أرطبه باللبن المعلـب. أقشر البيضة المسلوقة. أخلط هذا بذاك. أكاد أبلع. لكن الصورة تمنع. اليد تتوقف في الفضاء. تتوقف وتستدير نصف اسـتدارة. الاستدارة النصف، المألوفة، نفسها، استدارة الساعة الواحدة، كل يوم كان المشهد يؤكد أن التل وصل الدرك الأسفل من المـوت، والذروة الأقصى من العناد. لم يعد بإمكانه أن يموت أكثر مـن ذلك ولا أن يحيا أكثر من ذلك. كنت أحس أنني وصـلت إلـى الحد الأدنى من الحرية والحد الأقصى من التنازل. كنـت قـد بلغت عتبة التنازل الإنسانية الأعظم: لم يعد بإمكاني أن أتنـازل أكثر. كانت يدي لازالت معلقة. أمسكت بهـا، وأعـدتها إلـى مكانها، قربي. ظلت يدي معلقة، رغم أنني أعدتها، فعلا، إلـى مكانها الطبيعي" المناسب". يدي تعاندني أتساءل بحماقـة. كـان رأسي، في الواقع، هو الذي ارتفع إلـى صـف الاضـطرابات المعلنة، فجأة، تزاد العدسات عدسات جديدة. الصـور تتلاحـق مثل المطر المنهمر. صور الجثث التي فقدت للتو معناها. معنى أن تكون جثة هو أن تدفن، لا أن تعرض كمشهد فـي الفضـاء

العام. لكن للتل الصـغير المنفـي خصوصـيته. خصوصـية "الصورة" التي صارت "مفهوما فلسفيا". الصورة التي تقنع العين قبل العقل بأن ما يحدث، قد حدث فعلا، وأن حدوثـه لا يتعلـق "بنا" أي أنه لا يحتاج إلى "قبول". وبالتالي، فليس لنا أن نرفضه، أو أن نتخذ منه موقفا منطقيا. هذا ما تطمح إليه" فلسفة الصورة" ومشتقاتها. مفهوم" لا نهائية القوة وهشاشة الضعف"، الذي كـان تقذفني به الصور المتلاحقة ومنذ أول الأخبار، وضعني فجأة في مأزق " العقل الذي ينزف". حركية الصور واختزالهـا للواقـع، حولا" الحدث المأساوي" (لا، فهذا لا يعبر بدقـة عـن الهـول العظيم) حولا "همجية التدمير" (لا، أيضا، فهذا ليس هو التعبيـر الملائم) حولا " تفتيت الإنسان للإنسان، وتذريره" (هـل نكتفـي بذلك؟) (لا، فهذا أيضا يعجز عن التعبير)، حولا هذا كله وذلك، وخصوصات أخرى كثيرة إلى "مشهد مقلـق" فحسـب. مشـهد يهدف أساسا إلى بيان "ركودة الجسم" وقصوره، مقارنـة مـع "حركة" الصورة وزوالها. الصورة العابرة، التـي تسـد منافـذ العقل، وتفسد الروح، والتي تجعلنا نقف، في مكاننـا، نتفـرج. الصورة التي تصنع من الفعل الإنساني الأشد بشـاعة مجـرد صورة بشعة. بتحويلها لفعل الكائن الشديد التعقيد (أقصد الفعل) إلى صورة له، أسست "حضارة الصـورة" المسـطحة ثالوثهـا

الرهيب: حركية الصورة، سكون الجسد، بلادة العقل. وهو بـلا شك وراء تشوه الفعاليات الإنسانية، كلها بما فيهـا مـا يسـمى "الحروب الأهلية"، التي بدلا من أن تكون (تفجرا لكبت جماعي) "مبرر"، تحولت إلى حروب "مسخ" تثير الضحك والارتزاق. ولم تنقل لنا (وعنا) من التاريخ الإنساني العظيم (لا أقصد التـاريخ الحربي، فحسب) إلا صورا مبثوثة في ثنايـا الكـلام الهـاذر والبليد. وبدلا من أن نواجه أنفسنا (أقصـد الواقـع والتـاريخ) بعيون جريئة ومتحررة من مفهوم المنفعة والابتـذال، أصـبنا (بعصاب الكمال المرضي). وهذا العصـاب (مقنعـا كـان أم مكشوفا)هو الذي يدفعنا (كما يدفع البغل المدرب على المسـير بحمله حتى آخر الشوط) إلى الركـون "التـاريخي " بانتظـار صورة جديدة أشد هيمنة وأبعد أثرا.وهو نفسه، بلا ريب، وراء بحثنا المستمر عن " مزايا العيوب". وهو، لابـد، (مـن بـين عصابات أخرى عديدة) وراء ركضنا الهوسـي المـتمكن منـا (المتمكن بشكل لا انفكاك منه) خلف التبريـرات (حتـى ولـو كانت زائفة. وهي دائما كذلك). تلك التبريرات العبثية التافهـة والتي تكاد (لشدة تفاهتها، مهما كان مبررها)أن تضحك الموتى لا الأحياء المندمجين (برضاهم أو برغمه) في أدوارهـم التـي رسمت بعناية لهم. حضارة الصورة التي أواجه مدها الآن، ليس

لها منظور تاريخي، ولا ترتكز على رؤية فلسفية خاصة بهـا، وليس لها سند أخلاقي أو عاطفي، إنها، ببساطة ضـرب مـن ضروب السلعة العابرة المنتشرة، حاليا فوق الأرض.
ولكن لماذا أظل أواجهها قاعدا؟ لماذا؟ وفجأة،صرت أصـرخ. كنت سعيدا وشقيا معا. وكان ذلـك الشـعور المخـتلط ناجمـا (بالتأكيد) عن تلك " الوحدة الحادسة": وحدة الانفكاك المفـاجئ الذي يعقبه وصل جديد. وصل له طعم الولوج في "جوف" مهيأ لذلك. وصل له طعم الانفكاك ورائحته. كنت أفكر، بلا انقطـاع منذ بداية أخبار الواحدة، ظهرا: "إن كنت لا تعرف إلـى أيـن تروح، فلا تنس أبدا من أين جئت".

كانت الصور تتعاقب دون انقطاع، كأنها في سباق. في سـباق، لا، مع الزمن، (فهذا في فضاء الصورة لا معنى لـه إطلاقـا، لأنها "شيء" منجز سلفًا. منجز لا من حيث التكـون فحسـب، وإنما من حيث المفهوم، أيضا) بل مع نفسها هـي. إنهـا بنـاء محكم الإغلاق. لا يفك ولا يطاق. بناء تنظره من خارج تسكنه وأنت لست فيه. فلسفة الصورة هي فلسفة القبول بمـا تصـوره لك. القبول المطلق، باعتبارك لا تملك صورة أخرى تناطحهـا بها. فمن يريد أن يناطح يحتاج إلى قرون والقرون هي الحجـة

والحجة هي العقل. والعقل ينقله اللسان. واللسان في الفم والفـم مملوء صورا.

قهر جديد لا عهد لي به، ينضـاف إلـى القهـورات القديمـة، "الكلاسيكية" ولكن، كلما ازداد القهر شدة، اتسـع العقـل ونمـا الوعي. كدت أفرح لهذا الاستنتاج البسيط، و(أكاد أقول الكاذب)، فمن تجربة حياتي المقهورة لم أشعر أبدا بأن عقلي غـدا أكثـر اتساعا. وأستطيع أن أؤكد أن وعيي لم يزل في حالة "الوعي – الوليد"، مع أنه يخدعني أحيانا وأكثر أشكال خداعـه لـي هـو الإلحاح المفاجئ على أنني وعيت وكان الوعي يريد أن يثبـت لنفسه أنه وعي يعي فعلا، وليس هو مجرد اسم، وفجأة لم أعـد أرى الصور السخيفة التي كانت تتلاحق بـلا انقطـاع. كنـت أكتشف، مذهولا، أن لكل شيء معنـى. وأن كـل مـا يحـدث يستوجب التمعن فيه كفعل له دلالته التاريخية الخاصة به.لا، لم يعد الحياد ممكنًا، بعد الآن. بتصميم، قـذفت بالوجبـة البـاردة البائسة، وجبة"مدينة النور" المظلمة. وأنـا أرمـي بعيـدا بهـا (الوجبة)، كانت إحساسات الشام القديمـة تدغدغني،إحساسـات لمس اللحم المشوي عند (أبو كمال). وملمس الخبز المحمـص الذي يوضع بأبهة أمامك وأنت تنظر في البعيد تنظر حيث تمر

ظباء دمشق اللحيمة. وقبل أن تمد يـدك الخائفـة إلـى ذلـك" الفضاء"، تحس بلهاثك ينبثق في العمق. لهاث الشهوة الهادئـة، ولكن التي لا تثني عن الالتهام.وكدت أسمع فحيح اللهب الجواني المرافق لمثل هذه الاحتقانات. تأكل؟ أولا تأكل؟ تسأل نفسك، في اللحظة التي تسأل فيها. ولكن. كيف لك أن ترد وأنـت تلاحـق الضياء الذي لا يكف عن المرور؟ وقبل أن يعود السائل الغريب ينتهي كل شيء وكأنه لم يكن، أبدا. وتستدير بتمهل على جنباتها وأنت تداعب بالظواهر اللذيذة بيديك. ومن يديك إلـى جـذعك ينتقل النور: نور الشهوة المتجددة كالماء الدافق. قذفت ذلك، كله وقذفت نفسي في حذائي ومن السماء السابعة والعشرين هبطت. هبطت هادئا ثم ما لبثت أن أسرعت. أسـرعت أكثـر فـأكثر، ولأول مرة، منذ دهور وجدتني أركض أركض، وأنا أتحسـس الورقة في جيبي. الورقة المشقوقة. (ورقـة العنـوان). آخـذ (المترو)، فورا. وفورا أصل. أصل بعد دقائق. وجهي مكفهـر، أنفاسي تتلاحق مثل أنفاس عصفور أفلت من قفص لـم يتعـود عليه. أقف أمام الباب، كلي. أتمعن في السكون الغريب الذي لم أكن أتوقعه كنت أحسب أنني سأصل والجموع تتـزاحم. أعيـد النظر بالباب. الرقم نفسه، الباب مهترئ. شديد الاهتراء. المكان وسخ. شديد الوساخة، أتعجب: مكان قديم وباب وسخ إلى هـذا

الحد وفي قلب باريس؟ ولكن لا أحد يسمع، كان الوقت ظهـرا ولم يكن في الجو عصافير. الصور المخيفة التي قذفت بي إلـى الأرض لم تقذف بأحد غيري؟ وإسراعي اللحـوح فـي أنفـاق المترو لم ينجز سوى الوهم؟ أتهيـب الـدخول، أو لا أتهيـب؟ لا ولكن كيف ألج دون إنذار؟ وكيف أنذر من هو غير معني بأن ينذر؟ أدفع الباب بهدوء ينفتح الباب. ينفتح باعثًا صريرا خفيفًـا ومزعجا، في آن. خلف الباب، لا يوجد سوى الممر. ممر طويل معتم، وسخ، وبه عفونة رطبة. ممـر مـن ممـرات (سـوق ساروجة)، في عين باريس؟ أقف في الممـر، وحـدي. أقـف؟ اشتاق بالأحرى. الشام مرة أخرى؟ بدهشـة، أتملـى السـاقية الصغيرة النازلة من أعـالي المكـان إلـى أواطئـه. سـاقية (المزة)القديمة؟ اللعنة. أقرأ اللوحة الوسخة على وجه المـدخل الداخلي. بلى، هو المكان الذي أبحث عنه، أدخـل مـن جديـد تستقبلني وجوه مرعوبة وجوه رجال أكـاد أعـرفهم. رجـال غاطسون في الخوف. كيف تتسرب الحياة لدى الكائن المذهول؟ ومن أي فتحة من فتحات الجسد وأخلاطه تسيل المادة الإنسانية في مثل هذه الحال؟ من قبل، كنت حريا أن أصرخ في العنـف. أصرخ وأنا أبكي. أصرخ وأنا أحكي.

كنت أتصور أن لي حقا طبيعيا في أن يكون لـي موقـف. وأن أكون معنيا بالدفاع عنه. كان ذلك في بداية الاحتقـان. وشـيئا فشيئًا. صار الشام معادلا للتوتر المفرغ من محتواه. صـرت لا أصرخ حتى في النهار. لكن تلك الشحنة من الاسـتياء ظلـت تلازمني. وهنا تحولت إلى شيء يشبه النزيف الخفي. صـرت أحس بنفسي حرا إلا أنني لست في مجالي. حرية بلا محتـوى كانت تملأ أركاني. حرية تكاد تكون عبثية. ما معنـى الحريـة التي لا تنجز فعلا؟ وهل يمكن للكائن أن ينجز مثل هذا الفعـل، وهو يحيا في وسط ليس هو أحد بناته؟ أوليس " الحرية" في هذا السياق، مجرد وهم نعيشه؟ ولكن لم ترانا نصر، مع ذلك علـى أن نعيشه؟ الآن القمع الذي عشناه فرغنا من الإحساس؟ أخرجني السؤال المباغت من دخيلتي:

- وي. انتري. (نعم.ادخل). وأدخل.

أمر بوجوه سمر، شاحبة. وجوه شباب طوال، في مقتبل العمر. تملؤهم كآبة بلا حدود ثيابهم رثة، لكنهم شـمروا عمـدا عـن سواعدهم الهزيلة. كانوا ينتظرون الذي جئت من أجل الحصول عليه. كيف اشرح أمري في هذا الخبل الجماعي؟ حولهم كانـت تدور، بلا هدف واضح فتيات المكان الذي ولجته للتو. فتيـات

شقر سمان. أردافهن ممتلئة بشكل يثير القرف. بأيـديهن أوراق شبه رسمية. عليها يسجل المتطوع اسـمه وعنوانـه وجنسـيته ومهنته وأشياء أخرى. يسجل وهو يسأل. وأسمع ولا أسمع.

من أنت؟ لماذا أنت هنا؟ ومن أجل ماذا؟ ولم تريد أن تتطوع؟

ويتبع الأسئلة المنهجية بعض الشرح. شرح يكاد يكون متواطئًـا ومخلا. المكان محاصر. نحن نعرف ذلـك. يـرددون. يـردد الصوت اللين: لكننا لا نستطيع أن نعدكم بالوصول إلى هنـاك. خذونا إلى أقرب نقطة، إذن. لا نستطيع. نور العيـون السـمر ينطفئ. تركب الأجساد الجاثمة حركات شـبه عصـابية. لكـن الصمت يسود للحظات طويلة. فجـأة، يتحـرك أحـد الشـباب الجالسين، يتحرك وهو يتذمر: نريد أن نموت. ودون أن يبـالي أحد بما يقول، يتحرك الشاب الذي نذر نفسه للمـوت. يتحـرك ولكن في مكانه. كانت الرغبة في الموت تتجلـي، فعـلا فـي قسماته لكن الموت وبالشكل الذي يطلبه فيه لم يكن ممكنا. لماذا؟ سأل الشاب بعدمية صرفة، عدمية تشبه إلى حد كبيـر عدميـة البائس وتجيء الأجوبة التي لم يكن ينتظرها:

"لأنك عربـي، ولأن الحصـار حصـار لتـل عربـي. ولأن المحاصرين عرب. ولأن أوراقك عربية. ولأن إقامتـك، هنـا إقامة عربي:"إن خرج لن يعود" ولأننا، في هذا المكان الفقيـر،

الذي لم ترعه بعد هيئة عربية غنية، لا نملك ثمن تذاكر سـفر محتمل. نحن هنا من أجل أن نلفت الأنظار إلى " المأساة"، فقط".

وينظر الشاب الذي كاد يلتهب لسوء التفاهم التـاريخي: سـوء التفاهم العميق بين "المشهد" وبين " الفعل "، ينظر ساخطا إلـى الورقة الممدودة نحوه. وبدون أن يقول شيئا، يسأل. ولـم يكـن الجواب، شيئًا آخر، غير الجواب الذي كان يعرفه، جيدا: وقعوا، ضد الحصار، (وأرى الرجل المهمل في البئر. بئـر الأفـاعي السامة رجل حبيس يريد أن ينجو بنفسه. شـعره طـال. ثيابـه اهترأت. جلده امتلأ قروحا. رجل يحاول منذ سنين أن يتجـاوز قدره ولكن كيف؟ أخيرا يخرج من " المسقط". وأتابع، في البحر والغابات والبر هروبه المخيف على الشاشة، إلى أن يسقط مـن جديد بيد الثعبان الأعظم: السلطة التي هرب منهـا). وقبـل أن أخرج إلى الريح تشدني اليد السمينة:

"ميسو". "مسيو". (لم تتوقف، منذ أن أوقفتني عن الكـلام). ولا أرد. لكن اليد التي تعلقت بي لم تتركني. تريد اليد أن تفهم. لكن الأيادي لا تفهم العيون. كيف أشرح لهـا الأمـر؟ إن تكلمـت، ربطني لساني. وإذا اضطربت وقعت في أسر اضـطرابي،وهو

ما سيسهل لها الأمر، وبعفوية، أشرت إلـى لسـاني، (إشـارة خرساء). وبتهيب فكت "رباطي":

فوزيت موبيت؟ (أنت أخرس) ولا أهز رأسي. "فوريت سورد؟" (أنت أطرش؟)، وأهزه. في الخارج، بدأت أتنشق مـن جديـد، بعض الهواء، بعض الهواء البليد. هواء باريس اللامبالية. كانت الشوارع، كالعادة، ممتلئة بالناس، ناس من كل الأجناس. نـاس الشام القدامى كانوا واحدا. كانت اللوعة ترى علـى وجـوههم المتهيبة. خوف غامض كان يلين قسماتهم. خوف يغري.
عندما تقع الفريسة فـي الشـباك: لا تـؤلمني. لا تنهشـني. لا تعصرني. لا تفعل بي. لا تعذبني. آه، هذه الـ (لا تعـذبني) الصادقة في الخوف والارتباك. هذه الـ(لا) العبثيـة. تقـول لا تعذبني والحياة كلها عذاب؟ لكنها لشدة، لشدة الوجـد، لا تـرى غير عذابها. في الخارج وجدتني أردد: أعود كما كنت؟ لا. علي أن أفعل شيئا ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟ لا شيء؟ بلى أشـياء كثيرة يمكن لي أن أفعلها.

بأيها أبدأ؟ بأبسط الأشياء وأسهلها: بي. كدت أضحك في ذلـك النهار المقيت، أحد نهارات حصار(التل) الرهيب. كانت " مسألة

التوقيع، ومبدأ التطوع"لا يزالان ينهشان أطراف نفسـي. كنـت أدرك بهدوء مدى العبث في أن يتطوع المرء، من تلقاء نفسـه، للمساهمة في حدث لم يكن طرفا فيه. وبخاصة عندما لا تعبـر هذه المساهمة إلا عن استلاب غامض. عندما لا تكـون "فعـلا واعيا". كنت، في الحقيقة، في مأزق، وأردت أن أخلـص منـه بمأزق آخر. الذين أغرونا بالخلاص الوهمي كانوا هم أيضا في مأزقهم الخاص، وإن حاولوا الخلاص منه بجرنا، نحـن، إلـى مأزق جديد. كنت أفكر: من أجل لا شيء أضعت كـل شـيء. أضعت الواقع وصورته. أضعت الـ(هنا) والـ (هناك). لكـن الأمور لم تكن واضحة إلى هذا الحد. وأحسسـت بـي كائنـا متحجرا، كائنًا لا دواء له، بعد الآن. كان نوع مـن الصـراع الخفي يدور في نفسي بين ما أفكر فيه وما أعبر عنه. وأحيانـا كثيرة لم أكن قادرا على التعرف حتى على (أنا). كنت كالأنبوب المثقوب من طرفيه. (وأضحكني التشبيه. فالكائن الإنساني، في الحقيقة ليس شيئا آخر غير أنبوب مثقوب الطرفين).

أردت أن أعبر عما يجري في أعماقي بعبارات ملائمـة، لكـن القصور كان أعمق مما أتصور. كنت أستعرض، بـلا توقـف، أساطيلي من الكلام، من الجمل الجاهزة، من صفات الخلق، من "المنظومة" المحمولة فوق "نفسي" منذ وعيت، دون أن أجد فيها

شيئا صالحا للاستعمال. كان نوع من الاهتراء العميق يحل فـي كل شيء: مثلما نشيخ تشيخ العواطف. وتشيخ أيضا، وهو أسوأ ما في الأمر، الكلمات.

(١٢)

كدت أبتهج وكأنني ألج المدينة، للتو(حين دخلـت فجـأة ذلـك المقهى الصغير) ألج مدينة لا أعرفها، من قبل فـي مـواجهتي تجلس امرأة وبنت. شفة البنت معلقة بأنفها: شفة البنت اللاصقة بأمها كالفطر اللاطئ تحت شجر كبير. شـفة تشـرب الشـاي ولا تبتل. وحدها، الشفة السفلي تمتلئ سائلا ساخنا. العليا تنظر إليها تنظر في الأسفل ولا ترتوي. ترتفع السفلى إليها. تمسـها. أرى لمعان السائل الساخن ينبسط فوق انحنائهـا القرمـزي: آه شفة البنية اللاطئة تحت الأم، الشفة التي يلحسها اللسان.

رأت الأم عيوني؟ فجأة خطفت بنتها وقامت. من جديـد بقيـت وحدي. استدرت نصف استدارة، صارت الشمس فـي عينـي. ملأني ضياؤها الباهر بظلمة عتية. ظلمة دفعتني، فورا، إلى فتح عيوني. كان المقهى، بعد، ممتلئا بالناس. ناس لم تكن البنيـة – الفطر بينهم. وبلامبالاة فتحت كتابي وبدأت أقرأ.

(بدون شك، فإن عالمنا الراهن يفضل الصورة على الشيء والنسخة على الأصل، والتمثيل على الواقع والمظهر على الوجود المقدس بالنسبة له ليس إلا الوهم. وما هو عرضي، وعابر ليس إلا الحقيقة. وأسوأ من ذلك، إن المقدس يكبر في عيونه بقدر ما تتضاءل الحقيقة ويتضخم الوهم).

(١٣)

نافذة الطابق السابع والعشرين مشلولة. مشلولة بظـلام الكـون الذي أخذ يرقى إلى أعلى. ظلام يجيء بلا توقـف، منـذ أول المساء. عجبا، لم لا يتوقف الظلام في منتصف الطريق؟ كنـت لا أزال ألتصق بزجاج النافذة البليد. أنتظـر، بفـارغ الصـبر، مرور سفن السواح المجللة بالأضواء. أضواء تنتشر فوق سطح " السين" الهادي: نهر من النفايات الكيمياوية، فقـد فيـه المـاء خصائص حركته اللاعبة. الحركة الهوجاء، أحيانًـا، والخوافـة أحيانًا أخرى. لكأن الماء صار، هو الآخر "شيئًا" مربوطا إلـى حواف النهر. كنت أكتشف، بمرارة أن الحيـاة الفارغـة التـي أعيشها هي حقًا حياتي. وهي حياتي الوحيدة. وأنني لن أعرف، بعدها، حياة أخرى. ومع ذلك، فإن الانتقال من هناك إلـى هنـا ضأل إحساسي بأهميتها، بـدلا مـن أن يضـخمه. وأغرانـي. بالاعتدال بدلا من أن يدفعني إلى التطرف. أعيش وكأنني محاط بغلاف عازل شفاف. أرى العالم ويراني دون أن أتفاعل معـه، أو يهتم هو بي. صرت وكأنني" أسبح في بحر مياهه مرسـومة على الورق لا بللا ولا غرقا".

وخطر لي أنني إن بقيت في هذه النقطة فسأغطس، لا محالـة، في ذاتي المحدودة. ذاتي التي غدت باردة كالخبز البائت. كنـت أتضور شوقًا إلى ملاقاة اليم. لكن الظلمة اللعينة جعلت شـوفي محدودا. ظلمة " باريس اللامتناهية. وكأنها لم تتـرك فضـائي، أبدا، هبت. فرحت: " ستقول، هذه المرة، شـيئًا لطيفًـا". لكـن حركاتها المتناقضة كانت توحي بأنها تريد أن "تقاتل" ولم أستدر. كنت أرى من الخلف كل ما يمكن أن يجيء من أمام. فلم أعـد أتوقع من حياتي المبتذلة لا إرهاقًا ولا معجزة.

كنت أقف على حافة الوهم. الوهم الذي صار،لأول مرة، وهمـا حقًا. كنت قد استنفذت، كما كنت أتصور، ذلك المساء العاصف الذي سينتهي بموتي، (بموتي مقذوفًا من الشباك) كـل أسـاليب "الحيلة على النفس" تلك الأساليب الهمجية الوهامة التي جعلتنـي أعتنق الطيش. كان قد مضي على وجودي، هنا، مـا يقـارب العشرين عاما. وكنت قد قررت، هذا المساء، أيضا، أن أتـابع بحثي المستمر عنها. أن أتفرس في الوجوه المارة (مثـل مـن يبحث عن مفقود): وجوه الأمكنة المختلفة أبحث عن وجه سلب مني، وانسلبت به؟ لا، في الحقيقة، لم أكن " أبحث عن..." كنت أتمعن في الوجوه المحيطة بي كمن يرجـو أن يلتقـي بشـيء

أضاعه. أضاعه، ولن يلقاه لكن تلك لِم هي تلك حالتي، أيضـا. كنت أتأكد، أكثر فأكثر، عبر تحديقي المدقق، أن العالم مختلف، لا مؤتلف. وأن علي، في النهاية أن أخرج من مستوى الكـذب، والزيف إلى فضاء المواجهة والتماسـك. كنـت لا أزال فـي المقهى، وكان الكلب الذي لم يكف، منذ جلوسي، عن الـدوران بين رواده ينظرني. ينظرني الكلب بعجب" كلب سمين آمـن لا جاع ولا هرب". أدع الكلب ينظرني مشغوفًا، وأنظر غيره. في الخارج، عند " بائعة الكريب" تقف الشقراء: طويلـة، نحيفـة، متناسقة شعرها نصف طويل- نصف قصير – تبدو مغربية، من الخلف، هي واقفة، وأنا قاعد. كيف لا أميز بنية جسد ينتصـب؟ آه، اختفت قبل أن أتم رؤيتها. أعود إلى الداخل، حيـث النـاس مقيمون. مثلي. جارتي المباشرة سمراء، نصف عمـر، أخمـن ذلك من انحناءة ظهرها. شعرها أسود" صباغة"، يزينه مشط من ذهب مزيف. بأذنيها قرطان من اللؤلؤ الخـام. رائحـة ثيابهـا توحي بالإنهاك: رائحة امرأة لم تعد تنتظر شيئًا من الحياة؟.

سعلت بشدة، وبشكل مزعج، وأنا أحدق في وجه الرجل الـذي يجالسها. أردت أن تدير وجهها إلي. كنت أريد أن أرى عينيهـا وشفتيها، وبخاصة أنفها. لم تستدر. كنت أعرف أنها كانت تنظر

في عينيه. تبحث فيهما عن رأيي فيها. كنت أعرف ذلـك مـن الاختلاجات المفاجئة التي بدأت تصعد ظهرهـا، منطلقـة مـن إليتها. من جديد، حدقت (لكن بعدائية ظاهرة هذه المرة) في وجه الرجل الجامد. وجه " التمثال الحي". الوجه الذي لم تعبره رغبة منذ أعوام، وربما، منذ عقود. ولابد أنها رأت في عينيه بريقًـا معاديا (بريقا شديد العدائية) لي. إذ تصنعت، بعد لحظة، حركة غير معلنة، جعلتها تراني: أنف مبتذل شديد التناسق. فم مسطح بلا شخصية. وجه متنكر بعناية: وجه يسجن إحساسـاته خلـف أصباغه المتراكمة.

أدرت وجهي، حانقًا: جسد بلا وجه، جسد بلا ذاكرة. لا، ليست هي المرأة التي أبحث عنها.

كان نوع من النفور المباغت يستولي علي. كنت أفكر، متكدرا: أن تكذب ليس هو ألا تقول الحقيقة ولكن أن تناقض تصـرفاتك أمنياتك الحقيقية. " هيا بنا نذهب، هيا". كنت أحث نفسـي وأنـا أقترب. واقتربت أكثر. وهجمت من قريب علي: أكسر الشباك، واطلع. لم أرد. كنت أريد فعلا أن أكسر الشباك. وكسرته. كنت

أريد أن أرى دون حواجز. أن أقارب، أكثر ما يمكن، الأشـياء التي لم تتوقف عن التمازج والاختلاط.

كانت اللعبة تغدو لعبة سمجة للغاية. كانت تملؤني الرغبة في أن أحكي. ولأول مرة، رأيت أن الكلام هو الآخر، سلاح. سـلاح فتاك. ولأنه كذلك، كان علي أن أحسن استعماله بعد الآن. كنت قد بدأت أقترب من التكاثف، وأبتعد أكثر ما يمكن عن الميعان، عن ذلك الخليط الهلامي، الخليط الغبي الذي كان يـدور مثـل النحول في رأسي. ولفرحتي صرت أريد أن ألمس ذلك الشعور الجديد، ذلك الدفق الكثيف الذي يفتت" خليطنا" كله ويقلب كمـه إلى نوع. ولكن كيف؟ كيف وهي تلبد ورائي كالأفعى؟ ووجدتني أكرر نفسي. أكررها ببلادة لا تطاق. وهل تتكرر" نفس" إن لـم تكن نفسا خاوية؟ أوليس "التكرار"، فـي النهايـة نوعـا مـن الاجترار؟ بلي. ألا تكرر، إذن، وألا تتكرر هو وحـده الفـرادة البشرية. ومتى كان التماثل ميزة؟ كنت لا أزال أكرر آمرا نفسي "هيا بنا نمشي هيا". وفورا أمشي. أغمض عيني وأمشي وحيدا، بين المتحف والجامعة. القيظ لاهب. الشوارع خاليـة. تحـرس الكون، آنذاك، شمس تمنع كل شيء: تمنع الحركة كمـا تمنـع السكون. شمس تضع الوهج في أعماق الجسد الذي بدأ يلتهـب.

كان النور الحراق الذي يغذي الضغينة هو الذي أحاط بي مـن كل نحو. كنت وحيدا، حقا. إلا أنني كنت بالأخص، لا شيء. لا شيء آخر سوى قدمين تذرعان شوارع دمشق من الصباح إلى المساء. علام كنت أبحث؟ كان معنى "الوقت" يتجسد في "اللقوة". واللقوة، دائما، امـرأة. امـرأة مـن...(كنـت أمشـي وأنـا أتمتم) :"أبحث عن امرأة، نارية العينين والشفاه، والجسد./ امرأة مهتوكة السترين، في الهوا معلمة/ ترود من مجاهلي ما لم يرد"

كانت الشمس تمنع الانسحاب، الانسحاب نحو النفس الظمـأى. تدفع بالعين إلى الأرض خشية السقوط. السقوط مـن العطـش والجوع والرغبة. الرغبة في الالتهام. التهام أي شيء، حتى ولو كان عضوا من أعضائي. وفجأة، كانت أمامي. ولم يكـن ثمـة ملجأ. الثوب أصفر لصاق الأرداف تهتز بذهول كذهول من لـم ينم منذ قرون، أو ذهول من يريد أن يمسك أرنبا جاثما أمامـه. ومتحفزا، مع ذلك، لهرب جديد. أرداف كدت أمسك بهـا بـلا استئذان. لكنها ظلت تمشـي. لكأنهـا لـم ترنـي. آه! أرداف المشغولة عني بمشيها الهادئ (العالم، كله، ملك ردفيها).

نظرت إلي؟ نظرت إليها؟ من بدأ النظر إلى الآخر؟ كان بـاب المتحف مغلقا. ولم يكن ثمة ملجأ. أمشـي.. أغمـض عينـي وأمشي. أحبس الوهج المتسلط. أضـعه داخـل العـين. أمنـع الأصابع من الاضطراب. كانت المشية، وحـدها، متعـة مـن لا يعرف كيف " يقضي". رفعت إلى الشمس، رأسي: لا أحد في الكون غيري. "التكية السليمانية" وحدها في الوجـه. حيطانهـا بيض وسود. يتعاقب لوناها بشكل أفقـي ومتناسـق، وجميـل. حيطان توحي بالخلوة.

الرغبة تشع من الجسد. لا، لم يكن ثمة في المكان أحد. أبـواب التكية نصف مغلقة، نصف مفتوحة. لمن كانـت العتمـة تفـتح أبوابها؟ كانت لا تزال تتلوى، وكنت لا أزال أغمـض عينـي. أحبس النور فيهما. أيده. باب التكية الهائل يئن عند دفعه. عنـد دفعه بحنان: لا توقظ النيام يا غلام. تبتعد ضفتاه بكسل. تنفتحان بهدوء. تنفرجان وتنغلقان كفخدين يضمان، بحرص شديد، لذتهما الفائقة. يقترب الثوب الأصفر حذرا. يكاد يفـوت، ولا يفـوت. عبر الجسد العريض الذي صـار الآن، طـويلا، أري تكـوين الساحة، وخلاياها. أرى ظلال الأشجار الألفية وأغصانها. أحس بنعومة الفيء وغنيمته. لكأني ولدت في هذا المكان. وأكاد أزت

نفسي عليه. لكن سرعة العطب المتجسدة فيه تهدئني. تجعلني أنظر النحو بعين أليفة: لا غاضبة، ولا هاجمة. ويرقق الجسد الأصفر المتهيب، نفسه: ادخلي. ادخلي أرجوك ويدخل. ولا يدخل. كانت الضفة الأخرى تحجز الذوبان. وفورا، تفرجها بيديها. تفرج اللصاقات اللازجة المتمددة على " الخابور" وأحس بنعومة الطين الثاقب. وبلا تردد، أدخل الجسد الذي بدأ يندخل. كانت ضفتا الباب تفترقان وتلتقيان كجفني نائم يفيق ولا يفيق. لم يبق من الجسد سوى الثوب. الثوب الذي غطى بشعاعه المكان. كان الغمام ينجلي. وأخيرا، يفوز الضوء المنبعث من القمر البعيد بالوصول. بالوصول إلى حافة النافذة المعلقة في سماء باريس. النافذة التي فقدت، إلى الأبد نفوذها. نافذة السكون الهابط من أعالي الروح. كنت أفكر: يجب أخذ كل شيء مأخذ الجد، وإلا هلكنا. لا، ليس ثمة شيء نافل في الحياة. حتى الذكريات لها مجرياتها وتصورها الخاص للتاريخ. وكنت أريد أن أرى الأمور في أكثر حالاتها تطرفا وسوءا. كنت لا أزال أتجول بين الرغبة الممنوعة والفعل غير المرغوب فيه. كانت وحدات الرغبة الصغرى هي المسيطرة على الانتظار. كنت أحس أن العالم متواطئ ضدي.

لست أدري كيف نبعث في اللحظة المشئومة، اللحظة التي كدت أقارب فيها الانهيار. صرت لا أسمع إلا صوتها، المخيف، يردد في صدغي:

-العالم؟ ألا تزال تتشدق به؟ ألم تقتنع، بعد، أن العـالم، لا هـو هناك، ولا هو هنا، وإنما هو أنت؟

لا، لم أكن أسمع شيئا. كانت الرغبة في التكور فوق جسد ممدود تملأ نفسي. عاشت الرغبة المكتومة سنوات، وعندما تحققت لـم تكن هي " الرغبة " المشتهاة، نفسها. لماذا تتغير الرغبة؟ وكيف يتغير الجسد الذي يبذُلُها؟ رغبة أخرى تسدل عليها الستار؟ تذليل الرغبة؟ تظليلها؟ تضليلها؟

-سيد المضللين يضلل؟ هجمت من لصق الحائط الشمالي، علي هجمت تحكي. تحكي من أجلي، كما كانت تقول. لكن هذه (المن أجلي) صارت تخيفني. صرت أعرف إلى أين تـؤدي طـرق الكلام ولدغاته كانت تملؤني رغبة عنيفة لإسكانها(ولم أفعـل). كنت أعرف أن الكلام كماء بحر الصيف: مالح وساخن. نسـبح

فيه مأخوذين، ولا نشربه. ماذا يلجم اللسان في هذه الأحـوال؟ لماذا نكتف أيدينا-ألسنتنا حتى الغرق؟

كان القمر يختفي من جديد. قمر باريس اللعين. القمـر البـارد والبعيد. القمر الغيمي الذي يرقى سماء لا لون لها، ولا أبعـاد. سماء بلا لون لا يمكن لها أن تحمل قمرا جميلا. كانت تحكـي. (ولم أكن أسمع.) كنت أردد بصوت عال: لا تسـمح لأحـد أن يقتحم عالمك الحميم بسهولة، ولا أن يقول لك ما تحب عمـن لا تحب. فسيأتي يوم يقول لك فيه ما لا تحب عمن تحب.

(١٤)

رنين. رنين معدني صديء وقاس. رنين ضـحكتها المتـوترة المتقطعة. الرنين المزعوم الذي أعرفه جيدا، حـل فجـأة فـي المكان. رنين مشئوم، بقدر ما هو ليس في محله. من أين يجيئها ذلك الضحك الخبيث؟ ومن أين ينطلق صوتها؟وما هو مصدره: داخلي، خارجي، مختلط، هو الآخر؟ صوت مزيج من الشـبق واللوعة والحسر. تضحك بلا سبب. ولا تضحك لكل الأسـباب. شيء غريب (إشارة تعجب) تريد أن أجيبها. وعن أي شيء عن علاقة في طور الموت؟ علاقة محكومة بعلاقات عديـدة هـي الأخرى بدأت تموت وتريدني أن أجيب؟ لا، يكفـي لـم يعـد يهمني أن ينزغ وجه العراف في وجهي. ولا أن يلبسني لسـان الشراح. تبجح "الذي يعرف كل شيء " القديم حل محله تهيـب، هذا المساء، تهيب واثق لا يمازجه شك. وأخرج متجهـا إلـى المرآة. " عشرة أعوام طويلة مرت. عشرة أعوام طويلة" كنـت أردد، وأنا أطالع وجهي الجديد: وجه من، هذا الوجه العـبء؟ أنظره ولا أعرفه. وجه من ركام. ركام مـن الخيبـة والهيبـة والارتداد. أبحث في الوجه الساقط في المرآة عن وجـه قـديم،

وجه لم يكن يعرف غير لوعة واحدة هي لوعة الجـوع. هـذه اللوعات المتراكم بضعها فوق بعض من أين تسللت إلـى هـذا الوجه؟ يريدني أن أجيب:"اسمك"؟ ولم أكن أعرف لي اسما بعد. ولا يصدق. ومن جديد يشدني إلـى الحبـل المشـدود: " اسـم أبيك،إذن". ولا أجيب. وفي لساني الداخل يتراكم الكلام. اسـمي واسم أبي واسم المكان الذي منه خرجت. ومن جديد يهزني كما تهزني العاصفة: "سأذكر اسمك واسم أبيك واسم المكـان الـذي خرجت منه، يكفي أن تهز رأسك بالإيجاب". ولا أجيب. فجـأة أصير جبلا. جبلا تتحكك به الرياح ولا تزعجه. ولم يكف عـن السؤال. ولم أكف عن عدم الإيجاب. وتكاد تسألني مـن جديـد ولا تفعل. أدركت فجأة انغلاق الدائرة المحكم. ومن الدائرة يولد المستحيل. لا، لم يعد بفخفخة ألفاظها. ولا معطيات جديدة أسابق السامع إلى سماعها. كنت قد وصلت إلى الحافة، حافة الـتماص من... ولم أرد أن أكمل الجملة. قالت وهي ترتج غاضبة:

- كالعادة ليس عندك ما تقوله سوى الصمت.

أردت أن أقول لها لم يبق عندي سوى الاستياء، الاستياء منـي ومنك ومن كل شيء. إلا أنها ابتعدت هازئة، من جديد. وفجأة، تلألأ النهر. تلألأ تحت تأثير أضواء السفن الغبية ذات الأنـوار الكشافة، التي لا تني تدور في محيطهـا وتـدور. وانعكسـت

أضواؤها الباهرة على الجدران. وفي البعيد بدت واجهات الأبنية فضية لامعة (ولا أحد يقف في الضوء) هذه المرة، أيضا، كنت وحيدا. لم يكن في مواجهتي سوى الزجاج البارد: زجاج النافذة العالية الذي سأكسره بعد قليل. كنت أحسب أن نوعا من سـوء التفاهم يفصل بيننا. كانت تلقي بأحسن ما عندها إلي، وكنت ألقي بأسوأ ما عندي. كنت ألتهب، وكانت صامتة. لماذا يجرنا هـذا الزمن الصغير البائس إلى ذلك الزمن الكبير؟ وهزتني ضحكتها الغاشمة:

-"زمن التلاؤم إلى حد الموت": موتي أنا، أضافت بامتعاض.

ولم أتردد. كنت أتابع الطريق بانشراح."احذر المنعطفات" كانت تتعاقب باستمرار. وأحيانا "صل متأخرا خيرا من ألا تصل أبدا." كانت المسافة التي تلي " دمشق" غريبا تأخذ الأبصار. الشـمس تحاول الغروب ولا تصل. أشعتها الصفر التـي كانـت تشـعل شجر" الغوطة" لم تعد ترضي أن تفك النار عنه. ونسيم الغروب الذائب بتأثيرها ظل مخلصا لامتزاجه بها. " الشمس لـن تـولي الأدبار" كنت أردد، مستاء، في أعماقي. كنت أنتظر الظلمة لأبدأ

الاقتراب. لِم كنت أنتظرها؟ كان بإمكـاني أن أتخلـل الجسـد الصغير المرمي على الحافة لصقي، فورا.

-كنت أعرف أنك جبان. قالت دون أن تحرك شفاهها المتورمة من الغيظ.

وألاحق الأشعة الغاربة، كالمجنون. أسوقها بعصاي سوقا. أريد أن ألمها في الحال. أضعها في العين الحاميـة لتصـبح الـدنيا ظلاما. كان تفتحي الغريزي ينتعش في الظلام. ولم أكن أدرك، بعد، متعة النظر وسلطة إغوائه. لم أكن غِـرا، فحسـب، بـل مغررا بي، أيضا. وأسمع، لصقي، القهقهة المكتومـة اللافتـة للبصر، ولا أقترب. كان للنور عيون. وكنت أحسب أن الضوء يسمع. كنت أخاف أن يشاركني النور متعتي. كانت يدي تتفلـت للاقتراب منها. لدخول حوضها الملاصق لي. وكنت أرى، فـي البعيد، فلول أشعة الشمس التي كنت أطردها توالي الانـدحار. كانت سجف الظلام ترتفع حولنا. وكنت أردد، بأجزائي كلهـا" والليل إذا عسعس". وأحس الضحيكات المكتومة تتحول إلى نفس عميق. نفس يبدأ ولا ينتهي. وأكاد أسند الجسد الصغير الذي بدأ يغيب. كان الظلام يلتف حولنا. والطريق الأعمى ذو الحـواف

المهدمة يرقى الجبل عاليا ليلتف حول الشام. والتفت اليد علـى اليد. واقتربت القدم من القدم. وحس الفخـد الفخـد. وتسـاوت السرتان. كان الفضاء بين الجسدين ينكمش واكتشفت أن جسدي كله، أبصار وأنامل. كانت عيناي مغمضتان وكنـت أرى كـل شيء في تكوينها كنت أراه منورا وكأن الأشعة التي اختفت منذ قليل ولجته. وفجأة، ساد الصمت، صمت ثقيل كالرصاص. كنت أعرف ذلك الصمت اللعين الذي يسبق عـادة غثيانهـا الـذي سيندفع، هائجا، كالسيل.

-لا تلمسني

أخيرا تكلمت؟ حسبتك مت.

ضحكة صغيرة جديدة، وانتعاش خفي يملأ الكيان. لمـاذا أدور منذ ساعات حول الشام؟ رأيته من أسفل، ورأيته مـن أعلـى، وأريد أن أراه الآن من الأجناب. في قمة الجبل المهيب توقفنـا. ولم أعاود النظر إليها. كانت الرائحة الطازجة تمـلأ المكـان. رائحة القيء الممزوج برائحة اللبن المخاط.

كانت أنوار دمشق تصعد الجبل المعتم لتصـل إلينـا. وكانـت أعضاؤنا قد ارتدت كل إلى مكانه. لماذا لا نتبـادل الأعضـاء

والأنحاء؟ كدت أتساءل. لكن جلال المنظـر وبحـة الصـوت القريب أخذاني. كنت قد بدأت أحس برغبتي المفاجئـة فـي أن أصير قطعة من الجبل الذي كنت أركبه.

-لماذا؟ سألتني باستغراب.

-لأظل أرى الشام من عل.

-امش.امرتني، فجأة، وكأن شيئا ما تغير.

-لماذا أنت خائفة إلى هذا الحد؟

كان" قاسيون" يحمينا من الظهر، وفي البعيد يمتد الظلام حتـى ربى" حوران". وكأنني قد تركت الجبهة للتو، أحسست من جديد برغبة عنيفة لأخذها بين يدي وقدمي. كانت الشمس اللاذعة قد أمدتني بعنفوان خفي، وطاقة للاشتباك لا تنضب. كنت مـا إن أقوم حتى أقعد. ويكفيني القليل من الوقت للانتصاب" من جديد". لكن الرعب الكاذب الذي استولى عليها، فجأة، ضـللني، هـذه المرة. وبدأنا الهبوط.

هبوط صامت. كان الطريق الجبلي الضيق يتلوى منحدرا حتـى الأرض.

-بماذا تفكرين؟

-لا أفكر بشيء.
-إلى هنا، تماما، كان علي أن أعود.

-هذه هي المرة الألف التي عدت فيها إلى هذه النقطة، ولم يجد ذلك نفعا.وفجأة أزت الصفارة. صفارة الإنذار اللعينة، صـفارة الموت. وانطلقنا، مثل العصافير المرعوبـة راكضـين. أنـت تشدينني. وأنا أشدك. ومعا نشد بعضنا بعضا. كنـا فـي الحـد الأدنى من الحياة.
-لكن هذا لن يغير في الأمر شيئًا. قلتِ مستهزئة بي.

لم أكن أريد إيذاءها. كنت أريد أن أهدم ما بنيته خلال عشـرين عاما. ولم تكن تدرك ذلك بعد. كيف أشرح لها الأمر؟ هي هنـا الآن، وأنا هناك نوع من سوء التفاهم التاريخي يفصـل بيننـا. سوء تفاهم لا يزيله إلا تفاهم جذري مع الذات. كـدت أصـحح العبارة، سريعا:"إلا فهم نقدي لها". لكنها أخذتني بتدخلها الذي لم أكن أتوقعه:

--التطور الإنساني يبدأ، دائما، من بداية ويتجه، دومـا، إلـي نهاية إلا تطورك أنت، فإنه يعود إلى الخلف. إلى نقـاط بدايتـه

المشئومة، وما ذنبي إن كنت ولدت محروما من كل شيء، حتى من سروال صغير تلبسه. ألا تريد أن تفهم أن سوء التفاهم الذي تحكي باستمرار عنه لن يزول إلا عندما تـتعلم "كيـف تـتكلم بوضوح". وسأصر على ألا أفهم طالمـا ظللـت فـي منـاطق غموضك المصطنع.

ولم تدعني أبصق الجملة التي ملأت فمي "عندما ألتقي بمن هـو بحاجة لأن يفهم، فسيفهم، فورا" لأنها أضافت بحدة آسرة:
-في غياب الأفضل، عليك ألا تبحث إلا عن الأفضل. ألم تقنـع بعد؟

لم يكن لدي هذه المرة أيضا، ما أقوله. كنت أعرف أنني ضحية (القلل الثلاث): قلة الصبر، وقلة الحيلة، وقلة المال.

صمت. (كنت أفكر، وأقرر):"علينا أن نعـرف كيـف ننهـزم. الهزيمة، هي الأخرى، فن أساسي في الحياة". كان نـوع مـن الخوف السائل يجري في عروقي ولم يخرج صـوتي. صـرت أحس أنني أقرب إلى نفسي عندما أتكلم صامتا. وفجـأة بـدأت تصول وتجول. لكأنها أصبحت مستعدة لعراك كانت تتوقعه منذ

أمد طويل. كنت مازلت ألتصق بوجه الزجاج البارد. أرى، من عل، إلى ظلمة القاع الغريبة.فمنذ أن اختفـت أضـواء السـفن الجوالة غدا النهر أسحم ومدفونا. لم يعد لوجهه رونق، ولم يكن له من قبل. وكأن محاورا سريا يسكن داخلهـا قالـت بهـدوء ووضوح:

- تريد أن تعيدني إلى هناك، ولا أريد. قالت ذلك قبل أن تترك مثواها الذي احتلته منذ أول المساء. وأضافت بلا اكتراث:

-العود القسرية جوفاء وفارغة. لها طعم الفشل المر والخديعـة المريعة. لا يكبر الإنسان جسدا فحسب، بـل روحـا، أيضـا. وعندما نكبر نخلّف أنقاضنا على الطريق. ننهزم أمام تطورنـا الذي يحرق كل شيء بما فيه كياناتنا. أين، تراك، لازلت تجـد نفاياتك التي تتمسك بها بإصرار، أين؟ وفجأة، ركبها الضـحك. ضحك هستيري شامل، وهي تتطلع في وجهي المرعوب. مـاذا كانت تقرأ في وجهي الصامت آنذاك؟ هل كانت تحيط بما كانت تسول لي به نفسي؟ لا. وربما بلى. الآن تبدو الأشـياء، كلهـا معلومة وكأننا فرغنا من فعلها للتو. كل ما فعلته، ومـا أنـوي

فعله، فيما بعد، غدا واضحا وصريحا. غدا، ببساطة، يقينًا. لـم يعد حلما.

- لا. لم تعد الخديعة ممكنة. بـالأحرى. أضـافت مصـححة. واستدارت. صار وجهها الآن، لصق الجدار الوسخ المشئوم. في لونه البني القاتم، لم تعد ترى انعكاسات الأضواء الخافتة الآتيـة من بعيد. كانت فرصة نادرة أختلي فيها بنفسـي، إذن. وبـدأت سيري الساكن: في محاذاة النافذة العالية أروح وأجـيء دون أن أبرح المكان. مثل بندول الساعة المتعب، كنت أترنح وأنا أتقدم خطوتين، وأرجع خطوتين، هما، تماما، عرض النافذة المعلقـة في الجو. كان رأسي، كله مملوء بفكرة واحدة: فكرة أن ذلـك، كله (ما مضي وما سيأتي) أصبح بلا معنى. وهي، أيضا، وبلا ريب، كانت تدركه بدقة متناهية. إضافة إلى أنها تعـرف آليتـه وخصائصه ومزاياه. لم يعد ذلك يعني شيئا؟ بلى. صـار ذلـك يعني، الآن، كل شيء. لا خلاص، إذن؟

باريس، الشام. حرب واحدة؟ حرب تدور رحاها في ذاتي العتيقة التي لم تتجدد. باريس- الشام عالم واحـد إذن؟ عـالم منتهـك وكذاب. أسطورة الخـلاص ليسـت فـي الحقيقـة إلا ورطـة ومحاولات الاستقلال الزائف ليست إلا اندماجا لا انفكاك منـه.

قيم واحدة تملأ أحشاء هذا العالم الهالك. أريد أن أتوقف قلـيلا. أن أعيد النظر بكل شيء. "أن أصل متأخرا خيرا من ألا أصـل أبدا". أن أتقدم بوعي، قليلا، خير من أن أتقدم كثيرا بلا وعي.

- أصبحت، فعلا، تثير اشمئزازي. قالت محتدة، وهي تضـيف بسرعة نارية:

- ألا ترى أن ذلك- الآن- غدا من نافل القول؟ ومن البلاهـة الاستماع إليك وأنت تهذي. منذ متى وأنا أقول لـك إن الحيـاة ليست لغوا. ومما يثير ضحكي أنك تحاول أن تحذر المنعطفات (الوهمية)، ولكنك، للأسف الشديد، مثل من يسرع على طريـق لا يعرف أنها مسدود.

(١٥)

كنت أحسب أنني صرت أقوى وأوضح منذ أن أعادتني الشرطة العسكرية إلى الوراء (قلت مذكرا إياها ببعض تاريخنا، وأضعت مقلدا صوت الآمر):

- ارجع. ارجع. يا كلب.

كنا في طريقنا إلى " الزبداني" وكانت الحرب في أولها. ولم يكن حر " دمشق" يطاق. وكنت تلتصقين بي. كان نور الشمس، فـي حزيران، وهاجا. ولم نكن قد عرفنا شيئًا عنا، بعد. وفجأة قالت:

-كنت متوترا ونحيفا وكنت أحسبك قارة لا يحاط بهـا. كنـت أخاف مجرد التفكير في أنني قد أحمل عبء اكتشافك ذات يوم. كنت أقول لنفسي من أين أمسك به. وكان أنفك الطويل أول مـا يخطر لي. كنت أراني أقودك كالبعير من الأنف. أمشي وأنـت ورائي والنساء يتوقفون عجابى قلت للشرطة أريد أن...

- أرجع يا كلب. قالت الشرطة بلا احترام. لم تسـأل الشـرطة عن السبب، ولا عن العاقبة. أتخشى السلطة الحرب إلـى هـذا

الحد؟ فكرت، وأنا أتوقف قريبا من المكان. صرت أتطلع إليـك بدلا من التطلع إلى السماء وجاء صوت الشرطة من بعيد:
-الطيارات. الطيارات.

واختفى كل شيء. أقفز العالم فجأة. وكان ذلك، وحـده كفـيلا بتحقيق مشروعنا: نور. وحر. ومكان مغلق. وجسدان لم يلتقيا، أبدا من قبل. وتحول المكان المذعور إلى جنة. كنت ترتعـدين. ولم أكن أعرف أخوفًا كان رعدك أم لذة. شيء واحد كان يشغل نفسي: أن نموت متداخلين الآن، وأنا أقف على الأرضية التـي أقف عليها منذ عشر سنين، صرت أعرف: " أن المكـان يفقـد ذاكرته عندما يفقد مشروعه". الأمكنة التي بـلا مشـاريع هـي مأوى النفوس الخائبة. وهذا هو حالي الآن، وحال هـذا البيـت المعلق في سماء باريس التي لا شمس فيهـا ولا نعـم، والتـي تشدني، مع ذلك، إلى البقاء مستكينا، وقد كنـت أتفلـت مثـل المسعور. أمكنة بلا مشاريع، ومشاريع بلا ذكريات، من كـان يصدق أنني سأقبل بذلك يوما ما؟ الآن، أعرف أنني مـن ذلـك النوع البائد، أو بالأحرى " النوع الزائد": نوع "من يظل يركض ولا يصل". ومع أنني كنت، منذ زمـن طويـل، أردد لنفسـي، معلما:"لا تملأ قلبك بالضغينة. املأه بالحـب"، إلا أن الضـغائن

الصغيرة، "المجهرية" تراكمت يوما بعد يوم حتى غدا احتمالهـا مستحيلا ضغائن لا تصيبك أنت فحسب وإنما تمس عالما كاملا. كيف أشرح لك الأمر. كيف أخرجك من تحـت هـذا الجـدار الساكن مثل جدران القبور؟ تكلمي. تكلمي. صرت أصرخ. ولم تتحرك. كانت لا تزال تثوي لصق الجدار البني الوسخ. لكأنهـا لم تسمعني. حتى صوتي غدا بلا معنى؟ صرت أتساءل بمرارة. لم تؤكد لي فراغ صوتي من الحس، ولم تنف ذلك أيضا. كانت تنتظرني بلا اهتمام، لكأني لم أكن إلا زولا، زولا مجردا مـن الحياة. وأحسست، فجأة برغبة عنيفة لسماع أحد يغني ولم يكـن ثمة إلا الصمت صمت جسد مرت (حتى) " لحظة عقوبت" جسد امرأة قطعت الأدوار، كلها. كدت أبكي. لم أكن أريد أن أكـون لئيما. لا. "فالإنسان الثوري يناضل ضد اللؤم والاستفزاز". هكذا تكلم "ماركس" ومع ذلك، كنت أنظرها بلؤم عاصف، وأفكر:"أحد أشكال قتل الوردة إهمالها، تركها معلقة علـى الغصـن حتـى تموت".

وظلت جاثمة في مكانها، وكأنها لا تسمع ما أقول. عجبا، وأنـا الذي أخاطبها منذ أول الليل. أيقتل المكان المغلق الكلام؟ كنـت أعرف أن للحبس أثرا فاتكا على النفس، لكنها طليقة. طليقة في

هذه الغرفة الواسعة، ٤م×٤م ماذا تريد أكثر من ذلك في باريس؟ وهأنذا أروح فيها وأجيء، نصف الهواء لي، ونصف لها، مـاذا تريد أكثر من ذلك في باريس؟ أمشي في مساحتي، وتقعد فـي مساحتها، ماذا تريد أكثر من ذلك مني؟ أشـرح، وأشـرح، ولا تتحرك. كنت أعرف أن الأمر أعقد مـن ذلـك بكثيـر، إلا أن الإنسان الثوري مسئول عن خضوعه أكثر مما هو مسئول عن تمرده" هكذا تكلم ماركس. كان علي إذن أن أجعلها تقوم، أو أن أقعدها إلى الأبد. المنزلة بين المنزلتين ما عادت قابلة للاحتمال. والتفت إليها وصرت أصرخ. ولم تتحرك. وفجأة، انبثـق نـور الشام في وجهي وأنا أستدير، مبتعدا، عنها. نور الجسد الصغير الطازج. أمد يدي إليه وأغرف من رحيقه. لم أكن أعرف قبـل معنى الجسد - الجنة حتى احتويته. كنت أريد أن أعـرف، أن أعرف فعلا، كيف يمكن للكائن أن يخسر نبوغ جسـده دون أن يربح شيئا؟ (ألا يكمن هنا معنى الموت؟) كنت وحيدا حتى فـي خصامي. عدت ألتصق، من جديد، بزجاج النافذة البارد. أنتظر مرور سفن السواح التافهين. السفن الخاملـة للضـوء. السـفن السخيفة التي تنطلق دائما من النقطة نفسها لتعود دائرة إليها، بلا انقطاع. ما معنى الإنهار إن لم يأخذنا إلى نقاط جديد؟ ولم يقوم

الإنسان بفعل يعرف أنه بلا جدوى؟ صرت أتساءل، وأتسـاءل وأنا أتابع السفن التي تدور وتدور.

تناضل المرأة لتكون حبيبة، وعندما تكـون، تناضـل لتصـير زوجا، وعندما تصير، تناضل لتكون أما، وعندما تكون، تناضل لتغدو عشيقة، وعندما تغدو، تناضل لتصبح حبيبة، من جديـد. ويكون الأوان قد فات. وعندها تدرك أن الأدوار، رغم تعددها، لم تكن، في الحقيقة. إلا دورا واحدا: دور الكائن الذي فرغ من محتواه. كنت أفكر بهذا وأنا أتابع بحثي عنها. وكنت قررت أن أعطي اسما سريا لذلك الفعل المنهك: ومع أن ذلك غـدا يثيـر الابتسام الساخر (إن لم نقل الضحك المجهـور) إلا أنـه يفـي بالحاجة، مبدئيا. فليس الاستعمال المغرض للكلمـات بغريـب عني. ما جدوى أن أبحث عن قول لم يقل، بعد، إن كنت أفعـل ما فعل من قبل؟ وقبل أن أنتقل إلى الفكرة التالية، جلـس عـن يساري زوج. رجل وامرأة. أحطتهما، رأسا وبنظـرة سـريعة: لا،هو ولا، هي. لا شيء. عدت إلى الأنوار اللامعة في وجـه المقهى. أنوار بللها مطر باريس الثقيل. حبات المطر مكـورة. أحسها تسقط بفعل "الثقالة" لا حبا بالأرض. وكيف يحب المطـر ملامسة الأسفلت البارد؟ المطر يسـقط مـن السـماء. ليلتقـي

بالأرض: بترابها، بحشيلاتها، بأشواكها، بما لا يعرفه المطر في أعالي الكون. أعدت النظر إليهما، واستعدته منهما، فورا. فعلا، لا شيء: وجه رجل يصلح لامرأة، ووجه امراة هو في الحقيقة وجه رجل. كدت أتخلى هذه المرة نهائيا، عن البحث عنها.

- "لِم أبحث عن أحد لن ألقاه؟" قلت لنفسي. وكأنها سمعتني قالت بلا تردد:

- وما معنى بحث يؤدي إلى لقيا، يا أحمق؟

كدت أستدير باحثا عن صوتها الذي جاء، لكن تلـك " القولـة" جعلتني ألزم السكون، وهو ما أراحني. وفعـلا، أحسسـت أن رأسي غدا صافيا وبليدا. لكأن أحـدا غسـل دمـاغي، مـرات ومرات. غسله من توتراتي العنيفة الملازمة لي منذ أيام. توتر، وتعب، ويأس، وحزن، أربعة أسباب تكفي لكي ينهار الإنسـان. ومع ذلك، كنت أقاوم، وأقاوم. لكن " التسمم" هو الـذي قضـى نهائيا على تلك المقاومة الفارغة. مقاومة لا تخترق الحصار ما معناها؟ مفهوم المقاومة "مفهوم تطوري"، بمعنى أننا نقاوم لكـي نصبح أفضل مما نحن عليه،لا، لكي نحافظ على الوضع البائس الذي نحن فيه. ألم يتكلم هكذا "ماركس"؟ وكان من نتيجة ذلك أن رأسي غدا" أبيض". وجسدي استعاد بعض الراحـة. وصـرت أرى العالم بعيون مغسولة.

أكاد أكون سعيدا، حقا. هل يعني ذلك شيئًا؟ فـي خضـم ذلـك التسمم العرضي، (بماذا تسممت، وممن؟) كنت أردد فـي شـبه غيبوبة: "أم مكر الصديق" إن حدث وقضيت هنا، وصيتي لك أن تأخذيهم إلى هناك.

كنت أحس أن الزمن يمر بسرعة. وكنت أتساءل: من يسـتطيع أن يوقف هذا المرور المستمر؟ وقررت أن يكون هذا الصـباح لي. لي وحدي لذلك قعدت طارفا، أتملى. وبدأت أفكر في أشياء كثيرة فعلت. كنت أتصور أنها فعلت من غير قصد. الآن أعرف أن الأمر لم يكن كذلك: فمن يفعل، يفعل، دائما، قصدا، لمـاذا؟ لأن اللامقصود. ببساطة، غير موجود.

هذا الصباح، أيضا، جاء المغنيان: رجل وامرأة. بـدءا الغنـاء بهدوء (غناء ينتقل من طارف المقهى إلـى طارفـه). وجهـان أصفران. جسدان ناحلان. وثياب رمادية. صـوتاهما نائمـان. ولا ترى حريكات شفاههما عند الغناء. من أين كانـت تخـرج الأصوات؟ وإلى أين كانت تروح؟ لا، لم يكن ثمة من يسـمعها غيري. نظرت إليهما بإمعان: الرجل يحمل عودا وبـه يـدور.

يدور حول المرأة التي ولت الأدبار. برد الصباح، هذا اليـوم. جعلهما يرتجفان. المرأة ترقص مدركة معنى البرد. وهو يهتـز بغباء (لم يكن أحد يسمع ما يهمسان به، حتى ولا أنا) المـرأة كانت تراني ولم يكن هو يراها. وهممت أن أقوم إليهما (ولـم أفعل). كنت أرى أن ذلك غير عادل. وكل ما هو غيـر عـادل يمردني. لكن بين الشعور بفقدان العدل وبين التمرد خصاصـة: خصاصة شديدة الرقة، إلا أنها أساس الفعل الثوري، كله، كمـا قال ماركس. ولأنني لم أكن على مستوى توتراتي، بعـد (هـل سأكون لاحقا؟) بقيت جالسا والامتعاض يفوح مني، مثل رائحة كريهة لا يمكن إخفاءها، ولم أعد أرى حتى المـرأة الصـغيرة التي كانت لا تزال تتملاني. كنت أريد أن أفهـم معنـي ذلـك الانفصام الذي أخذ يتسلل، خلسة، إلي. علاقاتي القديمة تفسخت، كلها. لم أنشئ علاقات جديدة. نوع من الضمور الخفـي كـان يتأسس في كياني. فترة الفوران الشكلية أعقبتها فتـرة انكمـاش عميق. ولماذا لم أصفع المغني المجهول؟ ولم لا أزيد الصـدع بيني وبين الناس؟ وكما حدث عندما أوقفتنا الشرطة العسـكرية، وأجبرتنا على العودة إلى الوراء (يومها، أحسست أنني أطير من فوق الشرطة، وأعبر الحدود التي لم أنو حتـى تلـك اللحظـة،

لحظة المنع، انتهاكها. وقد انتهكتها. فعـلا، فـي أول فرصـة سنحت لي)

حدث الآن: أحسست أنني أخضع لإرجاع قسري إلـى وضـع كلفني الخروج منه وعليه جهدا كبيرا. في الحالتين، حدث تحول جذري في كياني. تحول حل فجأة فيه. لكم صارت تضـحكني الآن" مقولة الإرهاب الذي يعيد إلى الصواب". تضـحكني بـلا خشية أو شماتة. كأن التراكم الزمني المتكـدس علـى أجسـاد عشرين عاما (هي الفاصل بين يوم الشـرطة العسـكرية، ذاك وبين أمسية الموت، هذه) لم يكن قد وجد أبدا، وجـدتني أغنـي الأغنية الصغيرة الهشة، تلك التي انبثقت في نفسي يوم أجبـرت على أن أعود على أعقابي خاسئا: " أحب الطـرق المسـدودة، والأوضاع التي ليس لها حلول وهل تستحق حياة لا عوائـق أن تعاش؟" وقبل أن تسمع صوتي، هجمت من لصق الجدار علـي. هجمت بيدها المقبض الأسود والسكين. ماذا كانت تريد أن تفعل بي؟ وقبل أن يرتد طرفي إليها، سمعتها تضرب أنحاءها ضربا:

- أعرف أنك جبان.أنا التي...

ورأيتني أنخطف نحوها كالبرق. لم تتم الكلام الذي بدأته. انقلبت علي. وبيدي، كلتيهما، أخذتها، توا. كان السيلان اللـزج يـربط

جسدينا. سيلان محا، تدريجيا، ذلك التراكم الفاسد، كله. محـاه كما تمحى الأمواج الهائجة، مساء، آثار يوم كامل على الرمـل. وصرت أتساءل: ما معنى أن نلتهب كل لحظة إذن؟ مـن هـو عدونا الحقيقي؟ وكأنها لم تترك خناقي أبدا، قالت لائمـة، مـن جديد:

-شيء ما ينقصك عندما تتكلم، وعندما تفعـل. عنـدما تـتكلم ينقصك التماسك، وعندما تفعل ينقصك النضج. لمـاذا؟ لأنـك لازالت تحسب الكلام نظما من الكلمـات، والكلمـات"أوعيـة" مملوءة. أو تدرك، الآن، مدى الخيبة عند من يظل يستمع إلـى إنسان فارغ مثلك؟

-وعندما "أفعل"؟ مستسلما، لأول مرة، منذ أول الليل. وقبـل أن تسمع سؤالي الذي كانت قد أجابت عليـه وفـي أول كلامهـا، أضافت بهدوء:

-وما يسخف فعلك هو" العجز": عجز الانتقال من " حالة التكلم" إلى "حالة التعلم". لماذا؟ لأنك لا زلت تحسب أن العالم لا يحتاج إلى ما تقول، وما تقوله لا يحتاج إلى برهان، وليس الأمر كذلك

أبدا: العالم ليس بحاجة إلا لما تقوله، وما تقوله دائما، بحاجة إلى برهان وبرهانه ليس شيئا آخر سوى فعلك، وفعلك هو أنت: أنت ساكتا، وأنت صامتا. هل تستطيع أن تدرك، الآن معنى أن يخطئ الإنسان في كل شيء؟

-لا. قلت مشمئزا وأنا أقترب، هائجا. من الشباك.

كان النهر قد أظلم ولم تعد سفن الضوء ترى. كانت قد صارت خلف غشاء الليل، تقطع هائمة نصف النهر الشرقي، لتعود بعد قليل، إلى نصفه الغربي. أريد أن أراها الآن. أن أرى بريق ضوء، حتى ولو كان ضوء، مزيفًا وسريع الزوال. وفي النهاية" قد يكون الزائل، وحده، أساس الديمومة". وإلا ما معنى التحول؟ التحول الذي يصيبنا ونحن في أحسن الأحوال، كما يصيبنا ونحن في أسوئها. ذلك " الشيء" الذي يدفع بنا، دون توقف، نحو المجهول الذي سيصير معلوما، والذي سيفقد، ذات يوم غموضه الخلاق. سيفقده بشكل مأساوي، وإلى الأبد. وكدت أكتشف أن " الفقد" ، هو، وحده الذي لا يتغير. إلا أن الابتسامة الهازئة، خلفي، جعلتني أرتجف، خوفًا.

-لم تهزئين؟ قلت مرتبكًا. ودون أن تخفف من غلوائها، قالت:

-لم أكن أهزأ، كنت أضحك.
-وما الذي يضحك الآن؟

وهذه المرة ضحكت فعلا. كان حس ضحكاتها ينفذ عبر كيـاني كالمخارز. حاولت أن أتفاداه، ولكن كيـف؟ المسـاحة مغلقـة. والفضاء عال والليل يتقدم في الليل. وأنا معلق من قـدمي فـي الطابق السابع والعشرين. والجو غريب عجبا، لم لا يحس الكائن بالاطمئنان إلا في مهاده؟ أكاد أتشنج. أكاد أفقد القدرة على عقلنة إحساساتي المنفلتة: من يعطي للأشواق لهـب العاطفـة ويقـين العقل؟ تركت الشام باختياري وهأنذا أعود إليه بـالرغم منـي. أريد أن أقول" بالرغم مني." لكنها لا تفهم هذا، لا لأنها امـرأة، بل لأن الأنفس "مراكب". كيف أشرح لها الأمر؟ وقبل أن أقول شيئًا جاء صوتها:
- تظل تسأل عن سبب ضحكي وأظل أشرح لك. أنـا أضـحك عبثا وأسكت عبثا وبمعنى آخر: عبثًا أضحك، وعبثًا أتوقف عن الضحك.
الضحك الذي لا يقض إلا مضجعك. ولـيس ذلـك إلا بعـض أعراض جنون عظمتك المستتر.

ودفعة ملأتني الرغبة: رغبة عنيفة في أن أتحول إلى سـلحفاة، وأمشي بين الركنين بعيدا. أتوارى بين جبليها النيئـين. أتمايـل يمينا وشمالا، وأنا أتدحرج إلى البقاع المنثبجة السـود: ببقـاع الجزيرة التي لم تنقطع عنها الأماطير. ولم تفهمـي شـيئا مـن مقامي. كان التوتر قد أخذ منك كل مأخذ. كنت ترتجفين وأنـت تنظرين إلى ساعدي بوهج ولهاث. كان العراء ينكشف أمامنـا. وكان علينا أن أستمر في الحركة آمادا أخرى. كانت تلك هـي المرة الأولى. المرة التي لم ننسها، بعد. لمـاذا يظـل الـزمن مستمرا إن لم ننس ما فعلناه؟

(١٧)

كانت النساء تبكي وكان الرجال صامتين. كان "الجسـد" ممـدا على الطريق. جسد من؟ هل تذكرين؟ لا. لم تكوني قد دخلت في " نفسي"، بعد. كنت وحدي أختل بين أشجار الشوك القصـيرة، في أقاصي الطريق. كانت الخطمية والقصب الأصـفر والـزل العالي تسد منافذ النظر إلي. كنـت أرى إلـى الجسـد الممـدد وأرتجف. جسد " اللص" الذي قتلوه. أتعرفين مـن كـان ذلـك القتيل؟ لا. لم تكوني قد استوليت على أسرار نفسي، بعد. مـاذا سرق اللص الهالك، هل تعرفين؟ لا؟ سأقول لك الآن: سرق؟ لا، لم يسرق. كان جائعا وهائما في البر. وقعد على الطريق. وأكل. أكل بصلا. وحسي ماء من ماء النهر الساقي. وغسـل وجهـه الأصفر من حريق الشمس غسله بماء السواقي الصغيرة الناشفة. كان الوقت مساء، وكان الضوء يختفي خلف التل. تـل القريـة البعيدة. كان يريد أن يتشاهد، وهو يمضغ "بأمان" لقمة البصـل المخلوطة بالشوك. وفجأة دوي الرصـاص. وانهـار. انهـار "عباس" انهار وهو يسد انفجار جسده بيد، وباليد الأخرى يبحث عن خنجره الذي طار. ولم يلمس سوى الدم. دمه الذي خـالط

ماء الأرض الظامئة إلى الماء. كان رجال" المختـار": يقفـون، فوقه، بتبجح، مثل الخنازير: شيلوه. شـيلوه. كـانوا ينـادون. ينادون على من يريد أن يتعرف على (حرامي الحقول)، علـى من يريد أن يعرف الوجه الملوث بالتراب. لا، لم يعرفه أحـد، ولم يتعرف عليه أحد، سواي ومنذ ذاك نفرت. نفرت مـن كـل شيء. الآن، أعرف أنهم لم يتعرفوا عليه، ولم يعرفوه، خوفًا من " المختار". وأعرف أن المختار كان يعرف أنهم يعرفونه. وأنهم "أهله"، ويتجاهل. كنت أفرك وجهي بالشوك، وأبكي، وأتساءل: لماذا لا يعرف المختار من هم؟ لكأنني كنت أبحث عن عقـاب جماعي يشفي "عباس" من موته. ولـم أكـن أدرك، بعـد، أن أغلب"الميتات" لا تشفى. ومثل الكلب الصغير، الذي عضعضته الكلاب، خرجت راكضا حتى شليل أمي. وقصدا صرت أنتحب. انتحب عاليا وأنا أحدق في وجوههم. ولـم يتحـرك المختـار. استدار مبتعدا، متجاهلا إعلاني عن هوية الميت وأهله. ومشـى متبخترا، مثل الحصان الذي هبط، توا، عن ظهر فرس نازيـة. ودون اهتمام دون اهتمام أبدا وكأننا لم نكن نعرف بعضنا مـن قبل، قلت باستغراب ولؤم:

-ومن يمنعك الآن من أن تنفر ومن أن تنفر كما يحلو لك؟

وبقسوة خبطت رأسي على الزجاج. علـى الزجـاج القاسـي. وانفتحت الثغرة فيه. الثغرة التي سأتدلى منها، فيما بعد، لاقحـا نفسي في الفراغ.

ورأيت لمع الوجع يعبر ظلام الليل. يـأتي إليـك، وتطردينـه. وجعي القديم؟ لا، لم أكن أشعر في حضن الشوك بـالوجع. لـم أكن مهيئًا لذلك.آنذاك؟. وظل الزجاج يهتـز، يهتـز للحظـات طويلة، وأنت ترتجفين:

- أريد أن تفهم أنني أريد أن أظل وحدي. لم يعد وجودك يعني لي شيئًا. بلى، صار لا يعني إلا شيئا واحدا: الانهيار.

صمت. نفس طويل عميق. دموع غزيرة. كره. كره يشبه لونه لون الموت. ورجفة. رجفة ملتاعة حلت محل الرجفة الأولـى. تلك الرجفة العذبة رجفة المتعة (التي ولت الأدبار) متعة التفـتح التي لا تزيف، ولا تهيف، هي التي ربطت بيننا عصـر ذلـك اليوم. يوم الحرب اللعينة. يوم ردتنا الشرطة العسكرية إلى، إلى الوراء. كنت أريد أن أحيط بوضعي المتلاشي، وكنت تصيحين:

-في المرة القادمة سألقي بنفسي من الشباك. سألقي بهـا الآن. الآن. وفتحت ذراعي كلتيهما، أحجز بينك وبين الموت. وحسبت أنك ستلقين بجسدك الصغير بين ذراعي. ولم يكن ذلك إلا وهما

جديدا. كنت أحب فعلا، أن ترتمي بين حوائجي وأنقاضـي. أن أحملك كما يحمل الوالد ولده المنهك. كان البرد الصامت يتسلل إلي. ولم أكن أريد أن أقاومه. كنت أريد ولم تكوني تريدين ومع ذلك أمعنت في إصراري. كنت كمن أخطأ، وهـو لا يريـد أن يخطئ، فيخطئ أكثر في المرة القادمـة. وحسـبتني أسـمعك ترددين:

-من يخطئ الهدف يظل يطلق ويظل يطلق على أهداف أخرى، حتى لا يصيب. واشتعلت غضبا:

-صرت مقترنا بالموت، وكنت مقرونًا باللذة! تشوش كبير كان يملأ رأسي وأنا أصرح بذلك. لكأنني كنت أريد أن أسمع صوتي أنا. منذ متى لم أسمع حسا؟ وبتصميم أضفت:

-لا، لم أعد أعرف شيئا. لم أعد أعرف.

-لكنني أعرف، أنا، كل شيء. أعرف شـيئًا واحـدا يلخـص الأشياء، كلها: هو أن تحل عني. أن تذهب، وألا أراك بعد الآن. قلت بلا اكتراث واختلط صوتك النائح بصوتي الخفـي. كنـت أتمتم مستاء:" هذا هو الوعي الجديد الذي اكتسبناه؟ وعي أبعدني عنك، وأبعدك عني، وأبعدنا معا عن الشام؟" وأجلـت الطـرف

حولي" أربعة جدران معلقة في سماء باريس. أربعـة جـدران مغلقة، لكنها تسع العالم، كله، وأنا فيه. أتركها؟ أترك مكاني؟ ولماذا؟ لأنك تريدين ذلك. اتركي المكان أنت.

-أتركه لك؟ صرت ترددين بين البسمة والبكوة. ورأيت الضرر يلمع في عينيك وأنت ترددين: أتركه لك؟ أتركه لك؟ وأدرت لك ظهري. أدرته وأنا أفكر في معادلة" الطرد". اقتربت، من جديـد من زجاج النافذة المكسور، حتى التصقت به، وأنا أقرر:" لا، لن أترك بعد اليوم، مكانا لا أرغب، أنا في تركه". حماقة لن تعاد. وبدأت أضحك في وجه الليل، متمتما: "العمـر هـو التجربـة. والتجربة هي الجذرية التي تعطي للحياة معناها".

(١٨)

مرت أيام لم أعد فيها إلى المقهى. هذا المسـاء عـدت إليـه. جلست، كالعادة في مكاني المناوئ للباب. الزجاج الذي يفصلني عن الشارع نظيف ومبهج. في مواجهتي يجلس رجـل أسـمر بدين. ثيابه شديدة النظافة شعره مرتب بعناية ومقصوص حديثا. بين أصابعه البضة يستقر "سيجار" ضخم وفي إحـدى أصـابعه خاتم من ذهب. أمامه كأس في قعره حثالة من " الكونياك". فـي مواجهة الرجل تجلس امرأة شعرها أسود طويـل. شـعر لـف بعناية ورفع إلى فوق. كاشفا عن بهاء جيدها وفضائه. في أذنيها قرطان صغيران. عنقها مكشوف من جهتي. صـفحته اليمنـي تفصل وجهها المتطاول عن كتفها الممتلئ. ما بقي منهـا كـان خافيا عني، ومع ذلك كنت أراها: ظهر نحيل بلا تعاريج وورك ملأ بتدويره الكرسي الأحمر الذي احتواه- وأشـياء أخـرى لا مجال لذكرها الآن. لكنني لم أكن أرى لا فمها ولا عينيها. تكاد تكون هي. إلا أنني لم أتمثل بعد، مآثرها الأخـرى. كنـت قـد قررت، وأنا في تلك المرحلة، ألا أنساق وراء نزعتي التي كانت تستسهل الأمور. تستسهلها لتعطيني انطباعا زائفا أنني لا أحقق،

في نهاية الأمر، إلا رغباتي. كان علي في هذه المرحلة، تحديدا، أن أخرج من فضاء الكذب على الذات، وأن أتخلص، نهائيا، من نوازع الافتعال: افتعال الحاجة وافتعال الاكتفاء. فالافتعال مهما كان موضوعه وغايته، ما هو، في الحقيقة، إلا علامة لنضـوب المخيلة. كان علي إذن أن أرى وجههـا، بأصـغريه: ثغرهـا وعينيها. وبدأت أفتعل اضطرابا (أحسسته يربكني، حقا) علهـا تستدير إلي. ولم تفعل. وبدأ الأمر يربكني أكثر، فأكثر. لمـاذا أتابع البحث عنها؟ ومن هي تلك المرأة التي ضـاعت؟ ومتـى حدث ذلك؟ (كانت يداي تدخلان جيوبي ومنهـا تخرجـان بـلا استقرار لم أكن أبحث عن شيء إلا أننـي لـم أعـد أحتمـل السكون.) أسئلة أخرى كثيرة، وأكثر حماقـة، كانـت تتـوارد. وكنت أبصقها أقوم. أن أقوم وأقعد. وأقعد وأقوم. وبدأت الريبة تغزو العيون الجوف التي كانت تحيط بي. عيون فوق عيون إلا عيونها، هي. ماذا أفعل الآن؟ حتى الرجل السمين الطيب صار ينظرني، وهو يبتسم.وبحركة من يده اللينة (لم تراقبهـا عيونـه التي تعلقت بي) طير الكأس وما فيها. ورأيت شـظايا البلـور الصافي تتناثر في البعيد، وفي القريب. ولم تتحرك المـرأة ذات الجيد. آه! الآن فهمت. كنت أعتقد، دائما، أنني أستحق أفضـل ممن/ مما عندي.

وكنت أقبل، "مؤقتا" بمن/ بما هو أقل. كنت أتصور أن قواعـد اللعبة لا تستقيم إلا أخذ الأفضل مكانه الطبيعي، يوما مـا، فـي حياتي. ولم أكن أدرك بعد، أن خطـورة المؤقـت، لا خطـره فحسب، هو أن يدوم. وهو بدوامـه يبـدع فضـاءه المسـتقل، ويؤسس تاريخه الخاص. وأن اللعبة" البسيطة":المؤقت/ الـدائم هي، في الحقيقة، أساس لعبة الحياة المعقدة. خطر لي ذلك، قبل أن أبدأ الرقص. قبل أن أقوم من جديد بحركتي "المؤقتـة"،مـن أجل أن تلتفت إلي " امرأة المقهى". وكأن أمرا سريا ملأ رأسي، توقفت، هنيهة، في مكاني، وفجأة، مشيت.

(١٩)

في الشارع الطويل الذي احتواني، بدأت، ربما، أول خطوة في رحيلي. أول خطوة حقيقية في ذلك "الرحيل" الذي بدا قبل عشرين عاما. كيف حدث ذلك؟ كان البشر المحيط بي يتحول إلى حمام طيار. وكنت أبحث، فيه عنها. ولم أجد سوى الأثر اللعين الذي يشهب فوهة البئر. ماذا كنت أرى في ذلك الظلام الحالك؟ لا شيء سوى خفق أجنحة الحمام المبتعد. وفورا، عفته وعدت إليها. كنت أريد أن أقابل بينها وبين ما صارت عليه الآن. أن أجمع الأصل والصورة. أن أخلط الأثر بالمؤثر. لكن الدرب الطويل الذي سلكته ظل مملوء بالحمام الذي لم يعد يطير. لصق الشجرة الصماء الراسخة وقفت. وقفت وأنا أتمتم بنوع من الفرح: "أهمية الضائع تكمن في أن يضيع أكثر فأكثر". ومن جديد، مشيت وأنا أتلوع استياء. تركي القديم للشام، ذلك الترك الذي كنت أعتقد أنه كان رحيلا حرا مارسته بوعيي واختياري، والذي اكتشفت، الآن، أبعاده المأساوية،هو الذي صار يحول دون أن أخطو بعد اليوم خطوة أخرى فاشلة. كنت أتصور أنني أتمرد. وأنني إن تمردت أصير مرعبا ومخيفًا،

حتى ولو كنت وحدي (لكم يضحكني ذلك،الآن).وكيف يواجـه "فرد متمرد" من لا يريدونه أن يكون كذلك، سـوى (بـالتحرر منهم)؟ وبأية وسيلة يتحرر؟ بتركه لهم كل شيء. كانوا يعرفون، إذن، أنني كلما أوغلت في تحرري مما لا أحب، صرت عبدا لما أحب، لا، ذلك كله، لم يعد يغريني. أريد أن أعود إلى الشام، أن أعود إليك، لا إلى صورتك الزائفة المخيفة. ولكن من أنت، في حقيقة الأمر؟ من أنت؟ كنت قد وصلت نهاية " السان جرمـان" منها عدت، وأنا أتابع تمتماتي: ما معنى الحياة إن لم نتغير؟ إن لم نتطور؟ إن لم نعد أكثر احتمالا لقسوة الحيـاة؟ واسـتوقفتني الفكرة الأخيرة. بدت لي فكرة مخيفة حقًا. ولم يتوجب علينـا أن نتحمل؟ لا. كدت أمسك بخناقك وأرسل بك إليها عبـر القـارة النائية، قاذفا بك من أعالي (السين). أنت الأخرى تدفعينني، دفعا غامضا نحو الليل. تزينين لي الرحيل. والرحيل عمن؟ عني أنا، بالطبع. لا. لا يفرغ الكائن من لبه مرتين. أدهشتني وأنـا فـي منتصف الطريق، وجوه البشر الذابلة، وأجسـادهم المتهالكـة. لكأنهم لم يأكلوا منذ سنين عجبا، لأناس بـاريس، هـذا اليـوم. بسرعة أخفيت وجهي عنهم، وأنا لا أستطيع أن أتنفس الهـواء ماء. ماء كنت أصرخ،طالبا بعض الماء. ولـم يردنـي سـوى صوتك:

-قم اشرب. لست مكسورا.

لأول مرة، منذ المساء، بصـقت. كـاد بصـاقي أن يصـيبك وأصابني رذاذه المتناثر في الأنحاء. والتصقت، أكثـر فـأكثر، بأرضية الغرفة الوسخة، وأنا أعد أضواء الأبراج المقابلة لـي. أستشف عبر الزجاج المعلق في الليل، بعـض سـمات حيـاتي (كدت أقول مماتي). ولأول مـرة، أحسسـت، بشـكل فاضـح وعنيف، أحسست بحاجتي القاسية إلى الحنـان. الحنـان، هـو الآخر، مرتبط بالمكان؟ بلى. (والحنان-على العكس من الحنين- ليس عاطفة مدسوسة ولذا، ربما، لم يعد أي منـا قـادرا علـى إفرازه.) ومن لا مكان له، ليس له سلطان. ذلك، وحده، يكفـي الآن لتلخيص مأساتي، وربما، مأساتك، أيضا – وترديننـي أن أرحل؟ أن أترك المكان الذي أقف فوقه بقدمي؟ أن أمشـي؟ أن أمشي؟ نعم، ولكن عندما يحين الحين. فعلتهـا مـرة. فعلتهـا ابتسارا؛ ولن أفعلها مرة أخرى.لا. صـرت أدرك الآن معنـى مكاني، وماهيته، وحدوده. أعرف قوة المكان وفاعليته. المكـان ليس مسقط الرأس، بل موطئ القدم. أعرف، الآن، كيف أحافظ عليه، وكيف أنطلق منه، وكيف لا أعود إليه. إذا اقتضى الأمر ذلك.

قشعريرة ملعونة هزتني. هزتني عميقا، وأنا أفكر بذلك. كـدت ألتفت إليك، أستطلع أحوالك. كنت ترتدين إلى الوراء، وتلقـين بجسدك الصغير المتعب على الأريكة المهترئـة.عبثًـا كنـت تحاولين أن تنامي. كان الليل لا زال في أوله. كنت قد قـررت أن أرى فجر باريس، أن أظل واقفا في مكاني حتـى الصـباح. (ولم أكن أعرف، آنذاك، أنني سأموت قبل ذلك بكثيـر.) وبـلا مبالاة مددت أطرافك، منفرجة وألقيـت يـديك وراء رأسـك. وصوبت بتشف وحقد، ناظريك إلى ظهري. ماذا كنت تريـدين مني غير أن أموت، في تلك اللحظة؟ (وهو ما ستسببينه، فيمـا يلي ذلك من الوقت). كان الليل الملقي علـى الأرض، أمـامي، يغيب عنك، تماما، وأنت في وضعك الجديد. وبصوتك الخافض الحزين. قلت بتردد يكاد يقارب الخجل:

-تعال. تعال.

ورأيت، دون أن أنظر إليك، دموعك العميقة، وحنـوك القـديم، وشوقك القتيل، واستياءك المستمر وخوفك، خوفك الذي أحسست به، أحسسته صوتًا مائيا ذابلا بلا مغيث. بلى. رأيت، ذلك، كله، يتجسد حولي. حولي، يحوم، يحوم كالذباب العنيد فوق رأسـي يكاد يعيد الوصل بيننا من جديد- كنت تتمايلين بشغف، وأنـت ترددين:

-لماذا جئت بي إلى هنا؟

كانت الشهوة المتطايرة منك تسقط فوقي. تغريني بأكلـك أكلًـا وكانت الشمس الدمشقية تشويك. وبلا تردد أجرك وتركضين:

- إنها الحرب، ألا ترين؟

-الحرب؟ تقولين مستهزئة. وتضيفين بلا مبالاة:

-لكن النهار رائع، هذا اليوم، وأحسني أتسـلل إليـك. أدخـل أهوازك السرية، أتسلق تعاريج جسدك المستثار، وأراك تحسين بتحركي الهادئ داخل أجوافك. وتنهمرين. كان الطريق خاليـا. وكانت الشمس، وحدها، تملأ فضاء دمشق المرعوب. كان كـل شيء لنا، لنا وحدنا، ومن جديد سألت:

-لماذا يخاف الناس الحرب إلى هذا الحد؟

كنت في عالم ملتهب كنت أريد أن أفهم كيف يتسلط جسد علـى جسد آخر ويغريه. ولم أجبك. لم يكن لدي من جـواب. سـوى الجواب الباهت السخيف:

-لأنها الوحيدة التي تحمل إمكانيتين فوريتين: إمكانيـة المـوت وإمكانية الحياة. وأيضا. لأنها الوحيدة التي تلهب الكائن بالشوق. (قلت ذلك وأحطتك بذراعي) ولم تسمعي مما قلت شيئًا. كنـت

تدخلين في، وأنت وأحطتك بذراعي) ولم تسمعي مما قلت شيئا. كنت تدخلين في، وأنت تلحين:

-ضمني (بعنف أكثر) ضمني، حتى تضع الحرب أوزارها.

وبدأ العرق الوهاج ذو الرائحة النفاذة ينتشر. وأحسست، لأول مرة، أن جسدي، كله، يشارك في الالتحام. أنوار مجهريـة، لا تحصى وكانت تضيء جسدينا.وفجأة، جاء الهدير، هدير عميق، متسلط، وصرت تصرخين:

- أريد أن أموت أريد أن..

وابتلع هدير الطائرات صراخك المتوتر. ورأيت الأبنية الحجرية العتيدة تقف بعناد. تكاد تهزأ من قسوة الانفجارات التي أخـذت تتلاحق. ولم يعد يصلنا إلا صراخ المرأة المقعدة الجوفاء. وهي تثرثر متحدية: " أكره الحرب ولا أحب الحياة" وعندما رأتنـي أنظر إليها مستغربا، هاجمتني وهي تموء: ماذا تريد؟ ونظـرت إليك، ونظرت إلي. كانت عيناك توحيان بأنك جاهزة لكل شيء. وأكثر من ذلك، قادرة على إعطائه. وكان ذلك بحد ذاته سلطة، فالسلطة الحقيقية هي أن نستطيع إعطاء الآخرين ما يريـدون.

تلك الطاقة الخفية التي كانت تنبثق من عينيك. هي التي جعلـت الأمور تلتبس علي فيما بعد.

-كالعادة، خطؤك المزدوج الرهيـب (فـي الوضـع، وفـي الشخص) تريد أن تجعل منه خطأ بسيطًا، مبتذلا. ومن المسئول عنه؟ كالعادة: أنا. منذ عرفتك وأنت تهذي: " مـن يتبصـر لا يضع". ولم أفعل أنا إلا تطبيق ما كنت تدعي أنك"هضمته". ومع ذلك، ضعت، ضعت في نهيرك الناشف، فكيف بك أنت، وأنـت تحيا غفلا؟ تمد يديك إلي وكأنني كيس من التبن. تخشى حتـى من النور على عينيك. ماذا أفعل لك؟ ما باستطاعتي، بالأحرى، أن أفعل، إن كان سقوطك ناجما عن " الفراغ المخل بالذات"؟
- تتكلمين على هواك. وقاطعتني محتدة:

- أنت تعرف أنني لا أنطق إلا عـن الهـوى. تعـرف ذلـك وتتجاهله. فما زلت تحسب" أن مع الجهل علما، أن مع الجهـل علما" قاعدتك العتيدة ستظل قاعدة صالحة إلى الأبد. ولا تريد أن تعترف، إن ذلك لم يكن إلا وهما. وإنك تجهل كل شيء بما فيه ذاتك، نفسها، تجهله رغم "علميك"،وإن كنـت تـزعم بـالعكس (العكس ليس دائما هو الصحيح. كما تردد باستمرار).

تركت ساحة الحديث واقتربت من الظلمـة. خطوتـان فقـط، وأصير لصق الزجاج البارد، من جديد. وهذه المرة لـم أطلـق النظر بعيدا. لم أبحث، في الأسفل، عن السفن الحاملة للضـوء. كنت أقرر بتصميم في نفسي: " مهمتي الأساسـية، (أو إحـدى مهماتي)، منذ الآن، هي " تدقيق محاكمتي للأمور." ومن ورائي جاء صوتها هادئًا وبطيئًا. كانت تتكلم وكأنها تنعي أحدا مات:

-ولم يتعلم ممن حولك شيئا، حتى من أبغض الناس إليك: منـي كل ما يمر بك ينزلق عليك، كما ينزلق الماء عن ظهر الحوت.

وبدأت أمشي في مكاني، فهمت، فورا، علامة الاستياء المتراكم الذي كان يتجلى في كياني المهتاج. أتكـون عرفتـه فعـلا، إذ صمتت، فجأة، وهي تراود الجدار؟ كنت أحس أنني صرت فـي "وضع مخيف". وضع أحتاج فيه إلى " قوة إضـافية " لأحتمـل مآسيه. في الخارج، انتهى " جنون العيش" الحلو إلـى "الحيـاة المرة" في الداخل. وصار الأمر اليسير عسيرا. الآن. تريدني أن أتعمل، أن أتكيف، أن أقلد" محتقراتي" التي قضيت حياتي كلهـا وأنا أهملها وأتحاشاها، لا، ليس المنطق دائما، على حق. وفجأة، قلت بنوع من التبجح، دون أن ألتفت إليها:

-لو تعلم الناس، بعضهم مـن بعض،لحلـت الكارثـة: كارثـة الأنساق الواحدة، والأفراد- المثل.

ظلت ساكتة. لكأنها لم تسمع ما قلته. كانت تلتصق، التصاقا قويا بالجدار. لكأنها كانت تجامعه. ورأيت. فعلا، حركـات الجـدار المريبة:

حركات الدخول والخروج المتناوب. الجدار يـدخل ويخـرج، وهي تتلقح بين شقيه. وأدرت وجهـي، خجـلا. كنـت لا أزال أخجل من الرغبة وأجلها. بعد أن نفضت عـن ظهـري أثقـالا كثيرة، ظلت الرغبة وحدها تبعث الخجل الفارح فـي نفسـي. أخجل منها، وهي عند غيري، كما أخجل من أمي. رغبتي، أنا، تجعلني، على العكس، عدائيا وشديد الوضـوح، إلـى درجـة الاعتداد الكاذب بالنفس. كانت تذهلني دائما تلك الحركة الهادئة. الحركة الواثقة من أنها لن تصيب إلا هدفها الوحيد. حركة تحدد المتعة شدتها ومداها. تلك الحركة المنتظمة والرتيبة إلـى حـد الموت، كانت تثير، رغم تجربتي الطويلة، خوفي، وأكثر ما كان يشغلني هو ما يعقب تلك الحركة الدائرية التي كلما أمعنـا فـي ممارستها أدركنا أننا لا نفهم منها شيئا ونكاد نكتشف كل يوم أننا لا نعرف حتى كيف نفعلها. ما كان يشغلني، إذن هـو سـكون الجسد وبراءة العقل اللذان يعقبانها. وبدأت أتحرك في مكـاني،

دون أن أبرح الفضاء. كان رأسي يمتلئ بمفهومات لا تحصـى ومنها يفرغ للتو. كنت أحسني مثـل النهـر الفـائض: أقـش الحشائش والعيدان والأوحال والإرهاصات والأحيـاء النافقـة، على طريقي، دون أن أدقق في ماهياتها. كنت أريـد، فقـط أن أمتلئ. أن أمتلئ بأي شيء يمكن له أن يملأني. لكـن "عامـل الزمن المفرغ" هو الذي شفى كل شيء (أكاد أقـول، وشـفاه). كنت أحسب. وهما، أننا يمكن أن نتخلص من تراكماتنا. ولم يكن في الحسبان، أن تلك التراكمات هي الأخرى، ستدافع عن نفسها. واختلط الأمر علي. كنت أعتقد أنـه يكفـي أن يبـدأ الكـائن صراعه(مع نفسه) للتحرر من " إرثه القديم"، لكي يتغيـر هـو، وربما، لكي يتغير العالم. لكن وقائع هذا النشاط الملغوم غالبا ما أثبتت العكس (والعكس دائما هو الصحيح). الآن. وأنا في هـذا الطور من الانحياز النهائي للذات، لم تعـد تلـك الانتكاسـات الصغيرة ترعبني. ولكم أود أن تفهمي، أنت الأخرى،هذا.

- فهمته. وفهمت ما هو أكثر من ذلك ولكنك أنت الذي لا يريد أن يفهم لا تريد أن تفهم أن مشروع تحررك كـان مشـروعين واحد لك، وواحد لي " وأنك (أنت، من يجب أن يستفيد، دومـا) قضيت حياتك وأنت تلهث لتحويل " الخسارة إلى ربح" متمسكا"

بوعيك التجاري" البـائس. والآن (كعادتـك) تريـد أن تحـول "الانتكاس إلى ارتكاس" متبنيا، بلا خجل مقولات السلطة التـي تدعي محاربتها. لا، لست في الحقيقـة إلا متسـلطًا صـغيرا. متسلط يحسب أن جسده مركز الكون. وأن عقله روح العالم ولم تفهم برغم تكراراتي أن التحرر، مثل العبوديـة، لا يمكـن أن يكون إلا شاملا، وهو يمكن أن يكون أي شيء إلا " مشـروعا نفعيا" تافها. أن تكون متحررا هو أن يستطيع الآخـر التحـرر، ببساطة، منك، أفهمت الآن، عمق مأساتي معك؟

حكت كثيرا. كنت أسمع صامتًا. كنت لا أسمع. كنت أعتقد أنني وصلت إلى " المأزق" الذي أنا فيه لأنني " أرخيت الجبل" كثيرا. ولكن من يستطيع أن يؤكد هذا، أو أن يؤكـد العكـس؟ مـاذا سيحدث لو لم أقم بذلك؟ أوليست المسألة، أخيرا، مسألة حـدس نافذ؟ لا. فالمسائل التاريخية لا يمكن أن تحسم بالحدس، وحـده وما أعانيه، أنا، الآن، أمر تاريخي، أيضا فليس " التاريخ" حكرا على التجمعات، وحدها. وكأنهـا أرادت أن تؤكـد انتصـارها، بشكل نهائي، علي، قالت، "هذه المرة"، بيأس وهدوء:

-لا تلم نفسك. يمـوت المرضـى مـن أمراضـهم، (وكـذلك المجتمعات). الآن أريدك أن تتجنب أمـرا واحـدا: لا تحـول "وضعا" بين يديك، يمكن أن تستخدمه كسلاح ضد الآخـر إلـى سلاح بين يديه، سيستخدمه، هو بالتأكيد، ضدك.

وبدا علي أنني لم أفهم مما قالت شيئا. كنت أتأرجح بين قطبين: قطب الحقد وقطب الحب. كدت أتساءل بصراحة عـن وجـود امرأة تجرؤ على أن تحدثني بمثل هذه الوقاحـة، وبمثـل هـذا الصدق. ولم أجد على لساني إلا الكلام الجاهز القديم:

- من يعلم؟ من يعلم كيف تنقلب الأحوال؟

ولم تتردد. قالت مؤكدة، بهدوء:

-أنا أعلم. أنا أعلم.

ووجدتني أنساب خلف أفاعي الجزيرة، بين التـرع والأخاديـد. ألاحق أذنابها الملْس اللامعة أتبع خيط الماء الدافق، بارتيـاب. أرض وماء، وأعشاب شتى، وحجيرات، وصوت "أحد النـاس" يردد في مساء "الجزيرة" البعيد: "من قال لا أعلم، علمه الله مالا يعلم."

ألْهاني البحث عني، عن البحث عنها. كيف يحل الشيء في الشيء، وكيف يخرج منه؟ أردت أن أعرف قوة هذه الحركة ومداها. أدخل وأخرج مدن عديدة مرت بي ومررت بها. المرأة التي أبحث عنها صارت محنة. لم تعد موجودة. ما جدوى الأمكنة إن لم تحتو من نبحث عنه؟ سافرت من جديد. لم أكن أبحث. ظننت أن عدم البحث الذي طال سيخلصني، نهائيا، من البحث الذي استمر زمنًا طويلا، بعد الشتاء العاصف جاء ربيع هائف. شمسه ضئيلة. أمطاره لا تنقطع: أمطار لا تصيب زرعا ولا تروي فرعا (كما سبق لي أن أكدت من قبل). أمطار تبل الرأس وترطب القدم لكنها لا تنعش النفس. أسير تحتها بحياد مخيف. أمشي فيها وأنا أبصر مطر (الجزيرة) المهيب: المطر الحالولي الهدار، الذي يذري الماء ذروا. تسوق ريحه القطرات إلى أقاصي الأرض المملوءة أشواكًا. تحتل الزواحف والحيات بانتظار أن يكف المطر عن التوقيع. وحدي. كنت أتجلل بأغطية الصوف العتيقة وأركض لاهثًا خلف الزرازير: زرازير (الجزيرة)، ذات الهيئات الملكية وهي تمشي متبخترة، باحثة في المزابل عن الحب. الآن، علي أن أترك المكان. لا أحد يمر.

الشارع خال تماما. الشمس محجوبة بغيوم بلهاء شديدة الدكنة غيوم بليدة لا تتخلى عن مكانها: غيوم كسيحة لا تسير. لكن هذا الوجه الحاسر من أين نبع اللحظة؟ وجه شديد الأسف يخفي لوعة بادية الظهور. وجه بلا بصر. أدرت وجهي عنه، زورا وأنا أتصنع النظر إلى القاع (فمنذ أن أحسست أنني لن أحقق ما أريد صرت عدائيا، مشاكسا، ولا أحتمل أحدا لا أحتمله). كنت أحس (بشكل عنيف) أنني لم أنضج، بعد (وهل يمكن لكائن أفرغ من محتواه أن يقارب النضج، يوما ما؟) وهو ما كان يدفعني، بشكل قهري، لارتكاب حماقة يصعب إصلاحها. الحماقة التي سأرتكبها – بعد قليل وكنت أهدئ نفسي ولكن إلى متى؟

(٢١)

بدأت أحوص في مكاني المغلق مثل فئران المختبرات: كانـت المواجهة بيني وبينها تتحول، شيئا فشيئا إلى مواجهة بيني وبين العالم. كنت معلقًا في قلب العتمة المعلقة في سماء باريس. كانت الأضواء مرمية في الأسفل ولم تكن تلك الأضواء الباردة توحي لي بشيء. قطعت الأرض من المشرق إلى المغرب، لأراهـا، وهاهي ذي تتبدد في الفضاء، بلا معنى. أي شيء يملأ الأنفـس بالعمه والإحباط؟ كانت الرغبة فـي الـتخلص مـن "تـاريخي الشخصي" أو، على الأقل، التشابك معه، تركبني بلا توقف وما معنى أن يكون للإنسان تاريخ شخصي إن لم يسـتطع، عنـدما يستاء التخلص منه؟ ولم تمهلني طويلا. إذ قالـت، بنـوع مـن اللامبالاة.

-لو قال كل منا للآخر ما يفكر فيه، حقيقة، عنه لمـا صـمدت لحظة في وجهي. ولتغير، ربما سياق" علاقتنا" (كمـا تسـميها أنت)علاقة العبد بمن هو أكثر منه عبودية. علاقة فتح السـاقين وضمهما ولكم أشعر بالأسف، الآن، لأنني لم أتصد لـك منـذ

البداية. كنت أنا الأخرى أتصور أن الإنسان يمكن أن يشفى من غبائه.

ورأتني أتهدد مشيا فسكتت لحظة، ثم أضـافت بقـرف شـديد (وكأنها قررت أن تقول تلك الليلة المشئومة، كل ما يعذبها):

- بعض الأنواع (وأضافت بين قوسين) ومنها نوعك، يجب أن يختفي.

- لماذا؟ (طرحت على نفسها السؤال) وأجابت:
- لأن الماء الآسن لا يشرب وعلامـة الأسـن فيـك تـرددك المستمر بين ما كنت عليه وبين ما أنت عليـه الآن. وكلاهمـا شر. وما نفع الإنسان الذي لا يغرف منه أحد غـرفتين؟ كانـت تحكي. وكنت أتجول بين أضواء دمشق الزرق الباردة.

تحكي وأنا أتطلع بوهج واضطراب. كانت ظلمات الحرب التـي تملأ الشوارع مفعمة بالنور. ومرة بعد أخرى، أردت إسـكاتها. ولم تقل:

- أعرف أنك كنت تحسب أنني كنت خرساء. لكن"فك" جسدي، هو الذي أطلق لساني نهائيا. ماذا أفعل الآن، وقـد انفـتح كـل شيء؟ ولكي أغير ما كنا فيه، قلت "متأببا":

- أخاف عليك إن تأخرت كثيرا. أهلك، تعرفينهم أكثـر منـي.

ورأيتها تستند على الجدار من شدة الضحك:

- يا إلهي، ما أغباك. أهلي؟

ولم تقل بعد ذلك، شيئًا. كنا وحدنا. وكانت المصـابيح الـزرق المعلقة في أعلى أعمدة الطريق. تنفث، بتردد وحـرص، بقايـا نورها الذي خبا. ومن آن لآخر، يمر بنا بعض النسوة العجلات. لماذا كن يركضن. في ذلك الوقت البطيء؟

-لأنهن وحيدات. قالت. وهي تمد يدها اللطيفة إلي. ولـم أكـد أتحرك. ودون أن تنتظر مني تعليقًا، أضافت بتصميم:

-لا، لن أعود إلى البيت. لن أعود أبدا.

ولأول مرة أحسستني وحيدا، وهي تزهو بجانبي. كانت العتمـة الدمشقية، قد بدأت تتسلط على النور، وأحسست بجسدي ينهض

من غشائه الساتر. خوف. وتردد. وهذا الجمـل الهـائج كيـف أعقله، الآن؟ وكأنها كانت تقرأ انبثاقاتي، رأيتها تلتز علي. تحط نفسها في أنحائي. وتأمرني، بتصميم:

-تعال. تعال.

-إلي أين؟ إلى أين؟ أجبت مندهشًا.

كانت فوهة البناء الحجري الهائلة تدعونا. ظلمة وخلاء.اتسـاع غير محجوب.وباب دمشقي عريق. باب أسود ونظيـف. بـاب ولوجه سهل مثل الخروج منه، ماذا يمنع الفوت، الآن؟ وكأنها لم تكن قد فكرت بشيء من هذا كله دخلت فـي الفضـاء المظلـم بهدوء، وأدخلتني. ماذا أفعل الآن؟ وقبـل أن تسـمع صـوتي اللاهث، أحاطتني. وتحولت، كلي، إلى يد، يد صغيرة مملـوءة بالشوق. (من أين نبع ذلك السيل الهائل من الشوق الكبيت؟ وأين كان يختفي؟) وتلمست أنحاءها. أي نحو منها كان أعذب؟ لم أعد أدري. كانت اليد التي صرتها تتجه عفوا نحو"الشيء" المناسب، وكأنها ألفته منذ ظهوره. وأحسست بي أتلاشى. كان ذلك الفص الذي أثخن بجراحه، يغريني بطعنه أكثر.لا لم أكن أعرف، قبل

ذلك، أن متعة الإغراء لا تعادلها إلا متعة أن تدع نفسك تغرى.
وقبل أن أفصح نفسي، قالت، وهي تتلوى:
-آه، ما أروع أن أموت، وأنا حية.

وبشماتة ولؤم التفت خلفا. لماذا أدرت رأسي، آنـذاك؟ وكيـف خطر لي أن أستدير وراء؟ كنت أريد أن أستطلع ما بقي منـك. كنت أبحث، في الحقيقة، عن بقية نور في قسماتك. لكن الظلمة الباريسية اللعينة لم تسمح للنظر بالوصول إليك. عتمـة الشـام القديمة كانت ناصعة؟ بلى! في ذلك المسار القديم أكتشفت كـل شيء فيك، ظلمة، عرفت رؤوسك وخلجانك، لمسا. ولم تهتمـي باقترابي المفاجئ منك. كنت تتكورين على نفسك وتنامين. ومع ذلك، اقتربت إلى حد اللصاق بك، ولم تفعلي من أجلي شيئا. لا لم تكن رؤيتك ممكنة، لا من بعيد ولا من قريب. وعدت أقترب من النافذة من جديد. كانت الأضواء تشر في فضاءات الطـرق المحيطة بي.
- وبدأ سطح النهر أملس ورتيبا. على حوافه تتراكض السـفن المملوءة بالضوء (ولم أر منك، رغم ذلك، شيئا) كدت أضحك، وأنا أفكر بصوت نصف- عال بما كان يجتاحني. آنـذاك: "مـا جدوى النور في الخارج إن كان الداخل مظلما؟" أنـت، وهـي،

وباريس والشام. كنت أريد أن أجمع، ذلك كله، أن أقابـل بـين النار والماء. أن أفهم أين أنا من ذلك الخليط المريـب. الخلـيط الذي ابتلع، دون أن أدري حياتي كلها. لا لم أعد أريد حبا. كنت أريد فقط، أن أفهم وأحسست أن رأسي يابس وعصي على الفهم وأنه سيظل كذلك دون مقارنة حقيقيـة، ودون مقاربـة فعليـة لجوهر الأشياء. لا لم أكن أفهم في عتمة باريس الرهيبة تلك ِلم كان ذلك كله سرابا ولا ِلم عبرني ذلك كله وعبرته دون أن أفقه من أمري (أو من أمره) شيئا (لم يبق من ذلك كله بقية). لكأنني وليد نبذ من رحم أمه بلا تاريخ. أيمكن أن تكون أركان الحيـاة الأساسية مؤقتة، وبلا مغزى، إلى هذا الحد؟ وكأنها لم تتم أبـدا، جاء صوتها من قاب العتمة واضحا وصريحا:

- ألم تتعلم، بعد، أن أهمية " الشيء" تنبع من كونه مؤقتـا، وأن مأساته تكمن في ديمومته المحتملة.

- لماذا؟ سألت نفسها. وأجابت:

- ليهتز عقل سكوني مثل عقلك لا يحس بالأمان إلا فوق خـط مستقيم لكنك لازلت بعيدا عن إدراك أهمية أنه ينقلب المرء "أو إذا شئت، الشيء" من حال إلى حال.

- بلى، لكنني لا أريده أن يصير أسوأ مما كان

ورأيت ضحكتها تنبثق في جوف الظلمة المحيطة بي:

-تقول أسوأ؟ أنت من يقول هذا؟ كلنا نصير أسوأ مما كنا عندما يمسنا عفن التطور. ألم تفهم ذلك، بعد؟ ولكن لماذا نصير أسوأ؟ (إن صرنا فعلا) لأن الآخر صار أكثر سوءا ببساطة، إن كنـت تريد أن تعرف السبب ووجدت الفرصة سانحة لكي أعلق مـن جديد. لكي أوضح الأمر الذي كان يشغل بالي. لا، ما كنت أريد أن أقيم الحد على أحد. ولم أكن أريد أن أستخاص حكما مغرضا أو مظلوما. كنت أتمنى، فعلا، أن أستعيد ما مر بي لكي أفهمـه بشكل أعمق. كنت أشعر بخلل كبير في تكويني كلما أحسسـت بذلك الضباب يخيم فوق عقلي. وكانت تملؤني رغبة عنيفة فـي دس يدي داخل قحفي من أجل تنظيف دماغي. كان كل شـيء يضحك مني، أو يضحك علي. ولذا كنت أريد أن أربط "الأشياء" بحبال لا تنفصم عراها. أربطها جنبا إلى جنب حتى أراها معـا وبنفس الوقت.

- لماذا؟ سألت مستهزئة.

-لأقارنها. لأقارن بعضها ببعضها الآخر، أقارن "كل شيء" بكل شيء. أقارن الحالات والأشخاص. أتتبع مسـارها ومسـارهم،

علني أفهم. ستضحكين، كعادتك، مني، إلا أنني لن أحيد عن هذا الهوس(كما تسمينه):هوس الإصرار على الفهم.

- لن تفهم برغم ذلك شيئا.

- لماذا؟

- لأن مقارنة الإنسان لا تصح إلا بنفسه. و حتـى هـذه، فـي الحقيقة، باطلة.

حل الصمت بشكل عفوي، في نفسي وللحظة، أحسست أن كـل شيء في كياني يتوقف عن الدوران. انطفأ اللهب الـذي كـان يشويني.

لحساب من أدفع بنفسي إلى الصدام، إلى الصدام مع هذه المرأة الخاتلة في الركن؟ هذا الكائن الذي لا ينبـئ ظـاهره إلا عـن الهشاشة والعطب السريع. أستطيع، الآن، لو أردت، الإمساك به وتطويحه من أعلى برج على السين. (وإنني لأتسـاءل، لـم لا أفعل ذلك، ولم لا أفعله، فورا؟) ولم تدعني أتابع تخمراتـي، إذ قالت بلا ندم:

-أراك صمت. والصمت أسوأ الحلول. صمت، فعلا. كنت أحس أن التاريخ فارغ من " كل شيء" إلا من ثقلة الباهظ. لكان اللون الأسود، وحده، يتراكم ليكسو، فـي النهايـة، فضـاء تـاريخي

الشخصي، كله. عبرت العالم من دمشق إلى باريس وكأنني لـم أبرح المرعى الذي نشأت فيه.لا، لم يعد الزيف كافيـا لشـغل النفس عن كبواتها. وعندما تبدأ النفس حسـابها العسـير، مـع "نفسها"، فذلك يعني بوضوح، أن مغريات الجسد لم تعـد تفعـل فعلها السحري" الملطف" لبؤس الروح. كيف يمكن لإنسان وحده أن يقاوم حياة بائسة إلى هذا الحد؟ حياة بلا فرح. بلا ضـحك. بلا عاطفة متأججة. بلا شبع حقيقي إلى حد التخمة. بلا جـوع قاتل. بلا عطش مخيف. بلا طمأنينة. حياة كأنهـا مـن عهـن منفوش، لا تغطس ولا تفوش.

صرت أرغب أن تكون لدي رغبة حقيقية في التحطـيم. لكـن مرغوباتي، كلها لم تعد ذات معنى. لماذا؟ (كدت أسال نفسـي) وقبل أن أسالها، قالت:

-لأن الرغبة الأساسية هي الرغبة في الآخر، لا، الرغبة في أن يرغب الآخر فينا، فحسب، وأنت لازلت فـي مرحلـة "وعـي الرضيع" الذي لا يبحث إلا عن رغبة أمه فيه. وليست الرغبـة في التحطيم التي تقتفز إليها، أيضا،إلا تعبيرا عن بحثك العبثـي عن " حنان" أم أهملتك، منذ زمن طويل. ولا تريد أن تفهم أنني

لست أمك. لا تريد أن تفهم أنني، أنا الأخرى، كـائن " تحـت الضغط" كائن له أحلامه وأوهامه. وإني لأتساءل من أيـن لـك بعمى البصيرة، هذا؟

كدت أقول لك" إنك على حق في تقديرك للوضع، ولكنك علـى خطأ فيما يتعلق بشرحك المغرض له. " لماذا؟ لمـاذا تصـيبين الوجه وتخطئين القفا، لماذا؟" وقبل أن يصلك صـوتي، كانـت الأضواء الكشافة تستدير.

ومن جديد، تستعيد إرسالاتها الصاخبة إرسالات الضوء العبثـي البارد. تنير جدران الأبنية الكئيبة المرمية على الضفتين، أبنيـة نام أهلها منذ أول الليل.

ناموا ليستيقظوا ركضا قبيل الفجر. ومثل الطيور التي أجبـرت على ترك أعشاشها، سيتسابقون نحو الأنفاق المحشوة بالحركـة والأصوات. تلك الأنفاق التي ابتلعتنا معا، عاما بعد عام، لكأنك نسيت ذلك، كله نسيت نزولنا الحثيث، وصعودنا المتباطئ. كنـا نلجها فرحين. تلك الأنفاق التي صرنا نعرف الآن، أنهـا بـلا "نهاية"-لماذا؟ لأننا كما نعتقد أن الحرية تتجسد في الدخول إليها والخروج منها بسلام. أن ندخل وأن نخرج بلا رقيب، ذلك بحد ذاته كان متعة.

بدأ الضوء يصيبني. أحتميت بأصابعي منه. في لجـة الضـوء العاتي، رأيت جسدها الصغير الرافض. الجسد، نفسـه، الـذي حماني في غارات الشام العنيفة؟ ذلك الجسد الذي غدا، يومهـا، هائلا من شدة الالتصاق بي، والذي غطاني من الطريـق إلـى الطريق وأحاط بي وكأنني رقعة في ثوبه الكبير، رأيته اليـوم، يرتمي مهملا ومنسيا. يكاد لا يميز عن الأثاث المبعثر حولـه. وبلا مبالاة أدعه يهمد، وألاحق الأضواء التي اقتربت مني، حتى صارت جزءا من جسدي الواقف بلا حـراك. نـور يـدخلني، ويخرج مني نور وأعود سريعا، إلى العتمة من جديـد. الغـارة مرت. والأصوات خمدت. ولم يبق في المحيط إلا فحيح المـرأة المقعدة العنيدة: " خسرنا الحرب؟ بلى. علينـا الآن ألا نخسـر الحياة". وأصير ألوك قولها الذي فاجأني، سرا: " نخسر الحياة؟ الحياة، هي الأخرى قابلة للخسران؟" كنت لا أزال أقف في وجه الضوء الذي بدأ انحساره المفاجئ. وكنت تتجهين، هذه المـرة نحو الشمال. تضعين وجهك المعذب في وجه الجدار. ماذا كنت تخططين آنذاك؟ ولم استدرت نهائيا، نحو ذلك الجـدار الوسـخ

والموحش: جدار باريس اللئيمة؟ ولكنك لم تفصحي عن أهوائك. وعندما استعدت وجه امرأة الحرب المقعدة وحكاياتهـا، رأيتـك تتململين وكأن نملا تسلق، فجأة، فخديك. وعبر ظهرك المظلـم، جاء صوتك الخافت والحزين:

-لا تثقل كاهل الطبيعة بغبائك. ما يسئمني (ويسئمها، ربما) هي أسئلتك التي تتكرر ببلادة لا حدود لها. تتكرر وكأنهـا الشـاهد المبين على أنك لم تتعلم من حياتك شيئا. يمكن أن يجهل الإنسان أشياء كثيرة، في حياته، إلا أن عليه، في نهاية الأمر، أن يعرف الأساسي منها. وأنت تجهل هذا وتكاد تجهله بإصرار. فمازلـت تتساءل إن كانت الحياة قابلة للخسران. بلى. أقولها لـك للمـرة الألف. وكيف؟ (سألتها، نافذ الصبر):

- نخسرها عندما نصير نعتقد أن ما لا نسـتطيع تحقيقـه هنـا والآن، قد نحققه في مكان آخر وفي زمان آخر. وهو ما يخالف منطق الأشياء. فإذا كان يمكن " لكل شـيء" أن يحـدث، فإنـه يمكن، في المقابل ألا يحدث أي شيء إطلاقا. أي شـيء ممـا توقعناه. ماذا يعني ذلك (سألتها من جديد):

- يعني أننا يمكن أن نهترئ دون أن نتطـور. إننـا يمكـن أن نموت دون أن نكون قد عشنا.

وأتلمس الجسد القديم: جسد الشام الطازج واللهاب. أتلمسه فـي بحر أضواء دمشق الزرق الباردة. أضواء الحرب التـي ولـت الأدبار. كانت صفارات الإنذار قد بدأت تبتلـع أنينهـا الحـاد الممزق للأسماع. ولم تدب الحركة، بعـد، حاولـت أن أرفـع جذعها الساقط فوقي، ولم أفلح. كانت تتشبث بي بمخالبها النفاذة، تفرج فخديها إلى أقصى حد، وتركبني، كمـا تركـب الفـرس حصانًا تشتهيه. كنا لا نزال في ذلك المدخل العريق. وكان كـل شيء (أتذكرين؟) يتواطأ معنا. لا حركة، ولا ضـوء، وفضـاء جليل، أول الليل وآخر النهار يتقاسمانه، ونحـن بينهمـا علـى اتصال. وهممت أن أرد، بعنف، عليها. إلا أنني سكت، دون أن أقول شيئا. كدت أسقط، من جديد، في مستنقع التبجح والافتعال. وهو ما كان يدفع بي غالبا إلى ممارسة " الكذب الصادق". مـا هو هذا؟هو أن أقول ما أعتقده حقًا، مع أنني أعرف أنه لا يستند إلى أي أساس من حقيقة. وهو في الوقت نفسـه، لـيس كـذبا، مطلقًا. لم أقل شيئا. ما جدوى أن أحول تذمري إلـى مبالغـات سخيفة وبلا جذور؟ لا ويكفي. صرت أعـرف أن مـا نكسـبه

بالكذب يمكن أن نكسب بالصدق أضعافه. وما علينا، فـي هـذه الحال، إلا أن نقاوم الاندفاع العفوي نحو"السهل المبتذل". كنـت أعرف أنك لا تتورعين عن "محاربة" كل ما أقوله، وكأنه حراب مسمومة موجهة، قصدا، إليك مع أنه ليس أكثر من كلام يستحق القبول، كما يستحق الرفض. ورأيتك تضحكين، بصـمت، فـي عتمة الغرفة الباريسية، وأنت ترددين:

- الإنسان ثلثه من الطاعة وثلثاه من العصيان. ومعـك، أنـت صرت، كلي من هذا ولا تريد أن أتحاشي أي دفق يجيء منها. وقبل أن أتحرك، قالت:

- كنت قبلا، أترجرج بينك وبيني. وصرت أتموج مثل موجـة تعلو. تعلو لتكمل وتكتمل لتتبدد. وتتبدد بلا أسف. لا، لـم أعـد أفهم لِم يتألم الإنسان عندما تتلاشى "موجاته"، في حـين يفـرح البحر بارتداد موجه العاتي إليه؟

- كنت أحسب أننا واحد. قلـت بسـرعة، وأنـا أبتعـد عـدة سنتيمترات عنها. كان فضاء الغرفة المحصور يمنع كل تحـرر حقيقي. خطوة واحدة أو أقل، وأحس أني أنتقـل آلاف الأميـال نحو التيه. أعبر الوهاد المسورة بشجر الـبطم القاسـي. أدوس خلالها على آلاف الأشواك الوخازة. ومن قدمي يسيل الدم نقطا

وبشاشات. ولم أحفل بوجعي ولا بجروحي. كان الوقت مسـاء وكنت ذاهبا إلى أقصى الأرض، إلى أيـن كنـت أروح، ذلـك المساء؟ ومن كان ينتظرني بوجه البيت؟ كانت رعدات الخـوف تخزني مثل أشواك مجهرية بدأت نزولي الحثيث إلى الـوادي. كان ظهره المنصلق كالرمان اللامع يملأ العينين. ظهر يرتكـز على قائمتين هائلتين. تحت الظهر المنكب على القـاع تنفـرش البطن. بطن تطلق، بحرية لا حدود لها، أطرافها إلـى أعلـى، أعضاء بشرية أصبحت أشجارا! ماذا كان يخفي الجبل ووديانه؟ ومثل القنفذ المطرود، أخفيت كياني. بلا تردد، تسـلقت شـجرة البطم إلى أعلاها برهبة، صرت أتطلع إلى الكون المحيط بـي: أعبر؟ كيف؟ بدأ الوادي الصغير النـائم تحـت أفخـاذ جبـل "عبدالعزيز" محيطًا لا يمكن للكائن عبوره على قدميه. أطيـر؟ كان الليل البري الناشف يبعث الرهبة في النفس. أنـام؟ بلـى. جذوع وورق وأغصان. وأتمدد مثل فرخ الأفعى الشبع والآمن. أتمدد ولا أنام الليل، كله، حتى الفجر حتى التفارق، حتى تغادر الأعضاء بعضها بعضا، بلا ضجيج. كنت أمهد بذلك كله للتعبير عن خيبتي. خيبتي الأزلية. ولم يدع لي صوتك الهـاجم مجـالا ألجأ إليه:

- تاريخك ليس بالضرورة هو نفسه تاريخي. وإذا كنـا نعـيش معا، فليس معنى ذلك أنه يتوجب علينـا أن نحـس بالمشـاعر نفسها، وأن ندرأ نفس الأخطار وأن نقـاوم نفـس "الأعـداء"، (أعدائك الوهميين). الحب (إن وجد) ليس حلولا وكـذلك هـي الحياة. الفراش المشترك لا ينتج بالضرورة (ولا يوجب، أيضا) تاريخًا مشتركًا. ألا تريد أن تفهم هذا؟

وكان نورا ملأ رأسي، قلت بهدوء:

- بلى. لكن ذلك كله سخيف. هو سخيف لأنه يبدو حقيقة لا تقبل النقاش أو الاعتراض. لا، لا أريد أن أفهم. ولسـت أرى أيـة غضاضة في هذا ولم يتوجب علينا أن نفهم كل ما هـو قابـل للفهم؟ ثمة خلل في ذلك، ألا ترين؟ خلل أسميه" خلـل الحقيقـة الساطعة"، أو بالأحرى "خلل التناسق المستقيم" العقل لا يغـذي، فقط، بما هو مفهوم، أنا لا أريد أن أفهم، فحسب، أريد أن أمتلك تاريخي، كما أمتلك فردة حذائي. وبعبارة أخرى: اختلافنا لـيس اختلافا في الأذواق وإنما في الأحاسيس. أنت تريديني أن أقبـل "وضعا جديدا" وأنا أريد أن أستوعب جزءا من حياتي.

حل صمت غريب، في الفضاء الذي كان يحيط بنا، ذلك المساء. من صمت قبل الآخر؟ لا أدري. كنت أقرر في أعماقي: لا، لا يمكن للأمور أن تمر، بعد الآن بسهولة. وضـوح هائـل كـان يستولي علي، آنذاك. وضوح جعلني أحس به (وكأنني أمسـكه بيدي)، وبدأت أترنم مغنيا، في عتمة الليل. "وفجأة صار العالم، أسود مغميا عليه. لماذا اسود العالم، فجأة؟ لأن سـفن السـواح التافهة لم تعد تركب النهر؟ اقتربت، أكثر ما يمكن من النافـذة، لأرى ما حصل في الخارج. لم أر شيئًا. صمت في الخارج وفي الداخل. التفت إلى الوراء لأراها: لم تكن، هي الأخـرى، فـي مكانها، أين تراها اختفت؟ بدأت الحرارة الداخلية تنبثق مني مثل لهب البركان: لا، لم أعد احتمل اختفاءها. ولا وجودها، أيضـا. ماذا كنت أريد منها، تماما؟ ولم تراني، أبحث وبمثل هذه الحمية عن كائن كنت أريد أن أقذف به، قبل قليل من الشـباك؟ للمـرة الألف أعدت السؤال في رأسي. كنت أبحث عن خط الكسر الذي لم يعد قابلا للجبر. وكأن الحريق الذي شب في ذاتي أصاب ما بقي مني ومنها وجدتني أصرخ. أصرخ بعنف: " قد أحتمـل ألا أحب، ولكن أن أهمل؟ ذلك ما لن أحتمله، إطلاقا" وكأنهـا لـم تغب، أبدا، وقفت كالعفريت في وجهي،وهي تقول:

لك أخلاق الغاشم وصفاته. تتعجب أنني لم أعد أهتم بـك، ولـم أعد أحبك، وكأنني لم أخلق إلا من أجل هذا. كأن حبك مكتـوب علي ومذ توقفت عنه، صرت خانة. لا خانة لك وحدك وإنمـا، وإنما لتاريخي الشخصي، أيضا، كأن تاريخي، أنا مؤسس علـى حبي لك فقط، ولم تعد تكتفي بما يحصـل بيننـا الآن صـرت تسترجع الماضي. ولم تسترجعه؟ (سـألت نفسـها وأجابـت): لتؤنبني (إمعانا في همجيتك وعسفك)على أني لم أركـع علـى قدميك منذ أن رأيتك. ألا تريد أن تفهم أن لكـل منـا تاريخـه الشخصي الخاص، وأنه يتطور حسب منطق هذا التاريخ وفـي سياقه، لا، كما يشتهي الآخر؟ ولم تكد تصمت، حتـى أضـافت بتصميم:

-وأن الحرية (حريتنا التي يمكن أن نخسـرها، أحيانـا، لأتفـه الأسباب) ليست في أن أكون كما أنا عليه، فحسب بل أن أصير، أيضا وباستمرار، كما أريد.

تاريخ الحضارة ه وتاريخ الأفراد أساسا. والهمجية هي ضـرب من تاريخ الجماعات. لهذا السبب " البسيط" صـرت أحـب ألا تفوتني، بعد اليوم لمحة من اللمحات التي لا تحصى في حيـاتي التي ستكون قصيرة. حياتي العبيطة التي ستنتهي قبـل مطلـع الفجر. هذه المرة، كنت أعرف، على الأقـل لمـاذا سـأموت. أعرف أبعاد اللعبة ومساراتها. كنت قد قررت أن أمسك حتـى آخر رمق بخيوط موتي. خيوط حياتي كانت، منذ أول العـيش، بيد غيري ولم أكن مسئولا حتى عن تسليمها لهم. وتريدينني أن أحاسب؟ أن تحاسبيني أنت، إضافة إلى حسابهم، سيكون أمـرا بالغ الشناعة والاحتقار. ولكنك. أنت الأخـرى، لا تريـدين أن تفهمي هذا. لقد قررت اليوم أن أواجه كل من يقف في وجهـي. والذي يقف في وجهي، الآن. هو أنت. قررت ذلك باعتبـار أن المواجهة أفضل طريقة للهرب. ترى، ماذا يعني ذلـك بالنسـبة لك؟ كنت تتعجبين، دائما:"لماذا لا تقول شيئًا جديـدا؟" وكيـف تريدينني أن أقوله، وأنا لم أقل بعد كل ما عندي؟ الجديد يحتـاج إلى فضاء يسكن فيه. إلى كينونة يتفاعل معها. وإلى كائن قادر

على إخراجه إلى النور. وكيف يستطيع الكائن إخراج ما عنـده إلى النور، إن كان هو نفسه لم ير النور، بعد؟ صرت أعـرف الآن أن ما أفتقده هو التصور المتماسك" للعـالم" مـن جهـة، ولدوري فيه من جهة أخرى. وهذا "الفقد" هـو الـذي يعطـي لحياتي صفة الحياة الانتهازية، ولأفعالي صفة الأفعال " التي بلا معنى ". مأساتي، كما ترين (بالأخص معك، أنت) هـي مأسـاة كائن " يبحث عن معناه" وتعلقي بك ليس أكثر من تعلق بحبـل المشنقة المميت. بلى. عندما نبدأ انزلاقنا نحو الهاوية، نصـير نتمسك بكل ما تطوله أيدينا. نتمسك حتى بتاريخنا السخيف علنا نحد من تسارع السقوط. لكن للسقوط قوانينه الخاصة به، أيضا. وهو ما لم يكن يخطر لي على بال. ولم أكن. لبلاهتي، أعـرف أن الحياة هي وحدها مصدر ذلك، كله: مصدر الحقـد والحقـد المضاد. لا، لم أكن أعرف ذلك قبل أن أقع في مستنقع أخطائي الفاحشة التي لا تمتلك حتى معنى الأخطاء الحقيقية ومغزاهـا. أخطاء فارغة من المعنى؟ بلى إلا لم لازلت أصر على أن أكون "صادقا، مخلصا، وأمينا"؟ كيف تعذبني إلى هذا الحد " قيم" بمثل هذه السخافة والابتذال؟ لمن يتوجب على هـذا؟ ولـم؟ التفـت، خلسة، إلى الخلف استدرجها إلى الكلام الذي لم يغادرها منذ أول الليل. وفي الحضيض تركت الأضواء النابعة من الأرض تسير

على الماء، أضواء باريس التي أصبحت، هي الأخـرى، بـلا معنى. ولم أر شيئا غير الأنين المنبعث من بقايا الجسد المتهالك. الجسد الذي يستمر، بإصرار لا مثيل له، في مجابهـة الحيـاة. عجبا، أي سحر يجعلنا نتشبث مثل الديدان العلقة بمن لا يستحق حتى إن ننظر إليه، بله إن نتمسك به؟ ولم نفتقد الشجاعة عندما تكون ضرورية؟ العالم كله (أقصد، كلنا) بحاجة إلى "شيء ما". وثمة ألف وسيلة لإشباع الحاجة. وإحداها الخضوع. ماذا أنتظر إذن؟ كنت أشم رائحة الانهيار تقترب مني وكنـت أرى سـعف النخل العاقر يتهادى في الفضاء المكشـوف. فضـاء الجزيـرة المملوء بإبر الشوك والخذلان. كان يقود الظعن وهـو يمشـي حانيا ظهره ومنكبيه. يسحل بتؤدة أقدامه الحافية مثـل أخفـاف الإبل المتعبة. وأركض، كالسهم، حتى أصيبه. أجره من الشليل. أتفه. أريده أن يستدير. ولا يفعل. بيدي، كلتيهما، أحضن التراب الناعم. أحضنه وأذريه. ويجيء الشرر الناعم حتى لحيته الكثة، ولا يريم. فرسه الدهماء تطل تمشي لصقة، وكأنها قطعت على نفسها عهدا ألا تخليه. بم كان يفكر ذلك الرجل المهيـب كآبـة، والذي كان أبي؟ كنا قد نجونا للتو من المختار وأنحائه. أين كنا نولي الأدبار؟ لا أحد يعرف (حتى الآن). كنا بحاجة إلى كـل شيء: إلى الماء والأكل والراحة والأمان. ولم يكن ثمة شيء في

بر الجزيرة الشامل آنذاك.الرجل يمشي. الظعن يمشـي. الأولاد تمشي. النساء تمشي. الحيوانات تمشي كل شيء كان يمشي إلا أنا، أنا الذي امتطيت. مثل فرخ القرد المدرب، ظهـره العـالي الكبير وفجأة، نرى العجاج بعيدا. العجاج يقترب. يصير لصـقنا يعمينا. عجاجنا يختلط بعجاجهم. وباختلاط العجـاجين. يخـتلط الرجال، من جديد. وأجدني، مقذوفًا على الأرض، أبكي. التراب وحده يلتم فوقي.

الرجل الهائل، الذي كان أبي، يركض. من بين الأقدام المتغالبة أميز، قدميه. أعرف التراب المتطـاير بفعلهمـا. ومـع العـج المنقذف، خلفًا أسمع الصوت: " يريدون أن يذبحونا". ومثل جمع الأفاعي الذي هوجم، بغتة، يلتف الرجال، بعضهم على بعـض. يتكاتفون، يتحامون. وتبدأ الطواحين دورانها. ولا أسمع بعد ذلك إلا همهمة التوتر والاستياء: "كيف سـلطهم الله علينـا؟"وكمـن أصابه مس أحفز من مثواي. ألتقط حجرا. أنطلق كالرصـاص نحوه. أريد رأسه الكبير. رأس الرجل الذي ترجل علـى أبـي. وبحقدي، كله، أقذفه بالحجر. أقذفه وأصيبه.. أصيب أبي. أبـي الذي انطرح بطوله على القاع.

وأرى الرجل المسعور ينهش. ينهش كالوحش أحشاءه وزواياه. وأحسه يتمتع بطعم لحمه ودمه الذي صار يسيل. وكأنها سمعت كل ماقلته (وما لم أقله، بعد) هجمت من سكونها علي:

- كل مواهبك (إن وجدت) تتضاءل أمام موهبة " النبش" لـديك أنت نباش قبور فعلا. الناس تحفر ولتردم وأنت تنـبش لتفـوح الروائح. روائح الماضي العفنة. تحيا وكأنـه لا هـم لـديك إلا استحضار الماضي. استحضاره لا لنقده وتجاوزه (وهو أقل مـا يتوجب عليك) ولكن "للتمتع" بما فعلت (وحتى بمـا كـان مـن الممكن لك أن تفعله وهما). لكأن الحيـاة تمشـي عنـدك إلـى الوراء. وبدلا من أن ترفع رأسك لتستنشق ريحا جديـدة، أراك تدفن نفسك،أكثر فأكثر، في مزابل ماضيك السخيف.

لا أرد. أتبع الرجل الآكل اللحم، أشوفه. أريد أن أفعـل شـيئا. وقبل أن أصل النقطة المرادة يصلني الصوت.

-ما يذهلني عندك، هو أنك تتكلم عن الماضي وكأنك تتكلم عن "الحلم المنشود". فردوسك المفقود هو، في الحقيقة ماضيك. ولم

أسمع منك ذما له، أبدا، وإن كنت أحيانا" تتملقني" بسبه سبا يثير الرثاء أكثر ما يثير الاستياء.

وأكاد أسمع أبي يناديني أسمعه ولا أرد. ألحـق الرجـل الـذي خطف قطعه منه وراح. أريد أن أستعيد ما خطـف منـه. أرده إليه. أرده ليراه بعينيه. كان الرجل الهامة يركض كالذئب الهائج نحو فرسه. وكانت الفرس تحوص في مكانها وكأنهـا تتلـوع. فرس لو تركت وشأنها لركبت، هي، الريح.
الرجل الهامة لم يعد يعبأ بمن حوله. يهرول وهو يهذي:

"قتلت أكبرهم وهذي أحشاؤه بيدي" ودون أن أخطط لمـا أفعـل (ولما لا أفعل) ختلت في الشعيب. وفهمت الفرس قصدي. فرس دهماء، كأنها فرس أبي، تماما، لوح الرجل الهرش عليها لـوح وضربها محتقرا، بعقبيه.
ورأيت دموع الدهماء تخر مثل نقط الدم. وبلا تردد جاءت بـه إلي. ومن مكمني الواطئ، أقب. ومثـل الـنمس أنـط. أنـط، صارخًا: واع. وتصرخ الفرس معي وهي تعفص. تعفص،وهي تطير على أربع. وكأنه لم يمتطيها قط، كانت تحمحم فوقه، وهو تحتها بلا حراك.

وسمعتك تقولين، شبه هازئة: " حكيت لي ذلك عشرات المرات، وكل مرة تختلف الحكاية، فيها، عن الأخرى. أكاد أشـك بمـا تحكيه " أنا أشك فعلا". ومن يلومك؟ تساءلت مسـتاء الإنسـان يتدرب على كل شيء حتى على قول الحقيقة. ألا تعرفين، ذلك؟ ورأيت ابتسامتك اللئيمة تكاد تجرحني، وأنت تقولين: " وأنت لا تتدرب إلا على العناد، عنادك لإغراق ذاتك بالتفاهات "ولأن ذلك لم يكن واضح الدلالة (كما تصورت)، أضفت رأسا:" كأنك لـم تتعلم في حياتك إلا استبدال الغلطة بأخرى، أشنع منها" لم أقـل شيئا. كنت تتكلمين وكأنك خرجت، توا. من " نفسي".

لا، لم يكن لديك أية شبهة في أقوالك. وكنت أظن (كما كنا نردد معا) "أن كل شيء قابل للقلب". كدت أذكرك بما كنـت أقـول، وبما كنت تقولين. ولم أفعل. لقد بدا لي أن كل شيء سيكون بلا معنى، في فضاء التوتر العنيف، والانحياز اللا محدود للـذات. ووجدتني (من جديد) أسـتعيد كـل شـيء وحـدي. أسـتعيده مضطرب الجنان:"دور الشك هو أن يوصلنا إلى اليقـين" قلـت منبسطًا. ولم يوصلني ذلك إلا إلى ضحكتك الهازئة، وتصحيحك السليم: " لا، يا غبي، دور الشك هو أن يخلصـنا مـن اليقـين" فرحت، وأنا أضمك، ضاحكًا، يومها: " من أين لك هذا؟" كانـت

يدي تستقر، فعلا، عليه. وأحسسـت بانتباجـه العـاجي تحـت أصابعي التي التهبت وكأنك رأيت أفعى تسعى قربك، صـرت تتململين وأنت ترمين، متدللة، بثقلـك اللطيـف، كلـه، علـي. وتبدلت، بشكل عفوي، انحناءه يدي، لتسمح له بالاستقرار الكامل عليها. وهذه المرة، أحسست ببرزخين ممتلئـين مـن جمـر. برزخان يتنافسان للفوز براحة كفي، كلها. لحظة محت كل مـا قبلها من اللحظات. أكاد أستخاص الآن، وأنا أستعيد بعض ذلك الماضي، أن العاطفة مصفاة النفس، تنقي شوائبها وتصفيها وأن " العقل النفعي " البائس، الذي لم نعد نعرف كيف نعيش دونـه، هو مصدر "كل الشرور": الشر الظاهر والشـر البـاطن، ومـا بينهما من شر. وكأنك أردت أن تقطعي الوصل، نهائيا، بيننـا، قلت مشمئزة، من جديد:

-الماضي، هو الآخر، كالمستقبل، لا متجانسا ولا معصوما عن الهفوات. وهو مهما كان شأنه وعزته على النفس لا يستحق هذه البكائية المتجددة، وهذا الاعتصام المرضي" بمآثره" التي غـدت ذكريات.

التفت، أنظر إليك. كنت أريد أن أرى التعبير المخيف وهو يتولد على قسماتك. أريد أن أمسك بك وأنت في حالة الروع. ولم أر إلا الظلام الكئيب: ظلام غرفة بـاريس المعلقـة فـي السـماء وصرت أنتحب، وأنا أدق الأرضية بقدمي، متسائلا بامتعـاض: "لماذا أنا هنا، وهنا بالذات؟" وكأنك لم تسمعي ما قلت، تابعـت" حديث الماضي"، موبخة، باحتقار:

-الحياة أمام، لا خلف. وإن كانت عجلات الماضي لازالت تدور فما ذلك إلا لتدفعنا، بقوة أكبر، إلى الأمام. لكنك لا تستخدمها إلا للتقهقر. متى تخرج من مصيدة التاريخ الرهيبة، هذه؟

العالم ليس هو" ذاتي"، وحدها، لكنه، بالتأكيد، ليس شيئًا آخـر، كذلك. ماذا أفعل الآن. وقد كادت الأمور تتبلبل؟ تتبلبل بشـكل نهائي، لا يقبل الانعكاس وجدتني أتساءل، بمرارة. "أين تكمـن بذور ذلك، كله، ومن حقننا بجرثومة الفشل والإحباط"؟ أضـفت وأنا أتطلع حولي مرعوبا.

صرت أحوص في مكاني. أريد أن أثقب الجدار الأصم وأخرج عاريا في الريح. فكرة تراودني منذ أكثر من عشرين عامـا،ولم

أتمكن حتى من مقاربتها. كنت أحس كأننا أجبرنا على الركوب في قطار لا يلائمنا، ولم نعد نستطيع تغييره. اقتربت، فعلا، من الجدار لأفكه، حين قالت هازئة(وهي تستعيد ما قلته، للتو):

-ليس أسهل من الأسئلة إلا توليد الأسئلة منها. المهم هو توليـد الأسئلة من الحياة. إلا أنك عاجز عن هذا. فمازلـت تعتبـر أن الإنسان يمكن أن يكون في "وضع قوي" لاعتبارات شتى. ولـم تفهم، بعد، أن " الوضع القوي" قوي بعوامله الداخلية.

وكأنها تلقت أمرا سريا،سكتت، فجأة، واستدارت إلى الجدار من جديد. صرت أخاف، فعلا، أخـاف، لا، لأنهـا كانـت تمـس جروحي الخفية، أحيانا كثيرة، ولكن لأنني غالبا ما كنت أمسـك بنفسي متلبسة برضاء خفي، من أجل لا شيء. بلى، من أجـل تحقيق بعض ما يرضيها. لكأنني صرت أقنع بمسـرات الحيـاة الصغرى بعد تحطم مشاريعي الكبرى.

لم يزعجني، أبدا، سكوتها هذا. لو حصل ذلك من قبل، لصرت أتملقها، طالبا عودة الكلام. كنت في طور أقبل فيه. آنذاك، كـل ما تقول. كنت أحبها تحكي. لا، لأنها " تفهم" ما تحكيه، فحسب، بل لأنني، أنا الآخر، كنت أفهمه، أيضا. الآن، تبدل كل شـيء. صار الضياء الذي تلقيه كلماتها مجرد ظلام. الفهم هو الآخـر، قبول. إنه علاقة عاطفية قبل كل شيء. نحن لا نفهم ما يقول من لا نحب. كنت في مرحلة التوهم والانتشار. وكانت الأمور فـي بدايتها الهشة. كان كل شيء قابلا لكل شيء. كلام. كهذا، يبـدو الآن خاليا من المعنى (وهو كذلك، فعلا) لكن المعنى ليس كـل شيء في الحياة. كنت، آنذاك، في مرحلـة "جميـع التواقيـع": مرحلة (لا تضف إلى أعدائك أعداء جدد).وكنـت بفعـل هـذا المفهوم التنازلي السخيف، أحول" مزاياهم الصغيرة" إلى فضائل كبيرة يومها، كان الإغراء في متناول اليد. وكـان كـل شـيء يوحي بأنه قابل للتجاوز والامتلاك. وأنه يكفي لتحقيق ذلك، أن نمتلك الرغبة في تحقيقه. وكأنها لم تترك فضائي. أبدا، صـرت أسمع من جديد ضحكتها الهادرة القديمة. ورأيتها فعلا (كـأنني

أراها، الآن) تحط إصعبها في بطني، وتعكسني، بانفعـال: " لا، يا غبي (قالت وهي تضع نفسها في عيني) ضف دائمـا، إلـى أعدائك أعداء جدد، هكذا فقط لن يبقـى معـك إلا أصـدقاؤك الحقيقيون الذين هم حلفاؤك، حلفاء النزعة والمناخ.

هدوء مفاجئ يحل في الجسد وفي الروح. أحسها تنام بلى، أرى نومها الذي جاء متأخرا بعيني. أكاد أمسك به. هاهي ذي تلتـف حول نفسها مثل الحية التي تعبت من الزحف على الرمل. رمل بارد بلا حدود. أستدير من جديد إلى النهر، أرى صفحة المـاء الساكنة في الحضيض. من علقني في هذا المعلق الرهيب؟ وكأن عدوى النوم أصابتني، وجدتني أتكئ على حافة النافـذة (التـي سأسقط، فيما بعد، منها) وأحاول تسليم نفسي لسلطان النوم. ولا تقبل.

الماضي صار بعيدا. وصار بإمكاني، الآن وأنا أتأمله بهـدوء. بهدوء وشغف. أريده.ولا أريده كما أراه الآن ولا أريـده كمـا كان. من منا تبدل؟ من منا يجب أن يتبدل؟ الماضي. الماضـي القريب والبعيد. كل شيء. كل حياتي. ذلك، كلـه، أسـتطيع أن أجمعه الآن وأحطه على القاع قدامي. صرت أعرف كل شـيء فيه: حدوده. أبعاده. خصائصه. نقائصه. لكم تبدو مضحكة تلك الحياة. تلك الحياة التي كنت أخشاها. أخشـى لحظاتهـا لحظـة لحظة. كيف كنت أخشى الحياة إلى هذا الحد؟ أخشاها خشـية لا حدود لها ولا مبررات. وهل يبرر الخـوف إلا بـالخوف؟ الآن يبدو ذلك كله مضحكًا، مضحكًا إلى حد البكاء. حتـى الحـب، الحب المقدس نفسه كان مصـدرا للخـوف. الحـب بمعانيـه واشتقاقاته كلها: حب الوطن، وحب الأم وحب المـال. وحـب الحبيب. الحب، بالمعنى المطلق والحصري، كان يثيـر النقمـة على الذات وعلى الآخر. لماذا؟ لأنه كان مصدر انشقاق. انشقاق ذي بعد مأساوي: "كيف يمكن للخائف أن يحب إلا على حسـاب حبه لنفسه؟ " ونتيجة ذلك في النهاية هي الكره. كـره المحـب

لمحبوبه، وانحيازه، أخيرا إلى أقرب الناس إليه: إلى ذاته. (ذاته التي فرغت من طاقة حبها: الذات الخاوية. كدت أقـول الـذات الخائفة) ذلك كله بعد أن كان يخيفني، لم يعد يغرينـي صـرت كالراكب على حصانين يتباعدان، بعنف: لا يصل إلى غايتـه، ولا يتمتع بالركوب. ما يذهلني، الآن هو الشغف الأرعن الـذي يسكنني. شغف يجعل كل شيء شفافًا، شفافًا إلى حد التلاشـي. الآن صرت أفضل من المنافس. العدو الذي تفصلني عنه عداوة حقيقية، على المنافس الذي تجمعني به "صداقة" كاذبة صداقة لا يستخدمها إلا لتحويل " عيوبي الصغيرة" إلى نقائص لا تغتفر.

اكتشفت اللعبة متأخرا؟ بلى. ولكن ثمة دائمـا مجـالا لتعميـق اكتشافاتنا. (اكتشافاتنا التي تبدو، غالبا مضحكة وشديدة البساطة بالنسبة لمن هم غيرنا). تغيرنا؟ وما المؤسف في ذلك؟ المؤسف ألا نظل معا؟ لا. المؤسف، فعلا، هو ألا يدفعنا ذلك التغير إلـى أن نغير بعضنا بعضا. لكنني أعرفها. أعرف السم الذي يجري في عروقها، أعرف كل شيء فيها. كانت تريد أن تتغيـر هـي وأن أبقي، أنا كما كنت، وهو ما يبرر قولها المتكرر: "تغيرنـا وصرنا بحاجة إلى أناس جدد". ومن قال لك العكس؟ كنت أردد "تلك المقولة". التغير لا يأتي بقرار. (بقرار يصاغ لفظًا) وهـو لا يحاور من يعيقه، بل يتخطاه. وغايته ليست الاتصال بأنـاس

جدد (قد لا يكونون أكثر من زينة أخرى فـي إطـار المشـهد القديم) بل الوصول إلى حياة جديدة (حياة لا تقوم على تقطيـع العلاقات وإنما على القطيعة: على قلب المنظور، كله) كانت لا تزال تنام. وكان المجال لا يزال مفتوحا أمامي لإعـادة النظـر بكل شيء. بكل شيء، بما فيه، جذعها المتهالك، قبل أن أسـقط من عل في الموت.

(٢٦)

في الطريق إلى (أبو رمانة)،ظلت صامتة. صامتة مثل الموت. كنت أرى في نهار الصيف المثير ذاك كل شيء فيهـا: لهفتهـا الكتوم، وتوترها اللاهب وانشغالها. لم أقل شيئا. لم أكن بحاجـة إلى كلام. كنت بحاجة إلى حركة (كنت أفكر: كلام بلا معنـى، لا معنى لقوله). كان جو الحرب يختلط " بجو الحـب". كانـت "مقولة الحب الخفي" (من أين تعلمتها؟) تملأ كياني. لم أكن أريد أن يشاركني أحد مشاعر حبي، حتى "موضوع الحب" نفسه.

كان الشام غارقا في الشمس. والشمس تثير كل شـيء، تجعلـه أسود، معتقا ومملوء نبضا. وفجأة تلتصق بي. تحضن بكيانهـا زندي. زندي الذي غدا جزءا منها بعد أن كان جزءا مني. ولكي أقربها أكثر ثم أكثر: أقرب وجهها من وجهي، وأشـيائها مـن أشيائي، كان يكفي أن أرفع زندي. أحسستها تعلو. تعلو كريشـة في جناح تلحق به وهو يطير.

- أريد أن.....

انفجر القول في رأسي، وكأنه قنبلة من قنابل الحرب.

- متى؟ وإلى أين؟

لم أكن أتوجه بالسؤال إليها ولكن إلى نفسي. كنـت أعتقـد أن للجسد فضاء خاص به، وللكلام " الحقيقي" كذلك وأن اختـراق ذلك الفضاء " المحكم السد"، لا يمكن أن يتحقق دون ثغرة فـي بنيته الداخلية. شعور محبط، شعور كان يملأ نفسي وأنا أستمع، مبهوتًا، إليها: شعور العاجز عن اختراق " بنية " لم يكتشف بعد ثغراتها. وقد أقول: شعور اللص الذي تعود أن يسـطو علـى ممتلكات الآخرين. وقد وجد " ما ملكه" بشق الـنفس، يريـد أن يطير (ببساطة) من بين يديه ودون أن يسرقه أحد آخر، حتى.

- لا.

ولم يستمع أحد إلي، حتى ولا أنا. أزيز الطائرات التي اخترقت، فجأة جدار الصوت فوق (دمشق) ابتلع كـل شـيء ووجـدتني أحميها بجذعي الذي غطاها من الذيل إلى الذيل. لا، لـم أكـن خائفا عليها. كنت أريد أن أحميها حتى أستطيع فـك الحصـار، حصارها عن نفسي، أتطلع، بارتباك حولي وأبحث عن المنفـذ الخبيء. شوارع (المهاجرين)، كلها خالية لا أحد غيرنا. جسدان مضطربان يتحركان بلا انقطـاع. يتحركـان تحـت أشـجار الياسمين، وأزهارها البيض الناصعة ومن حين لآخـر بعـض أشجار الزيزفون بأزهار صفر فاقعة.

هنا. لا، هنا. لا. هناك، في المختل الجميـل. بـين الشـجرتين هاتين. تعالي. لا. بلى، تعالي. أتملاها. أبحث عن موقع الغضب فيها ولا أحد. أحيط بأركانها. أريد أن أقع على النحو الذي منـه تنطلق العصارات. لا، لم تكن تنظر إلى السماء لتبحـث عـن الخطوط التي خلفتها الطائرات، فوقنا. ولم تسد أسماعها حـين اخترق جدار الصوت. أيضا. كانت هفهفة ثوبها الحرير تتطاير مثل خشخشة عصافير تمشي فوق ساحة مملوءة بالحـب. فـي الحقيقة، لم أكن أبحث عن أي من هذه العلامات السخيفة، كنـت أريد أن أدرك سبب "الانفصال" لا، الانفصال الظاهري، فحسب، بل الانفصال العميق بينها وبين المحيط. لماذا لا تهمها الطائرات ولا غاراتها؟ الشوارع الخالية لماذا لا تثير أسئلة لديها؟ الحرب كلها الحرب بحربها لماذا لا تبعث أي توتر في ملامحها؟ لا، لم أكن أبحث عن سبب "الانفصال"، بل عن أعراض " اللامبـالاة" لديها لكنها ليست لامبالاة نفعية، بل هي (كما بدا لـي) موقـف فلسفي من الحياة وحواشيها. إلا أنها لم تكن توحي إطلاقا، بـأي شيء يمكن أن يدفع من يعرفها إلى مثـل هـذه الاسـتنتاجات "الغريبة" عنها. ماذا أفعل، وقد أصـبحت، الآن، فـي متنـاول الحشى؟ وقد احتلت كياني كله؟ كنت عاجزا في حقيقة الأمـر،

عن حل معضلة صغيرة كهذه. لماذا كنت عاجزا إلى هذا الحد؟ كنت أقابل بين "انفصالها" العلني الواضح. الانفصال الذي تخطى مفهوم " التأثيم" والذي يوحي، بقوة، أنه لا يعرف " وربمـا لـم يعرف وأبدا " تأنيب الذات، كنت أقابل بينه وبين "حالة الـدمج" التي كانت تفعم ذاتي، كلها. لم أكن أتصورني، بعد، منفصلا عن الشوارع، عن الماء والأحجار والناس الذين يحيطون بي. كنت أعيش حالة دمج "عفوي". أريد أن أقول "دمـج حلـولي كامـل وغير واع، على الإطلاق". جمع غير مفكـر فيـه. مـا أثـار فضولي، في هذا التقابل، هو مبدأ "الكف عن الفعل" عندي. كنت أكتفي، في الواقع بإحساسي هذا، لكأن الإحسـاس يغنـي عـن المبادرة. كنا نقف متواجهين. ولأول مرة. رأيت جسدها المكتنز الصغير يكاد يطير، وأحسستني أمد يده إليه ولا أجد أثرا. بعنف غير مسحوب دفعتها (وكنت أظن أني دفعتها قليلا). ورفضتني: لا. ليس بهذا الشكل. ولا في هذا المكان. وتساءلت (بنوع مـن اللامبالاة): عندك شروط؟ (كنت أحسب أن الجسد الذي قيد مرة إلى الفراش سيقاد كل مـرة نرغـب فيـه). وأجـابتني بحـدة ووضوح: عندي شروط كثيرة، بالتأكيد عندي شروط. تتعجب؟ وكأن الموقف لم يكن يقتضي مني إلا أن أحرك لساني، قلـت: أما أنا فلـيس عنـدي شـروط وأبـدا. (وأضـفت متبجحـا)

ولا محظورات، أيضا. كل ما تصل إليه يدي قابل للاخـتلاس. (ووجدتني أمتلئ سعادة بالفكرة الأخيرة التي غلبت على لساني) وأكدت رغبتي، من جديد: بلى، هنا. وهنا بالذات. لصـق هـذا الجدار. وتحت شجرة الياسمين.هذه، وبدأت الأمور تختلط، لـم أعد أرى إلا الجدار الذي غدا عاليا جدا، كأنه كان يصعد قصدا إلى السماء وجذع الشجرة الخضراء ذات الأزهار التي غـدت، فجأة غريبة الشكل والرائحة. أزهـار تلوثـت بعطـر أحمـر، وكساها، كلها، سائل مريب. وأنت، وأنا الذي لم أعد أقف علـى الأرض. كنت تحدقين في وجهي بنوع من القرف والخوف. ولم أكن أريد معاودتك. أتذكر، الآن كنت تحدقين مرعوبة في وجهي الذي كساه عرق أسمر وكبير، وأنت ترتعدين: أنـت مجنـون، بلا شك. أنا مجنون؟ ضحكت هازئًا. ولم تضحكي بعنف، مددت يدك إلى الغصن الطري المقاوم. وقصفته قصفا. وصار دمـك يسيل. وكأن عقربا لسعتك وصرت تمصين دمك مصا. مصـا. تمصينه وأنت تنظرين، بلا مبالاة إلى النسغ الذي كـان أيضـا يسيل.

ظلت الأشجار واقفة وبدأنا نسير. نسير من شجرة إلى أخـرى. كنا نبتعد. يبتعد أحدنا عن الآخر؟ ومن جديد، جاء صوتك. كنت تريدين أن تقولي شيئا وسألتك: أتريدين حقا: وهززت رأسك ولم يتح لي أن أرى حركة الرأس المدور. كنت أهـزك: انظـري. انظري. كان الجسد المعدني يحوم فوقنا. وفوقنا تمامـا، أطلـق حزمة الصوت الرهيبة، وغاب. وبدأت الناس تـركض. كـانوا يركضون مثل جمع الأرانب الحائضة. ولكـي ألفـت انتباهـك صرت أقهقه. وتساءلت بدهشة: لماذا؟ قلت: انظـري. حركـة الناس الراكضين من الخوف، حركة بلهاء. لا توجـه لهـا. ولا قاعدة، ولا هدف. تكاد تكون مجرد حركة. حركة عشوائية. وما الغريب في الأمر؟ قلت، وأنت تسترين فخـدك الـذي لامسـه الضوء، فجأة.

لم أكن ألم، بعد، بسر تلك الحركة وقوتها. قـوة الحيـاة التـي تواجه، في وضح النهار، نهايتها المحتملة. كنت بحاجـة كمـا أدرك الآن، إلى فهم كثير من الحركات. (الحركات التي كانـت تبدو لي بلا معنى، والتي سأظل أكررها زمنًا طويلًا) كنا نقترب

بهدوء من (الروضة)، المكان الذي سأتركك فيه. والذي ومنـه سأعود أدراجي ماشيا حتى أطراف حي (المزة) الملقوح بعيـدا. عالمان التقيا، برهة، وافترقا. لكأن أحدنا لم يكـن قـد عـرف الآخر، أبدا. وما أن بدأت تصعدين الـدرج المرمـري، هـازة ردفيك الصقيلين، حتى لبست وجهي الحقيقي، بعـد أن خلعـت القناع اليومي عنه وكأنني التقيت بنفسي، بعـد طـول غيـاب، صرت أتنفس ضاحكًا بصوت عال، يسمع من بعيد، لأول مـرة أحسست أن للهواء طعما آخر. طعمـا يشـبه طعـم " قرنفـل" الجزيرة القديم. ملأت رئتي منه. وكأنني أريد أن أغسلهما مـن الهواء الآسن الذي كنت أعبه، معك قبل قليل.

ولجت الباب دون أن تستديري. دون أن تلقي علي نظرة الوداع. كنت أتوقع كثيرا من "الحركات" منك. كنت أحسب أن اخـتلاط المفرزات يعادل اختلاط النفوس، ولم يكن الأمر كذلك أبدا مـن قبل، لم أكن آخذ المسألة مأخذ الجد. الآن صـرت أخشـى أن أكون فعلا غبيا كما تدعين. ورحت أستعيد كل شيء مر بي، بدأ الأمر يقلقني، حقا. لماذا يكون الغباء مفروضا علي، والذكاء من حصة الآخرين؟ ورأيتك تتلوين ضاحكة وأنـت تسـدين فمـك بيديك: يا إلهي، ما أغباك. وأحسست بي أحيط بك من الطـرف

إلى الطرف. أريدك أن تعرفي أنني هنا. أنني أدخـل وأخـرج. وأنني كل شيء. وكأنك عرفت ما كنت أريده منـك، تسـاءلت مستاءة، وأنت تطردين عيني عن عينيك: ماذا تريد مني أكثـر من ذلك؟ وكأنني لم أكن أنتظر إلا سؤالك السخيف، هذا، قلـت، فورا: أريدك أن تجيبيني وبدأت ضحكتك ترن في آفاق دمشـق الصامتة:" اللهم هذا قسمي فيما أملك، فـلا تحاسـبني فيمـا لا أملك".

لم أكن أبحث في الحقيقة عن الحب. لا عن حبك ولا عن حـب أحد آخر- ما كنت أبحث عنه هو التعلق المستمر. ولكن لـيس التعلق المجاني، ولا بأي كان. كنت أصطاد طرائدي، ومن بعد تصطادني هي.
تلك، لم تكن "وسيلة عيش" عندي، بل "طريقة حياة".وهـو مـا أوقعنا في سوء تفاهم مستمر. لم أكن أقبل أن أستقل عـن أحـد أوقعه في شباكي، ولا أن يستقل هو عني، حتى عنـدما تكـون "العلاقة" عابرة وسطحية. مسألة "الحيز الذاتي" كانـت تعـادل عندي الخيانة. أتكون العشرة الطويلة لواقع شديد العسـر، هـو مصدر ذلك " التمسح" الكاذب بأعتاب الآخـرين ؟ ولـم كنـت أرضى أن أنفرغ كالدلو دفعة واحدة بين يـدي مـن لا يهمـه

لا امتلائي ولا انفراغي؟ كنت، وأنا أختل خلف شجرة الحـور المواجهة لدرجك المرمي الذي تصعدينه كل مساء تحت مراقبتي السرية، أريد أن أفهم ذلك كله ولكن كيف الوصول إلى فهم سليم وبأية الوسيلة؟ كدت أتساءل إلا أن الليل الدمشقي الـذي حـط بهدوء، ولكن على عجل، آنذاك، غيـر سـريعا كـل شـيء: العواطف والاتجاهات ومسار النظر الذي أخذ يضيع في الدماس والأسئلة التي كانت تظل مساء بعد مساء بلا جواب. بلا جواب شاف. لم أكن أدرك بعد، أن الكائن(مهما كان اسمه) بحر. بحر له أمواجه، شواطئه، وإعصاراته. بحر مليء، مليء بكل شـيء بما فيه أنا نفسي (أنا الذي كنت أتصورني غير موجـود عنـد غيري)، وهو ما كان يحقق لي نوعا واهمـا مـن الاطمئنـان: الاطمئنان إلى أنني سأجد نفسي حالما أبحث عنها وأنه سـيكون بمقدوري أن أنتزعها ممن أستولي عليها (ولو بالحـب) كنـت جاهلا وأحمق وكنت ،لابد، تعرفين ذلك، وإلا لماذا كنت تفتحين نفسك أمامي وكأنك تفتحينها امام كائن لا يبصر؟ وتتكلمين بـلا حرج قدامي وكأنك تتكلمين في حضرة كـائن أعجـم. والثقـة العمياء بالنفس (كما تعرفين الآن، وأعرف) لا تولد من وسـعة العلم بل من ضآلة المعرفة.

وإذن، لن أكون الوحيد الذي سيموت "بـداء الاعتـداد الكـاذب بالذات" كثيرون، غيري، سيقتلهم الداء الفتاك، هذا، وأولهم أنت. لكن الشوارع، شوارع دمشق الجميلة لم تكن آنذاك تظهر الـداء اللعين للعين. للعين " الغشيمة" مثل عيني.

في الحالات المعقدة تلك التي تأخذ، لشدة تعقيدها، شكل الحالات الشديدة البساطة تصبح " التفاصيل التافهة" هـي المهمـة. كنـا نتلاقى، في الحقيقة وسط حقل من الألغام، ظنناه، (لفرط براءتنا) حقلا من الورود، ذلك المساء، كنت وحيدا. لم أكـن مضـطرا، إذن لتزييف نفسي أمام أحد آخر. أحد أريد استيعابه، أو أريـده ألا يكتشف عيوبي (وكأن العيوب التي كنت أتحلى بهـا كانـت عيوبا حقيقية وتخصني أنا وحدي) لا، لم أكن أعرف، بعد أنني سأزيفها حتى ولو كنت وحيدا مع ذلك سأحكي لك ما خطر لي، آنذاك كنت أقسم العالم قسمين: أنا وحدي قسم، وما بقـي، كلـه قسم آخر (بما فيه أنت). وكنت أجدني مختلفا عنكم، وأنتم، كلكم متشابهون. عالمان لا يختلفان اختلافات سطحية فحسـب، بـل يختلفان اختلافات أساسية في التفكير والتعبير والعاطفة. وهو ما كان " يمنحني" حق التلاعب بالكلام (كنت أظنه امتيازا). ولهـذا السبب، ربما كنت أقف منك موقفا حاسما وعدائيا (حتى وأنـت في) لأنني كنت أعتقد أنني هكذا أصيب الآخرين أيضا. وكثيرا ما كنت أردد، حالما تديرين ظهرك لي "هؤلاء، كلهم متشابهون.

وما ينطبق على أحدهم ينطبق على الآخرين، جميعـا". وكنـت أهدئ نفسي، أحيانا "لكن ذلك تعميم. وكل تعميم خاطئ" وكنـت أضيف بسرعة، متباهيا: إلا هذا التعميم، نفسه (أي التعميمـين، كنت أقصد؟ تعميم ثبت الشبهة وما تجـره علـيكم أم تخطـئ التعميم، بإطلاق؟) كنا نلتقي ونفترق، ونفترق، غالبا لئلا نلتقـي من جديد. كان خبث النية الذي كنت أتمتع به يحقنني بنوع مـن التواطؤ العجيب مع ذاتي. كنت أتصرف وكأنني فـي صـراع خفي مع المحيط، لا، كأني أحيا فيه. لم أكن قد أدركت، بعد، أن معنى تصرف ما (مهما صغر شأنه) هو معنى الحياة، نفسـها، وأن علي أن أوجه تصرفاتي مهما كانـت صـغيرة، وضـئيلة الشأن. كنت، على العكس من ذلك، غالبا ما أحفز تاركًا مجلسي متباهيا بلا ندم: "لماذا نتراجع إذا كان بإمكاننا أن نتقـدم أكثـر "وكنت تنهرينني: لا تكن سيئا إلى هذا الحد" وكنت أجيبك (وأنا أضعك في خانة الآخرين وفي مستواهم، نازعا من قلبي هبـاب العاطفة العابرة): "لا توجد حدود بين الأسوأ والأفضـل. ومـا شاكلهما من صفات لا معنى لها، الحدود الحقيقة هي التي تفصل النجاح عن الفشل. عيوبي الخفية تلك كانت تقابلها عيوبك (أكاد أقول عيوبكم) العلنية.

وأحلامي كانت تتحطم على صخور أفعالكم. لم يكن بإمكانك أن تدركي قوة الحقد الذي كان يملأ نفسي. القوة التي كنت تحسبينها حبا لا يقاوم. وهو ما أوقعك في مصيدة "العاطفـة المقلوبـة". ولكن ما الذي يعنيك في نهاية الأمر، من هذا كلـه، إن كانـت نتيجته " متعة جسدية أقوى " وارتباط "مصيري" لن يفك (قبـل أن يعرف أحدنا ما يخطط له الآخر)؟ وهـو أمـر غالبـا مـا ستطويه، في طياتها أمور أخرى إلا أنني كنت مصمما مع ذلك على الاحتفاظ بجذوة حقدي مشتعلة حتى الموت، إن مـا بيننـا ثأرا: ثأر المقموع من القامع.

لا. كل ما قلته، في الحقيقة، لم أكن قد فكرت به، من قبل. لـم أكن، ربما، أعيه بمثل هذا التصور والوضوح. ولكن أولـيس، هكذا، ينضج الإنسان؟ ومن حال ينقل إلى حال؟ كنت أريدك أن تتواطأ معي ضد هؤلاء. ضدهم جميعا، بمـا فـيهم أنـت. أن تسلميني لا، مفاتيح جسدك وقلبك، فحسب، بل مفاتيح رغباتـك أيضا، وفهمت أنني كنت أطلب المستحيل حـين قلـت، وأنـت تنظرين إلى الغروب السماوي المنحدر نحو الأرض: أريد أن..

كان جسدي لازال مشدودا إلى القاع. وقدماي لما تتركا الأرض، بعد. والطائرات تحوم في أعالي الشام. ولم أجد علـى لسـاني

سوى الدهشة والعجب: تسافرين والدنيا في خطـر؟ ضـحكت وأنت لصقي دون أن تقولي شيئا. وهو ما زاد عجبي عجبا. لو كنت أنا لاستفضت في شرح العلل والأسباب، ولسقت كثيرا من المبررات التي هي نفسها بحاجة إلى تبرير عادتي السيئة التي لم تكسبني إلا أعداء حاقدين، أو أصدقاء مهملين. ليس المهم كيف نتصرف (أو ننفعل) عندما نهاجم (إذ أننا غالبا مـا سنخسـر)، المهم (وربما كان الأكثر أهمية على الإطلاق) هو كيف سندافع عن أنفسنا وبأي سلاح، عندما نهجم نحن، هذا ما فهمته، فيمـا بعد من ضحكتك الصامتة. ذلك المساء.

قبل قليل، كنت أخطط لنسف علاقتنا المزيفة من أساسها وجـاء قولك المفاجئ لينسف فعلا ما كنت أريد نسفه في ذهنـي. إنهـا الحرب إذن؟ حرب "التخلي". التخلي عن كل شيء نراه ونلمسه ونحسه. التخلي، ببساطة عن الآخر" لا عن جسده فحسب، بـل عن أحلامه السرية، أيضا" لكنني في جو الحرب الحقيقية الدائرة فوق رؤوسنا، آنذاك لم أكن أفكر أبدا في نفسي. كنت أريـد أن أربطك بالأرض التي عليها تمشين وأجرك إلى اكتشـاف قيمـة أشجار الحور العالية التي كانت تحمي بظلالها شارع "بيـروت" الطويل، من الشمس، والتي تحت أغصانها انسدلنا يوما بعد يوم،

لم أكن أريدك أن تنسي، ببساطة، ملمس يدي التي كانت تنسـل، تحت ثوبك المتطاير لتلم شعر عانتك، قبـل أن تلـم (بثغـرك) الرطيب. الثغر الذي ما إن أمسه، حتى يبتسم لي فارجا "شفتيه"، بتباطؤ، ولعابه يسيل. كنت أريدك ألا تنسي شيئا وعلى الأخص (شجرة الأركان) المهيبة. شجرة (ساحة يوسف العظمـة) التـي ظللتنا مساء بعد مساء والتي تحتها، تماما، أسلمت روحك للرب. وصرت ألمك لما من يديك ورجليك، قبل أن يصـلنا شـرطي حراسة الأركان. لماذا كنت تريدين أن تهجري كل شيء وكأنك لم تعرفي منه شيئًا؟

باغتتني، في الحقيقة قرارك. كنت أريد أن أقولـه أنـا قبـل أن تقوليه، لكني لم احتط للأمر من قبل. ماذا بوسعي أن افعل الآن غير تتفيه ما قررته؟ ولم أكن أعرف أنني بفعلي هذا لا أخسـر "صديقا" محتملا، فحسب، وإنما أكسب بالتأكيد عدوا لا يمكـن، بعد اليوم، استيعابه.

كانت الشام تحترق. وكنت تريدين أن تهجري كل شيء وتبتعدي أقصى ما يمكن. من كان يستطيع أن يتخذ قرارا كهذا، غير من أدار، من قبل، ولمدة طويلة مثل هذا القرار فـي رأسـه؟ مـا أخافني، حقا هي هزة كتفيك اللامبالية؛ وكأنك كنت مرتبطة بعقد

سري مع الشيطان. ولم يسعفني الذكاء (الذي كنت أعتقد أننـي مزود بقدر كبير منه) على حل ذلك اللغـز المثيـر: " امـرأة، وتتصرف كما يتصرف الرجال". كان رد فعلي غبيا" كما أعرف الآن" إذ أحطتك بذراعي واضعا فيهما كل ما أملك من حنان.

ولشدة دهشتي أنك لم تتفاعلي، ولم تنفعلي لحناني (الذي لم يكن كاذبا هذه المرة) كنت قد قررت إذن، أن تتابعي السـير (كمـا بدأته) وحيدة حتى النهاية. ولكي تواسيني،ربما (وربما، لا) قلت بكثير من البراءة والصدق: "وما يمنع، مع ذلك، أن نلتقي؟" لكن تلك اللحظات الشديدة القصر، كانت كافية لتفجير" الطفرة" التـي كنت أنتظرها دائما، في نفسي. إذ وجدتني أقول، بتصـميم:" لا. ليذهب كل منا في طريقه. وإن شئت أن نلتقي فليكن اللقاء على أسس جديدة: أسس لا علاقة لها بالحب، والإخلاص وغيرهمـا من أسس حياتنا السخيفة، الأسس المرتكزة علـى الاسـتمرارية والركود". لحظة. لحظة مشهودة من " لحظـاتي" ضـاق فيهـا بصري عن العالم، كله، واحتواها، هي، وحدها. كنت أنظر إليها متحديا أريد أن أرى ما فعله الكلام فيها. كنت أعتقد أن ما قلتـه سيدفعها إلى تغيير رأيها لا في أنا، فحسب، بل في الحياة أيضا، لكنها ظلت صامتة، تنظر بحياد إلى شـجيرات الحـور التـي غرست، ربما بالأمس بين أمهاتها. وظللت صامتًا، كذلك. كنت

أشاجر العالم في رأسي، أصالحه في الواقع، مـاذا يمنعنـي أن أفعل العكس، الآن؟ كنت أردد صامتًا وأنا أحاول، أن أرى بعين (والعين تخطئ قبل الأذن أحيانا) آثار "المفهوم" الذي دافعت بـه عن نفسي قبل قليل عليها. ولم أر سوى مشروع ابتسامة هازئة (أعرفها جيدا) يبدأ بالتكون، في فضاء الغروب الفضي، علـى شفتيها. غروب " دمشق" الذي بدأت طلائعه تغزو الأفق.

دخلنا معا. ومعا كنا نسمع (الأركان) تتهـدم، وقـوام الأشـياء يتكسر كان كل شيء حولنا يذوب. (القبو) وحده، أتذكرين، ظل قائما لا شيء غير جسدك الصغير الخـائف لصـقي. الأرض ترتج. السماء البيضاء تدخن. بأحاسيس شتى يمكن أن نتمتع بها بلا حدود. حتى بأبسط الوسائل، وأكثرها "بدائية". حتى عنـدما يعتقد (الآخرون) أن بإمكانهم أن يحرمونا من " كل شيء" (بمـا فيه الحق في الحياة). اثنان في قبو دمشقي رطـب ومهجـور. والناس مطمورة من الرعب، أتكون الحياة شيئًا آخر غير هذا؟

- تعالي، إذن، تعالي

- لا، اهدأ. إنها المرة الأولى. إنها المرة الأولى فعلا.

لم يكن ثمة ما يدعو إلى الهدوء. كل شيء حولنا يتكسر. كنـت ألمح هشاشة الحياة وقوة جاذبيتها. من أنا، حتى أهدأ؟ ومن أنت حتى تحولي دون فيضان الرغبة المحمومة؟ من منا كان يريـد أن يموت بشكل مجاني، كنا نحسب (ولغفلتنـا) أن العـالم فـي متناول أيدينا وأنه من غير الممكن ألا نعيش بوئام خالص معه. كنت أردد مبهورا، على مسامعك (وأنا أحاول الدخول فيك): أن الحياة لا شيء إن لم تكن كل شيء. وكنت تغمغمين بكلام أفهـم

منه أن اللذة تختلط، دائما، بالألم. وكنت أجيب وأنا بين المتعـة والانحسار: إن الإنسان بطبيعته كائن مأسـاوي. وإننـا إذا مـا تركناه يستسلم لنزعته السوداء، هذه، فلن يتمتع بحياتـه، ولـن نتمتع معه نحن - وكنت تكتفين بأن تنظريني بعينين غـائمتين، بين النوم واليقظة، وأنت تعطين نفسك، من جديد: "تعال". وكما الخارج، يغدو الداخل كتلة واحدة لا انفصام لهـا. وأحـاول أن أرى العالم من كهفي: هو الآخر متوحدا ومليوما، إنها الحرب، وهي وحدها قادرة على مثل هذا (العجين). وتسـألين ببـراءة (وكأنني أنا الذي دعوتك، قبل قليل):

- لماذا تريد مرة أخرى: ولا أدقق كثيرا فيمن دعي. ولا فيمن دعى. كانت بساطة الاتصال وصدقه فوق" المهاترات". ولم أكن في الحقيقة، إلا داعيا بقدر ما كنت مستجيبا. وكأنني أقـرأ فـي (كتاب الوصل) الذي سأغلقه إلى الأبد. فيما بعد أجبت جادا" لأن الحياة تضيع هباء إن لم تجدد نفسها باستمرار". ورأيت عينيـك تنفتحان على اتساعها (دهشة أم متعة؟) وأضـفت وأنـا أتـابع "نصف الحياة رغبتنا في الآخر ونصفها الآخـر رغبتـه فينـا. تصوري جسدا يملك رغبتين باتجاه واحد" (وأشرت إلى جسدي

الهاجم نحوك) ولم تري شيئا. كنت قد بدأت تغمضـين للمـرة الثانية، عينيك وفجأة قلت "أريد أن أخرج".

- لا. قلت:

- بلى. وخرجت. ولم تصمدي طويلا. كنت تلحقين بي كـاللبوة الهائجة. الاختباء شيء والتصور شيء والخروج شيء آخـر. كنت أريد أن أرى دمشق خلاء. أن أمشـي وحـدي، إلا أنـك لحقت، وبإصرار مباغت تعلقت بي، وأنت ترددين:

- لا أريدك أن تتركني، بعد الآن.

في تلك اللحظة تماما بدأت الحرب. الحـرب الطبيعيـة، هـذه المرة: حرب الحياة التي ستستمر أعواما طويلة بعد ذلك ومثـل أي حرب أخرى كنت تخسرين مرة وأخسر مرة حتى نتعـادل. المهم إلا يربح أحد منا. أوليس ذلك منهجك "ومنهجهم أيضـا"؟ بلى – أستطيع الآن أن أؤكده. لم أكن قد اكتشفت مـن العـالم غيرك، وتريدين أن تقيديني بالإخلاص، وكـأنني لـم أولـد إلا لأرتبط كالخروف بحبل "الحب" القصير. وبتذمر، بدا واضـحا أكثر مما يجب، قلت:

العالم واسع وعلي اكتشافه- ولن أكتشفه إلا إذا أحسست أني حر

- ومن يمنعك من أن تفعل ذلك؟ قلتِ، وأضفتِ سريعا:

- فكرة الإخلاص؟

- لا، مبدأ الإخلاص الذي يعني تسليم الذات طواعية للآخـر. لآخر، ربما لن يحترم ذلك طيلة الوقت وربمـا، أي. ومـن أي منظور نظرنا إلى ذلك فإنني أشم فيه رائحة الاختناق.

ورأيت العكر يركب وجهك الذي كان يتهلـل للتـو. وسـاءني (لغبائي الساذج) أن أكون مصدر تعاسة (بدت لـي فـوق حـد الاحتمال) لك. وأردت أن أميز بشكل أكثر ملاءمة ما قلته، أنّى لي أن أعرف ما يحدث (وما سيحدث) هنا وهنـاك؟ (وأضـفت بسذاجة): أريد أن أقول إننا لا نستطيع أن نطمئن، أبدا، إلى بنية نقيمها فوق مستوى وهمي. ورأيت الصمت يأخذ سطح عينيـك. تفهمين. ولا تفهمين. بلى كنت تدركين قبـل أن أدرك أنـا مـا تبجحت بقوله (وكأنني أكشف لك عن عالم سحري، لم تعرفيه). ولم يكن ذلك (كما عرفت فيما بعد)إلا وهما زينته لـي نفسـي. فليس المهم "توصيف" العلاقة (وبخاصة توصيفها بكلمات فقدت معناها منذ بدء الخليقة) بل روحها. والتفت إليك ضاحكا، لأقول (بشكل مغرض، مع الأسف).

- دعينا من حديث إلافك المضحك، هذا. كنت أريد أن أتناولـك في العراء في ساحة (المرجة) ذلك المساء وأحسست بك (عجبا) تتمنعين تمنعا بدا لي مثل زلزال هز كياني كله (لكلم يضحكني، ذلك، الآن). مع أنه (كما كنت أعرفك آنذاك) تمنع كاذب. عندما أستعيد ذلك التاريخ "تاريخي الشخصي" أبكي. أبكـي علـى أي شيء؟ وهل يستحق فعل مبك، حقا، أن يبكى عليه، لا أظن ذلك. بلى أبكي لأنني صرت أرى الآن أبعاد المأساة التي لم يعد مـن الممكن تلافيها. كنت أعتقد أن كلامنا قادر ولـم أكـن أدرك أن الكائن المفرغ لا يعرف (ولا يستطيع) أن يحب، لأنه لا يحسـن إلا الانسلاب. وأن عملية تفريغ الكائن لا تستقيم إلا بتفريغه من طاقة الحب العظيمة (والتي هي وحدها أساس تمـرده). كنـت أستعيد زجاج النافذة المعتم، من جديد، وأنا أتمتم مستاء:

"قصقصت جناحيك أيها الأحمق، وصرت تزحف، ونمت أجنحة الآخرين وطاروا وما عليك الآن إلا أن تنبت لنفسك أجنحة مـن جديد، إن كان من الممكن لك بعد اليوم أن تطير" ولـم أرك إلا وأنت قاعدة مثل ساحرة، قذف بها آخر الليـل الباريسـي فـي وجهي. قاعدة وتوجهين، حاقدة، سبابتك إلي: " عجيب أمـرك. تريد أن تتوقف الحياة في (دمشق)، عندما كنـت طفلـة نيئـة

وغريرة؟ ألا تعرف أن الحياة خطيرة، وأنها أخطر من المـوت بكثير؟ وإلا ِلم ترانا نتجشم، عناءها، عناء مساكنة كائن بـائس مثلك؟ أكاد أشك في أنك لا تزال تتوقع (لسذاجتك التي سـارت تثير قيئي) أن تلتقي " بوعيك" صدفة، كما التقيـت بـي. الآن، أحب أن أقول لك" إنها لم تكن، أبدا، صدفة". أنا التي رتبت ذلك اللقاء المثير عشية الحرب. تذكر، كنت فـي سـاحة الأركـان. الشمس لاهبة. الجنود قادمون من الحدود. صفرة وجوههم تحز في النفس. عرقهم، غبارهم. لحاهم، أدواتهم المملـوءة ترابـا، أقدامهم التي كانوا يسحلونها بتؤدة مثل الموتى الطـالعين مـن القبور. تذكر كنت تتألم وأنت تنظر إليهم من وراء شجرة العالية (الشجرة نفسها التي سحبتك إليها ذات يوم) كنت تبكي، وكنـت أحوم حولك. مذ رأيتك قررت أن تكون لي. ألا تريد أن تفهـم هذا؟ تعذب نفسك وتعذبني لمـاذا؟" وكأنـك أردت أن تشـحذي نفسك المتلاحق، سكتِ لحظة وأضفتِ، أضفت من جديد:

" كان يحركك التعاطف الساذج (حتى لا أقول الكاذب) مع الآخرين، وكانت تحركني الرغبة (الرغبة فيك). والرغبة لا تخضع لمنطق ولا تحكمها الأخلاق. إنها قوة منيعة مكتفية بذاتها. لقد صرت واثقة (بشكل لا ريب فيه) من أنك لم تعرف

في حياتك كلها رغبة حقيقية، وأن كل ما تعلنه ليس سوى حاجات(أو رغائب) أولية يمكن لأي أحد تلتقي به أن يكفيها."

كانت تحكي، ولم أكن أسمع. كنت أقترب، خلسة من حافة الزجاج البارد. زجاج نافذة الطابق السابع والعشرين. بهدوء أصخت السمع. كان الحضيض موحشًا ومسكونا بالصمت. كنت أرى أنوار السيارات العابرة في الأسفل دون أن يصلني ضجيجها. من وراء ظهري كنت أسمع بلا انقطاع همهمتها ودمدمتها. كانت تحكي بانهمار متسارع. كان كلامها يتساقط من فتحة النافذة إلى الأسفل مثل شلال لا ينقطع عن الانحدار. كانت تحسب أنها تكشف علي سرا، ولم يكن الأمر كذلك أبدا. كنت أعرف منذ أول نظرة أصابتني بها، أن الأمر لا يتعدى كونه مشروعا جنسيا بحتا ولأنه كان كذلك فقد استحوذ، بصرامة،على اهتمامي. وحسبت أنها تريد مني (إضافة إلى ذلك) أن أوهمها بحب مواز لتلك الطاقة الجنسية، ففعلت. لم أفعل ذلك قصدا، فحسب، بل فعلته مدفوعا برغبة عميقة في أن أمثل الدور الذي كانت هي، الأخرى، تمثله، تمثله ببراعة طبيعية. وفي نهاية الأمر. ألم نكن، كلانا نتصرف وفق "المنطق العام": منطق "خذ ولا تعط"؟ بم تريدين أن تقنعيني الآن؟ بأنك، منذ البدء كنت

تخططين لما تفعلين ولا تفعلين إلا ما تريدين؟ أوليس ذلك هو حكم الكذابين على أنفسهم (وبخاصة عندما يقارنونها مع الآخرين)؟

لا، لم أكن أحسب أن المتعة ستتحول إلى عبء. وأنني سأكون مضطر للدفاع عن وضع لا يستحق الدفاع عنه، بخاصة، بعد أن أدركت أخطاءه وأخطاره. لا، لم أكن أدرك بعد، أن العلاقة المحدودة بين شخصين، تلخص علاقات الكائن مع العالم، أجمع. وأنه لم يكن من المستحسن الركون إلى وضع ساء إلى حد الجيفان: وضع يعيد إنتاج (أو يمثل) الأوضاع السيئة كلها. انتبه! إذا ما فعلت ذلك (دفاعا عنه، أو إصلاحا له) فكأنك تحاول ترقيع العالم برقعة ليست من خامته، ولا من مقامه. ما ينفع في هذه الحال، هو" التكشيم". هو ترك الجزء العاري عاريا حتى يكتسي من لحائه أو يموت بردا.

ما لم أكن أتوقعه، أيضا، هو أنني منذ أن وعيت ذلك تحولت إلى وحش. إلى وحش كاسر. ولم يعد يهدئني إلا النظر المستريح في الماء. وفعلا قذفت برأسي خارج النافذة التي فتحت على مصراعيها، أبحث عن سطح (السين) الجاري في

الحضيض. من عل بدا السطح أبرق كامدا. لا تموجات تعلوه ولا تحولات. ماء يجري ولكنه ساكن! أكاد أفقد توازني. كنت أتابع عن كثب سطح (الخابور) المتدفق مثل وحش ملأه الشبع بالاضطراب. ماؤه تعرف الأرض التي ترويها. وأشجاره تنبت على ضفتيه برعونة وصلف.

وجيلانه مملوءة أثلاما من كثرة العراك معه، وإياه. وكدت أصرخ، في آخر الليل الباريسي الكئيب: خابور!

لكنك تحركت فجأة. كاد رأسك أن يطرق الجدار. وكدت أضحك صخبا. إلا أنني أمسكت نفسي ومن جديد، بدا الاكتئاب يركبني. لم أكن (شيء ما) في فضاء ذلك الخراب المعمم. ولم أكن أدرك أن الفرق بين شعور الذات وبين أمنها فرق لا يمس الشكل، فحسب، بل يمس، أول ما يمس، الجوهر. وبالتالي ليس ثمة ما يؤمل إنقاذه من براثن الزمن منذ أن يمر عليه. لم أكن أعرف، من قبل، معنى الحدوث غير القابل للعكس، وهأنذا أعرفه متأخرا جدا. ومع ذلك، لابد من التصارع معه ومعك، وإلا ربحت، بشكل نهائي، كل شيء، بما فيه، خيبتي التي ستدوم. ووجدتني أنفض يدي بعنف في سكون آخر الليل، ذاك. أنفضهما وأنا أتحسر:

- أيمكن لكائن عاقل(أو يفترض فيه أن يكون كذلك) أن يظل يدافع عن وضع (بأكمله) وباستمرار، حتى لو كان وضع روحه داخل جسده؟ كيف إذن زينت لنفسي تلك الانفعالات السخيفة حاسبا إياها انفعالات حب حقيقي؟ وكيف كنت أندمج بين الجموع الهادرة، في ذلك الفجر الدمشقي البارد، راكضا من "ركن الدين" إلى " الميدان" ومن " الصالحية":إلى "القصاع"، مخترقًا" دمشق" من الطرف إلى الطرف، صائحا، طالبا كل شيء، دون أن أحصل على أي شيء؟ أية حماقة تملأ رأس الكائن المخدوع ليظل يعتقد، جزافًا، أن كل ما تمناه (وما يتمناه) قابل للتحقيق؟ ولم لم يطرف لك جفن وأنت تراقبين حركاتي العصابية، ذلك النهار القائظ؟ ألم تكوني قد كونت، بعد، فكرتك الرهيبة عن العالم؟

وكأنك لم تتركي فضائي، أبدا، قلت دون أن تعبر جذعك ارتعاشة:

- بأمور تافهة كهذه تضيع الحياة. الحياة المحدودة (زمنًا وفضاء) تضيع في أمور غير محدودة. ماذا بإمكاني أن أفعل لك؟ كنت ستتحطم، لو نهيتك، آنذاك. كنت تحسب، لحماقتك، أن الاندماج في الجمهور فضيلة. فضيلة كنت تمارسها بحماسة

وعناد. لم تكن قد توصلت، بعد، (ولم تتوصل حتى الآن) إلى تكريس ذاتك ككيان آدمي مستقل عن المحيط. كان الإجماع بالنسبة لك (ولا يزال، أنا واثقة من ذلك) الأول والأخير.
لا مصدر الرأي فحسب (فلقد يكون ذلك بعض الأحيان مقبولا، وإن كان ذلك شديد الندرة) بل مصدر السعادة. تذكر. كنت ألتقي بك مساء، وقد أنهيت جموحك الصاخب مع الجمهور. كنت تبدو وضاحا مشرق العينين مثل كبش نزل للتو عن جذع خليلته.
كننت ما إن تراني حتى تأخذني بلا توسل أو ضجيج. كان رحيقي ينساب كالعسل بين رجلي وكنت تبتدع الابتهالات والحركات المسيلة للدموع أكثر، فأكثر. تذكر. أية حماقة، إذن، كانت جديرة بأن تدفعني إلى ارتكاب فعلة تنشف "ريقك وريقي"؟ لا، أنا لست نادمة على شيء. إنني لا أدافع إلا عن "حقبة ضمن الحقبة" عن لحظات، عن لحظة واحدة أتحمل تبعتها بإطلاق. لكم أتمنى أن تفهم ذلك أخيرا.

وكأن الكلام الذي قيل، قبل قليل، لم يكن صادرا عنك، رأيتك تلمين أجزاءك، وتذهبين بها إلى النوم وصرخت أنا مشمئزا: "النوم من جديد"؟ وأصابك صياحي المؤذي (كما أتصور) في

ذلك الفجر المعلق في بنوبة احتقان صاروخية (أكاد أقول)،إذ رأيتك تنعدلين سريعا، وإلي توجهين سهام أقوالك التي لا تبلى:

- ثمة عتبة تحمل لكل شيء، وعند كل واحد من الكائنات. فكما أن للذوق عتبة، وللمس عتبة، وللشم عتبة، وللسمع عتبة، كذلك للحب وللجنس، للإخلاص وللصدق ولبقية المقولات(التي تملأ قحفك) عتباتها.
وكما أن لتحمل الحرارة والبرودة والإجهاد عتباته، كذلك لتحمل كائن آخر (وبخاصة ذي مزاج مضطرب، مثلك) عتبته الخاصة به، أيضا. وبلوغ الإنسان عتبة تحمله (جسديا كان أم روحيا) يشكل حدا لا يمكن له أبدا حتى ولو أراد (وهو بالتأكيد لن يريد) تجاوزه. لماذا؟ لأن ما وراء عتبات التحمل (وهو ما أدعوه أنا: بالربع الخالي، أو سطح الوجود الأسود) لم يكتشف من قبل أحد، بعد " وبالأخص مني". تضحك؟ ولم لا؟ ذلك مضحك حقا مع أنه الصواب بعينه. من جهتي، لقد بلغت عتبة تحملي لك في جميع المجالات، هذا ما أريدك أن تدركه.
لم أكن أضحك، أبدا، كنت على حافة البكاء. لا بسبب ما قالته، فحسب (وهو أهون الشرور وأقل المساوئ التي يمكن أن تصيبني) بل لأسباب أخرى كثيرة. لم أكن مهموما بعتبة تحملي

إزاء الآخر، ما كان يشغل بالي هو عتبة تحملي لذاتي. كنت أحاول، منذ فترة طويلة، أن أنتزع ذهني أو فكري، أو نفسي (إذا شئت) من وحل ذلك الماضي البعيد.
انتزعها لأضعها، فعلا، في فضاء القرن الذي أعيش فيه الآن (لا أكذب إذا قلت إنني صرت أحس أن ما يفصل اللحظتين: لحظة الشام العتيدة، وهذه اللحظة يبدو لي وكأنه قرن كامل، ومع أنه لا يتعدى العشر سنين مرتين) الآن صرت أشك في إمكانية تحقيق ذلك الحلم: حلم تخطي الحدود الوهمية التي تفصل عالمي (وأصعب شيء هو تخطي الحدود الوهمية، لأننا لا نكف، في الحقيقة، عن عبور الحدود الحقيقية، كل يوم) ثمة خلل عميق وحقيقي صرت أحسه في نفسي، وأحس أنني عاجز عن إدراكه، والسيطرة عليه، بله إصلاحه أو تجاوزه. وهل يمكن للكائن أن يصلح، أو يتجاوز، ما لم يعد، أو يدركه؟ نهرب من أنفسنا إلى أين؟ وكيف؟ سوى بالوعي،أو كما يحدث غالبا" بالتصعيد الكاذب لأهوائنا" وهو ما يعمق خضوعنا للمحيط ويدفع بنا في نهاية الأمر إلى الهاوية). إن حالي اليوم مثل حال من دس في شرجة فتيل موقود. ويطلب منه، مع ذلك أن يظل محتفظًا بهدوئه، وأن يتصرف بشكل معقول(وإنساني حتى). ولكنك لا تدركين ذلك.

(٣٠)

غفوت واقفًا على الشباك. منبه رأسـي الـداخلي دق، فجـأة. صحوت. الوقت، تماما كما كل يوم، حـين أصـحو" صـحوة الساعة الرابعة صبحا".

كم من الوقت مر منذ أغلقت عيني؟ هنيهة؟ لحظات؟ دقـائق، لا أكثر لكنني أحسست أني نمت الدهر كله. نشاط مفـاجئ كـان ينبعث من أنحائي. لم أكن محتاجا إلى تغيير مكاني لأرى فضاء (باريس) فجرا.

تركت الخارج المحيط بي. كان الغمام المكتظ الذي سأراه. طيلة النهار الذي سيشرق بعد قليل ويملأ الأنحاء. ولم تعد السفن تمر. وحدها شرائط الضوء المتسابقة تعلن عن مرور السيارات الذي لا ينقطع. سيارات لا تتوقف أبدا. ومهما كان الوقت والظـرف، عن المرور. شاطئ (السين) الباهت لم يعد يحوي بدل الأشجار سوى الأحجار: أحجار الرصف المدهونة بالقير، لتمر عليها بلا عوائق جحافل السيارات المتسابقة نحو" المعلوم."

كنت قد بدأت تنامين" نصف- نوم" فارجة فخديك. وكان تنفسك قد بدأ يتباطأ. كانت الفرصة ملائمة لكي أحرضك على التسليم. لحظة الساعة الرابعة "لازال طعمها فيه". ولبرهة شديدة القصر، نسيت حقدي، كله وتبخر كربي. كنت أتهيأ للانقضاض عليـك، حين انفجر، بشكل متواطئ، جذعك. لكأنك كنت تقولين:تعـال. ولم أقدم. كنت تتكومين على فراش لاصق بـالأرض. تركـت الشباك، دخلت المطبخ. لا شيء يؤكل. بقايا طعام الأمس اليابسة متروكة في حوض المغسلة. صحون وملاعق وكؤوس وسخة، تتكوم: بعضها يركب بعضا. لماذا لم تغسليها (أكاد أقول لماذا لم تغسلها)؟ من نافذة المطبخ، أتطلع من جديد، إلى الفضاء المحيط بي: فضاء الساعة الرابعة ليلا. أريد أن أرى وجها بشـريا. أن أرى هيئة إنسانية. اثنان يتعانقـان، مـثلا(أسـطورة بـاريس الشهيرة)،لا. ليس ثمة في الخارج سـوى أضـواء السـيارات المتسابقة كالنجوم المرصوفة على الأسفلت.

أعود بهدوء شديد إلى مكاني (لصق النافذة). أمر، من جديد بك: لا زال فمك يتنفس بهدوء. ولا زال جذعك لاصـقا بـالأرض. ولازالت دعوتك: تعال، قائمة، كما حسبت. إلا أنني تجاوزتـك،

وأنا أتمتم: حتى إشعار آخر. لماذا وردت تلك الجملة السـخيفة على ذهني، آنذاك؟ لم أعد أدري. كل ما أدريه أنني كنت أتطلع متفحصا كل شيء. كان نوع من التمرد المفاجئ يستولي علـي: فضاء محدود وتافه مثل هذا الفضاء يمسك بتلابيبي،ويمنعني من التحرك والتغيير؟ ووجدتني، في ذلك الفجـر، أقهقـه وحـدي، باصقا في الفراغ الذي فغر فاه، حالما فتحـت النافـذة. كنـت أتعجب: إزاء بنية شديدة المحدودية، كهذه، يبدو التغيير الجذري وهما (أو كنت أراك تنقلبين من جنـب إلـى جنـب، فاسـحة أوراكك، وملهمة أعضائي بعض حبورها العدائي الصارخ. مـا كنت أريد أن آتيك ورأسي مملوء بالقشور. تلك الساعة من الليل بين أشتات أفكاري: الكائن لا يأكل نفسه فحسب بل كثيـرا مـا يأكل معه الآخرين.

وكأني عثرت على كنز في صحراء "باريس" الأسفلتية وجدتني أتمتم بشكل غامض، من جديد: صحيح أن قلب البنية الصـغرى يبدو مستحيلا (أو شبه مستحيل) منظورا إليـه مـن منطقنـا الأصغر(المنطق الذي تعلمناه لحماية أنفسنا أولا، وبشكل خاص منها، هي، بالذات) إلا أن الأمر لا يبدو كذلك بالنسـبة للبنيـة الكبرى. لماذا؟ سألت نفسي وأجبت: لأن البنية الكبرى وفق هذا

المنطق الصغير المحدود، لا تخص أيامنا(أو هي تبدو هكـذا) وهو مظهر خداع. خداع لدرجة أن الكائن يتخلى عن محيطـه الكبير الذي يحيا فيه حياته الأساسية والوحيد، في سبيل الحفـاظ على تكوين مجهري سخيف. يقنع نفسه(أو يقنـع) بـأن ذلـك (الشيء) هو مملكته على الأرض. وما عليـه إذن، إلا الحفـاظ عليها. أترين الآن إلى أي مدى يمكن أن يتغلغل مشروع تفريغ الكائن وتتفيهه؟ واكتفيت بأن استدرت شمالا، معطية للريح الذي هب مقعدك كله. ولابد أنك شعرت بلسعة النسمة الباردة، نسـمة باريس المكفهرة، على لحم إليتك المكشوفتين، جزئيا. إذ رأيتـك تتلمسين الغطاء الذي انزاح منذ الحركة الأولى التي انبعثت من طرفيك.

وإذن لقد خدعت مرتين: مرة في الداخل ومرة فـي الخـارج. وكأن نورا أشرق في وجهي، وجدتني أتملص مـن أحاسيسـي الكئيبة التي لم تتركني منذ أول الليل. عندما خطر لي، فجأة: أن حياتي ليست مستعارة. وأن مشاعري هي الأخرى حقيقية لدرجة أنها لا تكف عن تعذيبي. ماذا أريد أكثر من ذلك،؟ ولكن، إلـى أي حد أستطيع أن أحافظ، منذ الآن على هذا " الملك الحقيقـي"

الذي لا يخص، هذه المرة، أحدا غيري؟ أحافظ عليه، وأعنيـه. هذا ما قررته، في تلك اللحظة المبهجة.

وكأن أحدا وكلك بالدفاع عن هؤلاء جميعا(لا عنـك فحسـب)، رأيتك تنعدلين في جلستك، والحقد يتصبب منك(حقد جنسي فـي أساسه) وبلا احتياط توجهين إلي سهام ألفاظك الجارحة:

- تنتقد السلطة وأنت أكثر منها تسـلطًا. تحـل نفسـك محـل الآخرين، تحكي عن مشاعرهم وكأنك أنت الذي سـكبتها فـي نفوسهم. لا أحد يتكلم غيـرك. دع الآخـرين يعبـرون عـن أنفسهم.اسألهم: حاورهم، بدلا من أن تلاحقهم بنظراتك كالمعتوه. سكتِ برهة وأضفتِ:

-لا زال ماضيك التعيس يعذبك. أشك في أنك سـتخلص منـه، ذات يوم. الحياة ليست مجموعة مشاعر "خالصـة". وبخاصـة عندما تكون مشاعر مضطربة. ما قيمة الحياة، وما جدواها، إن لم نتخط عوائقنا، وبالأخص الجوانية منها؟ كنت تبدين كالمـاء مكتفية بذاتك. ومع أنني نزعت وجهي من عتمة زجاج النافـذة، لأضعه في "نور وجهك" باحثا بإمعان عن علامة للشـك فيمـا

تقولين "قد تغلبك وتطغو عليه" لم أظفر بشيء. وبدأت أصـرخ صامتا:" أنا بحاجة إلى كل شيء: إلى الحب والحنان والجـنس والأصدقاء والمال. كل مقومات الحياة السليمة تنقصني. كيـف يمكن لكائن، وحده أن يقاوم كل هذا العوز؟" كنت وأنـا أسـتمع إليك، لا أفكر إلا بشيء واحد: " كيف يتحـول الإنسـان إلـى طاغية" ولم يكن الجواب صعبا أبدا: يكفي أن يعتقد بأنه دائمـا على حق ومع ذلك فاطغيانك طعم خاص، طعـم يـدفعني إلـى التمعن فيه، وتقليبه على وجوه احتمالاته جميعا، قبل النفور منه. أحسست أنني بعت نفسي بأبخس الأثمان. وأن الهزيمة آتية، ولا ريب. وفي النهاية، إما أن أحافظ على ماء الوجه. أو أن أرفـع منذ الآن راية التسليم.

وكما ترين، فنحن في الحالتين منهزمون. ما علينـا إذن إلا أن نختار طريقة الهزيمة. ولكن من غيرك الهازم؟ هم أيضا؟ أنـا نفسي اشتركت في هزم نفسي؟ ماذا كان بإمكانك أن تجيبي، بعد أن أدرت رأسك إلى الحائط الرمادي الباهت وكأنك تبحثين فـي صلادته عن أفكار جديدة تلقين بها، في صـاف إلـي؟ تركتـك مندارة وخرجت إلى المرآة. المرآة المربعة الصغيرة أبحث فيها عني. وقبل أن أصلها صرت من جديد أصرخ:

"عن أي شيء تبحث، وعلى جبهتك العلامات: علامات الحـب الميت، والانهيار الأكيد"؟ ما إن رأيت وجهي الكالح، فـي تلـك المرآة الباريسية، حتى هدأ روعي. لم يهدأ اطمئنانا، ولكن لشدة الخيبة القاطعة للشهية. كان يملأني إحساس مفاجئ بالغبن. غبن تاريخي، لو كرست حياتي كلها لأزالته، لما توفقت. غبن جعلني أشعر منذ البدء بأنني كائن دخيل. دخيل حتى وأنا" في نفسـي". ولأني عشت "ماهية الدخيل" عميقا ولم يساورني الشك أبدا فـي عدم صحتها، بله إمكانية الخلاص منها. وهو مـا سـهل، بـلا ريب، احتلالك لي. احتلالك الغاشم الـذي لا يختلـف عـن أي احتلال آخر. وقبل أن أنزع عيني عن جبهتي المقابلة لـي فـي المرآة خالطني شعور مناقض (أكاد أقـول شـعور منـاهض): "برغم ذلك كله، سيكون لدي الوقت الكافي لأتجـاوز عـوائقي التافهة، هذه" عوائقي التي سأتجاوزها كما أتجاوز نفقا طويلا، لا أرى، الآن، نهايته المنقذة.

كان علي أن أكون على مستوى "الوضع السيئ"، ذلك الوضـع الذي عشته ورعيته بطاقتي المعقلنة، كلهـا. كنـت أعتقـد أن الإحاطة والعقل قد يحلان (بعض المستعصيات). ولم يكن ذلـك (في حالتي، على الأقـل)إلا وهمـا. الآن، صـرت مقتنعـا أن

الإنسان يمكن أن يكون ضحية لتهور الغفلة إلا أنـه سـيكون، بالتأكيد ضحية مضمونة للتعقل الزائد. وربما. كانت تلك، تماما هي حالتي. خاصة وأن ضحايا" العقل" أكثر بكثير (بكثير جـدا) من ضحايا الغفلة والغباء (إن كان لهما، في الحقيقة، ضحايا).

كان الليل قد بدأ يقترب من نهايته، مثلي. وبحركة صامتة، مثل فهد (ضعي الفهد بين قوسين، إن شئت) اقتربت منـك. كنـت أريد أن أرى آخر تعابير وجهك" المزاود" قبل أن أتطوح ملقوحا من الشباك.

كنت قد جرحت بعمق. جرحت جروحا يعجز اللسان عن تبيانها (أنت وحدك تعرفين كم كان جرحي بليغا) إزاء ذلك الجرح كل ما يمكن أن يقال أو يفكر به سخيف. ومع ذلك لابد من التفكيـر والكلام. كنت بحاجة إلى كل معونة حتى ولو كانت لا تجـدي. كنت أحسني ضعيفا ومحدود القدرة، أنا الذي عندما أمشي أشق الريح شقًا، معتقدا أن الحياة مثل الهواء أتخلله ويتخللني دون أن يسيء إلي. وهو ما طبع سحنتي بطابع" البلادة": بـلادة طيبـة القلب الزائدة عن اللزوم.

لا، لم أكن أدرك العظمة الكامنة في إمكانية أن يتحرر الإنسان. كنت أجهل، قبل الآن، هذه الإمكانية. إمكانية ارتقاء سلم التحرر

درجة، درجة. كنت أحسب أن الإنسان يولد فعلا حرا، ولم، أكن أعرف أنها الحرية العاجزة. حرية من لا يفقـه حتـى معنـى حريته، دعك من التصرف بها كان علي "صار لزاما منذ الآن" أن أتحرر شبرا شبرا. أولا منك. لا، أولا مني أنا، ومـن ثـم منك. " هكذا ترين أن علي أن أتحرر منك مرتين" وأخيرا مـن البقية الباقية. ماذا يعني ذلك؟ يعني أن فضاء حرية الكـائن" أن وجدت" هو فضاء (جسده) أولا، ومن بعد فضاء فكره (إن كان يمكن لكائن مفرغ أن يحتوي فكرا). كل هذا لا قيمة له، بعد أن قلته! علي أن أبحث عن شرح آخر شرح عملي أمارس به جزءا ضئيلا من إمكانية التحرر الهائلـة المطروحـة قـدامي. لقـد اهتممت، منذ نعومة أفكاري. بالشكليات. والشكليات مصـدرها الوهم (وهم الحصول الكاذب على الحقائق والأشياء) ومصيرها الاهتراء العاجل. ماذا بقي علي أن أفعل،غير أن أهـزك هـزا عنيفًا، علك تفيقين من سباتك الذي طال؟ لا، ليس لدي أية رغبة في ترك المكان دون أودعك الوداع الأخير. وكيـف لعينـي أن تواجها الظلمة الأبدية قبل أن يتكحلا بنور عينيـك؟ واقتربـت منك. اقتربت حتى حدود اللماس. ولم ألمسك. كنت أحس أننـي إن فعلت ذلك، فسأكون عنيفًا، عنيفًا جدا وليس للعنف، منـذ أن يستقر، حدود لأن العنف في حقيقته. بلا هدف.العنف، في النهاية

هو موضوعه ولا أريدك أن تكونيه. مـن قبـل كنـت حريـا باستفزازك، بأي شيء حتى ولو كان عنفا مقيتـا. ومـرة بعـد أخرى أدركت أن تلك الخضات السخيفة لم تحرك إلا الـروائح الكريهة في مستنقع حياتنا الراكدة. وبدت الفعلة عبثية إلى حـد بعيد: تخض المستنقع أكثر. تفوح الروائح أكثر. تخضـه مـن جديد؟ أم تهجره إلى مستنقعات أخرى؟ (اقرئيها كما تشـائين). أأوقع عقد الاستلام النهائي، إذا، مع المحيط، بقبـولي لمقولـة القناعة القديمة: إن كنت في وضع سيئ فلا تنس، أبدا، أنه يمكن له أن يكون (أو يصبح)أكثر سوء بكثير؟ لا، لا يمكن لحصار أن يكتمل (وأن يكون حصارا حقيقًا) دون منافذ لا تحصى.

النافذة من جديد. الظلام الأشهب في فضاء باريس الكئيب. أنوار السيارات التي لا تكف عن المرور. أنت- وأنا. كل شيء كـان ممكنا. بما في ذلك ألا يكون ممكنًا أي شـيء مـن السـهل أن نخرب في لحظات ما بنيناه خلال أعوام طويلة. وإذا ما فعلنـا ذلك فلن يكون بإمكاننا إعادة بنائه من جديد. مـا علينـا إلا أن نختار. ماذا سنفعل إذن؟ ووجدتني من جديد أتشنج ضد نفسـي: "لماذا تطرح هذا السؤال الزائف؟ عليك أن تقول: ماذا بإمكاننـا أن نفعل؟"هكذا فقط، قد تخطو أول خطوة علـى الطريـق،(ولا

أقول الصحيح). وإذا كان الوصول إلى أيـة نقطـة لـيس إلا وصولا مرحليا (على طريق الحيـاة، ذي المراحـل التـي لا تحصى) فإن علينا ألا نصل، أبدا،(مدفوعين دفعا، ودون رغبـة حقيقية منا) إلى " نقطة اللاعودة". لقد قررت، في تلك اللحظـة (كأنني أقرأ القرار مكتوبا على زجاج النافذة المظلم، قدامي):"ألا أفعل بعد اليوم، مكرها أي فعل، أعرف أنني سـأتراجع عنـه مكرها، بعد حين".

كنت أريد أن أنقذ نفسي وأنقذك (والكـائن الواحـد آلاف مـن الكائنات). إلا أنني كنت مقيدا. مقيد القلب واليدين، مثل صـقر اصطيد بالرغم منه.

منذ زمن بعيد لم أجيء إلى هنا. هأنذا، أجيء اليـوم. المقهـى مليء بالزبائن. ليس ثمة مكان للجلوس. أخيـرا أجـد كرسـيا وطاولة مفردة. الكرسي والطاولة يلتصقان بزجاج المقهى. يكاد الجلوس أن يكون مشقة.

علي أن أنقذ من وراء الطاولة لأجد الكرسي المحشور ينتظرني بامتعاض. لكأنه استراح، هنيهة، قبـل وصـولي، مـن أوراك الجالسين، وكأنني كنت جالس العكر (على وزن جالب العكـر) له، وجدته يهتز بهدوء تحتى (رغـم وزنـي الوسـط) باعثـا صرصرات متلاحقة يسمعها " مقعدي" قبل أن تسمعها أذناي.

في الخارج تطعم يابانية جميلة طفلها المؤدب آخر لقمـة مـن "الكريب". صرت أتفرس فيها: عينان مرفوعتان شمالا. حواجب مقوسة مثل أسهم صيادة. فم ينفتح وينغلق بلا انقطاع.

أخرجتني منها، رائحة القهوة الحادة التـي اجتـاحتني، فجـأة. وضعها" الغرسون" قدامي. وضعها بحركة عاجلة ملحة. وضعها

وراح. ألتفت، أبحث عنها ورأيت أخرى(كنت أسمع من ورائي صوتها المختلط): ظهرها جميل متصـل بـردفين مكـورين. وعندما أحست بي أزاحت ثوبها الأسود قليلا. كأنهـا أرادت أن تقعد من جديد أحسستها تستولي على الكرسي الأحمر الصـغير الذي تضاءل تحتها بحياء. كان نسق جسدها الجميـل ينكشـف نهائيا: جذع آخاد ولكن، أين وجهها؟ وقبل أن يجيء الوجه، جاء الصوت:- صباح الخير، سيدي.

- صباح الخير.

- كنت في إجازة؟ وقبل أن أجيب، يتابع:

- واضح. كنت في الشمس. كنت في بلادك؟

- لا. كنت في الجنوب.

-في الجنوب؟ يتساءل بدهشة،وهو يملأ عينيه من جادي.

ويتابع:- في بلادك لا توجد شمس؟

-بلى، شمس كثيرة. ودون أن يسمع، سمعته يتابع متعجبا:"فـي الجنوب؟".كنت أعرف انه يخلط بين " الجنوب " وجنوب الكـرة الأرضية وأردت أن أوضح له ذلك.

-آه، في الجنوب، في جنوب الكـرة الأرضـية. كـان يبتعـد ضاحكًا. حاملا طلبات الزبائن المتكاثرين، وهو يحكي لنفسـه:" في الجنوب شمس لها مثل هذا الفعل؟ شمس عدائية إلـى هـذا الحد؟" وقبل أن أوضح،من جديد جاء الرجل صـاحب الكلـب. الرجل الذي كنت أراه منذ سنين، دون أن أسمع له صوتًا. كنت أعير نفسي، به:"منذ عرفتك وأنت تهذي. تحكي بلا سبب. تعاند الناس كلهم، من يسمعك يحسب أن لك ثأرا مع العالم. لمـاذا لا تتعلم من هذا الرجل الصمت. الرجل الذي لا يتكلم حتـى مـع كلبه؟ ما كان يدهشني " أكثر " أن الكلب، نفسه تعلم الصـمت. كان ينظرني بهدوء بعينين مفتوحتين على أقصاهما. لكأنـه لـم يكن يراني. كنت أشعر بالتضاؤل أمام ذاك الكلب الـذي كـان يتجاهلني قصدا. وعندما قلت لك: " حتى الكلاب هنـا تمقتنـا". رأيتك تضحكين وأنت تهمهمين:"تمقتك أنت" وأضـفت قبـل أن استوعب المعنى لملاحظتك الفاصلة: "لماذا لا نعترف بأنك تثير عدائية كل من يراك، بما في ذلك الكلاب؟" ما أدهشـني اليـوم التغيير الذي بدأ يفضح تلك الكتلة:"كتلـة الرجـل – الكلـب" : الرجل أبيض كله ما عدا الكلب. الكلب ظل صـامتا. وصـار الرجل يحكي ويحكي مع هواه. ينظرني الرجل ويحكي. كأنـه يسبني. لا. كان يعاتبني على صمتي. لم أقل شيئا بقيت سـاكنا

في مكاني المحصور: من يستطيع أن يتكلم وهولا يستطيع حتى أن يقعد مرتاحا؟ لكن الرجل لم يفهم ما قلت. ولم تفهمـي أنـت الأخرى. وصرت أتذمر:"خسرنا الحرب" حتى في هذه النقطـة. أتكون الحياة تافهة إلى هذا الحد؟" وسمعتك تبربرين: "خسرتها، وحدك". وبلا حذر التفت إليك والعدائية تشع من عيني: وأنت ألم تخسري شيئا؟ ألم تخسري شيئا؟ وبلامبالاة قلت: " ليس لدي ما أدافع عنه سوى نفسي. ألا تريد أن تفهم ذلك؟" وفي غمرة البهتة التي أخذتني، أضفت:"والنفس إما أن تخسرها دفعة واحـدة، أو تكسبها إلى الأبد". ووجدتني بلا سبب أضحك. لا كنت أضـحك لأنني "عثرت" على ما لم أكن أنتظر العثور عليه: لقد بدت لي، فجأة حسنات ذلك الوضع السيئ الذي كنا نعانيه.

وصرت أحث نفسي: "لا تبحث عن النقاط المشتركة، فهي عديدة دوما المهم هو أن تبحث عن نقط الاختلاف القليلة، وعن الأقـل منها بكثير: نقط الاختلاف الجذري. ذلك وحده، ووحـده فقـط، يبرر معرفة الآخر، ويفتح الباب لمعرفة الذات".

حتى تلك اللحظة تماما كنت أخلط نفسي بالآخرين. وأحسسـت أن علي، منذ الآن، أن أمسك مصيري بيدي. ووجدتني أقول لك وكأنني أتحداك:

- إحدى المخاطر الأساسية في الحياة. التشبث. التشـبث بمـا نعرف (وبمن نعرف). وحري بنا أن نفعل العكس.

ولم أستطع أن أكمل الكلام. أن أشرح باستفاضة كاملة ما كنـت أريد قوله، إذ سمعتك تقولين، وأنت تحدقين في عيني:

- "العكس" بحاجة إلى فضاء. والفضاء بحاجـة إلـى حركـة. والحركة بحاجة إلى إرادة. والإرادة بحاجة إلى شـغف. وأنـت ماذا تملك من هذه المقومات؟ ماذا تملك غير التوتر والانفعال؟
لم أكن أسمع. لكأن أذني جفت. بصري تعلق بالرغم مني، بـه. بذلك الطفل. طفل يلعب في واجهة المقهى. بسيارة بلاسـتيكية، لها مروحة ملونة، وأبوه بالقرب منه ومني منهمك بسيارة "رولز رايس" هائلة الحجم بديعة التكوين. الطفل ضاحك وسعيد. وأبوه متوتر وبائس. وكأن نافذة فتحت في رأسي، صرت أرى الناس بعينين باهرتين. أدركت، فجأة كم أنا بحاجة إلى حاسة جديـدة. حاسة أسميتها في سري: " حاسة التمييز". وإذ كنـت أردد مـن قبل عبارتي التي صارت ملازمة لتفكيري (وأسـتطيع الآن أن أقول: الساكن) عبارة: من المؤسف أننا وصلنا إلى هنا وجدتني،

للتو، أدرك أنه لم يكن من المؤسف أبدا. لماذا؟ لان كلا منا قـد خط، بالتأكيد، لنفسه ومنذ البدء مساره الخـاص. ولأن تقـاطع المسارات لا يتم أبدا وصدفة، وبدأت أبكي. ورأتني " مطعمـة الكريب لابنها" فتوقفت رأسا عن إطعامه. وتوقفت فكـاه عـن الحركة واللوك سحبت اليابانية اللقمة من فم الطفل وألقت بها في مجرى الماء ولم تعد أبدا نظرتها المائلة إلى نظرتي المبلولـة. ورآني جاري الأشهب ولم يتوقف عن التشكي والكـلام. كـان يتكلم بفرنسية جامحة عن مشاكل البطالة والعمـل والأسـعار. ورأتني الكتلة كتلة الرجل- الكلب ورأيتها عينا الرجـل الـذي شاب دامعتان وعينان الكلب واجفتان. الرجل ينظر إلى صـديقه الكلب والكلب ينظر إلى عيني. وأخذت عينـي منـه امرأتـان. طويلة وقصيرة. الطويلة ينقصها كل شيء مـا عـدا الطـول. والقصيرة عندها كل شيء ما عدا الطول. وجه الطويلـة بـارد وعفيف لا إغراء فيه ولا فتنة. وجه القصيرة فاتن. فتنته تأسـر القلب لكنها فتنة بلا إغراء. ماذا أفعل؟ مرت المرأتان سـريعا. كأنهما لم تكونا في وجهي. الآن، أكلهما ضوء الشارع البليـل، كما يأكل البحر ساحله. أعود من جديد إلى المرأة المقابلة لـي. كنت أتطلع إليها منذ فترة. أتطلع ولا أتطلع. ليس فيها ما يغري ولا ما يزجر النظر. تقف عند حدودها النفس. كانت امـراة –

نصف: نصف طويلة نحيلة. نصف شقراء؛ نصـف سـمراء. امرأة من تلك النسوة المتضررات بفعل الزمن والحيـاة. مـن منعها اللذة ومن منحها إياها؟ من أصاب معها ومن أخطأ؟ مـن أحسن أو أساء إليها؟ لا يمكن معرفة أي شيء مـن عيونهـا أو محاياها. امرأة لا تلتهب ولا تعاف. إن أعطيتهـا أخـذت وإن منعتها قنعت. (هذا ما عرفته بالنظر عنها. والنظر لا يخطئ ولا يصيب) كانت في وجهي، تماما. منذ جلست وهي تحسو خمـرا أحمر من كأس ترتكز على قاعدة مدورة يعلوها عنق طويـل. تحسو وتنظر في خلاء الطريق. لكأنها لا تجالس أحدا. المـرأة المجالسة لها لا تكف عن الكلام. هي تستمع ولا تسمع. تحسـو وتنظر. بنظرتي الأخيرة لها، اكتشفت بعض مزاياها:

كتفاها مدوران ملحمان. أطرافها مملوءة بتناسق. صدرها يكـاد يكون عريضا مع أنه ضيق. حوضها يكاد يكون ضـيقًا وهـو عريض. أنفها شبه مستقيم؛ عيناها يبثان بريقًا هادئًا. بريق لـم يصل إلي بعد. أذهب أنا إليه. في طريقي نحـوه، أرى شـفتها السفلى: نصف دائرة من الرغبة المكتومة (وما معنى الرغبة إن لم تكن كذلك. رغبة تتحقق لا تعود رغبة). أحول بصري عنها وأعود مرغما إليها" إلى الشفة السفلى، ذات الهدوء الميئوس من تعكيره "ثمة شيء ما يشوش فضاء تلك الشفة ويخرب كل شيء

فيه. أريد أن أعرف كان يزعجني الإحساس الذي استبد بي. آنذاك: الإحساس بأنه سينقصني شيء ما لو استطعت أن آخذها بين شفتي. ولم يكن ما ينقصها سوى الشفة العليا: الشفة التي التهمها النسيان.

وصرت أرفع رأسي إلى أعلى. إلى أعلى ما يمكن لأرى الريح الحامل كيف تملأ الجو بنثارها. وهجم رأسك المـدور العنيـد علي: " تعال، تريد أن تموت؟ قلت: بلى. ومع ذلك لـن يتغيـر شيء. قلتِ هازئة. لم أكن أحلم أن أغير العالم بموتي. كنت أريد أن أعاقب نفسي على تفاهتها. كنت أرى معالم القمع والاضطهاد تنتشر حولي كالفطر المربع ولم أكن أجرؤ على فك لساني. لـم أعترف لك بذلك. كنت أحسب أنك قادرة على الرؤيـا، قـادرة وحدك على اكتشاف الخلل المخيف الذي كان يملأ حياتنا من.... واكتشفت، أخيرا، أنك لا ترين إلا الألوان التي في عينيك. وأن حائلا خفيا بدأ يتكون في فضاءينا

تلك كانت سقطتي الأولى. سقطة الحب الذي تجسد حقدا ولؤما، فيما بعد. لا، لم يكن ما بيننا حبـا. وكيـف يحـب مضـطهد مضطهدا، آخر؟ كنت أحسب أن كل شيء مع "الشبابة" ممكـن، بما في ذلك الحب الكاذب ولم يكن ذلك إلا كذبة أخرى سأكتشفها بعد ذلك بزمن طويل. كان نوع من التعاضد المتـواطئ يشـد

أحدنا إلى الآخر، بانتظار أن تزول الغمة ولبساطتنا اعتبرنا ذلك "كل شيء" في حياتنا الخالية من الحياة. أتذكرين كيف منعنا من المشي ومن الركض ومن الكلام ومن التظاهر ومن التعبير عن هياجنا واضطهاجنا؟ كيف كنا نحشر كالبهائم المفلوتة، وقد أحيط بها بعد لأي؟ لا،لا أصدق أنك نسيت شيئا من ذلـك الاحتقـار المشوب باكتئاب عميق والذي كان يملأ ذواتنا، لا ضد من كانوا هم السبب، ولكن ضدنا نحن، ضد أنفسنا التي كانت على حافـة الامتثال. لازلت أذكر لون عينيك وسحنتك الكبدية حين قلت لك أنه انتحر. لم تسألي في بداية الأمر شيئًا. وبعـد لحظـة مـن الوجوم الرهيب، سألت: كيف؟ (وكفى).وكأن تلك الكلمة وحدها كانت تكفي لمحو مشاعر الخزي والموت والانحطاط. ولـم أرد عليك في بداية النهار. ذلك النهار القائظ الـذي كـان يشـوي (دمشق) من (المزة) إلى "القصاع"، ومـن "المهـاجرين" إلـى (الميدان). واكتفيت، أنت بأن تسربت مع الماء النازل من "عين الفيجة" جنوبا. لم أكن أعرف؛ بعد، كيـف أسـويك ولا كيـف أواسيك. ومثل الجرو الذي يلحق بأمه صرت أتـابع خطواتـك المتمهلة والحزينة. ماذا كانوا يريدون منا؟ من كنا نحن؟ وكيف يمكن فهم تلك العلاقة المجهولة الهوية بيننا وبينهم؟ مـن هـم؟ ووجدتني أتساءل عن أكثر الأشياء جوهرية وواقعية حولي: عن

معنى الريح وجدواها، عن الماء الـذي أشـربه، عـن ماهيـة الأشياء، كلها وأولها أنا، لا لم يكن ما يملأ نفسي خـوف، بـل تساؤل. تساؤل عما إذا كانت الأشياء هي فعلا، كما أراها ولـم يكن في مقدار أحد آنذاك، أن يجيبني. ماذا أسـتطيع أن أفعـل، إذن غير أن ألحق بك، كالمهر الذي أضـاعوه. كنـا نتسـابق، أتذكرين، في اختراع المقولات؟ وآخرها" بعد أن أنتحر": أطلب المستحيل لكي تحصل على الممكن" يومها نظرت، خلسة إليك، ورأيتك بين الدمع واللمع ترفرفين بأهـدابك السـود الصـامتة. ولأول مرة، أحسست أنك بدأت تبتعدين. ولم أقل شيئا وسـألتِ أنت مستاءة:

- أبتعد عن أي شيء؟ " والدم يلمع في مقلتيك".

-لا. أبدا. "قلت أنا، وسكتنا، معا". وعندما التفت إليك،لأقول لك بنوع من الحياء الذي لم يكن كاذبا آنذاك:

يعذبني بعض الشك الذي في نفسي.

- أحرى بك أن تتعذب من اليقين. ألم تتجـاوز، بعـد مراحـل الطفولة، طفولة المشاعرالمتهافتة: مشـاعر الفـراغ العـاطفي السخيف؟ (أتراك قلت ذلك آنذاك؟ في الحقيقة لم أعد أدري. مـا

أعرفه تمام المعرفة هو أنك قلت شيئا يمكن أن يؤدي، في نهاية الأمر وإلى مثل ما قلته أنا قبل قليل).

أعرف أن ذلك صار " مذكورا" (بمعنى أنه من حوايا الذاكرة). لكن ذلك لا ينقص من قيمته شيئًا. أوليسـت الـذاكرة مخـزن الحياة؟ ومن قال لك إن الحياة أصدق من الـذاكرة؟ وإن كنـت نسيت فأنا لازلت أذكر حتى الآن مشاعر القرف الذي كان يملأ نفوسنا ونحن في مواجهة الجموع، المحتشدة في العراء والتـي كانت تنتظر منذ ساعات الفجر الأولى بشائر " قدومه".

وكان القرف يتزايد بتزايد الهتف والتصفيق. يومها. ندغتك وأنا أردد " متعجبا ومشمئزا" صحيح، ماذا ينتظـر القطيـع غيـر الراعي؟ غير راعيه هو بالذات" ولم تقولي. آنذاك شـيئا كـان العبوس المخيف يملأ قسماتك" التي لم تكن ناعمـة كمـا هـي الآن"ماذا كانت تستفيد الأرض من الأقدام الواجفة فوقها، ومـاذا كانت الريح تقول للأصوات المبحوحة التي كانت تنقلهـا إلـى البعيد، غير اللعنة؟ غير لعنة التاريخ الذي كان ينهمر مثل شلال من الماء الآسن. ماء لم يسق زرعا، ولم يرو فرعا. ماذا كـان يمنعني. آنذاك، من أن أمشي؟ أن أترك كل شيء على الأرض وأمشي. كنت أعرف أن الموت يتربص بالأشياء من الألف إلى الياء. ولم يكن الجبن (الذي كنت أتمتع به بجدارة) هو، وحـده

الذي قيد قدمي. أتذكرين، الآن؟ يومها، تحـت عـين الشـمس الدمشقية اللاهبة، حضرت أعضائي وهيأتها " لكل شيء" وبدأت أنوس مثل الذبابة المطرودة عن كوم من الزبل: تروح وتجـيء بلا انقطاع، وكأن روحها معلقة فيه" وهي كما نعرف الآن معلقة فعلا به. فبأي شيء آخر يمكن أن تتعلق روح ذبابة؟ ولم تكـن روحي، يومها بأجل من روحها) وما معنى (إضافة إلى الخوف) تعلقك اللذيذ المفاجئ بزندي المنتصب(وهو ما كـان مصـدره سعادة خفية لي) وإلحاحك: "لا، لن تموت قبل أن تحبنـي" ولـم يكن ذلك إلا تمهيدا لموتي الفعلي الذي سترتبط أسبابه بأسـبابك منذ تلك اللحظة (والذي سيتحقق على يديك، بعد ذلـك بـزمن طويل). كنا في بداية تفتحنا. وكان كل شيء يبـدو لنـا قـابلا للتحقيق، وللتحقيق. لم تكن تنقصنا الإرادة لفعل ذلك ومع ذلـك، كنا نقضي الوقت نتطلع منتظرين إشارة البدء- ولم يبدأ أحد منا. لماذا؟ لماذا لم أبدأ، أنا وحدي. كان الفضاء العام مملوء بسـموم التخلي والانتظار: تخلي الكائن عما يخصه، وانتظـاره لمـا لا يخصه (وهل ثمة شيء في الحياة لا يخص الكائن الذي يحيا؟). قولي لي، إذن من أين كانت تنبع تلك البلادة التي كانـت تشـل عقول الناس وأبدانها؟ وكيف يتحول الكائن "الفاكر" (أو الذي من المفروض فيه أن يكون كذلك) إلى كائن " آكل" (وآكل فقط).

وكيف يتعود الإنسان المفطور على التمرد والحرية(والذي ولدته أمه حرا، حتى من ثيابه)كيف يتعود على الخضوع والانصـياع وكأنهما طبيعة ثانية فيه، يكفي " لإذكائها" أن نلوح له بالعصـا (حتى ولو كانت عصا وهمية).

لماذا لم يفعل أحد شيئا من أجل نفسه، حتـى ولا أنـا؟ وتلـك الجموع الهادرة لماذا لم تكن ترى السوء والتقهقر؟ ولماذا كانت تحيط نفسها بتلك النظرة الملتهبة وكأنها تصدر عـن الجحـيم؟ كنت أحس أنني أعرف (كل شيء) ولم أكن أعرف شيئا. كنـت أحوم حول لب الحياة دون أن أجرؤ على الولوج فيه. لماذا؟ لقد أدركت متأخرا (والإدراك دائما كذلك، وإلا كان إشراقًا) إننـي كنت بحاجة إلى شجاعتين لتغيير حياتي: واحدة تعـوض عـن جبني، والأخرى تعوض عن جبن الآخرين. ومن أين لي بهما، معا؟ عذر سخيف آخر أضيفه إلى أعذاري التـي لا تحصـى. وهجمت مقتربا منك.

كنت لا تزالين تغطين في غفوتك التي طالت. كنت أريـدك أن تقولي شيئا (أي شيء). لقد تركت، منذ أول الليل. وحيدا. حتى سفن الضوء البليدة راحت تستريح وفي المحيط المجابة للنظر لم يبق سوى الظلام: ظلام الضوء الخافت المنصلق من عل نحـو الأرض. مددت رأسي عبر نافذة الطابق السـابع والعشـرين،

أستطلع الفضاء، باحثا عن القمر. القمر الذي لم أره منذ سـنين. ماذا علي أن افعل لكي تفهمي؟ القمر، القمر الذي لـم أره منـذ عشرين سنة سوى مرتين، أين هو الآن؟ وأين هم أولئك الـذين تجمعوا، ذات نهار قائظ، حقي أن أعـرف كـل مصـدر مـن مصادر حياتي؟ أريد أن أعرف سبب تلك الهيستريا الجماعيـة التي كانت تركب الناس منذ أن يسمعوا "يلا يـا شـباب. يـلا يا شباب" حتى وإن قالها " البقال".

أريد أن أعرف مكونات تلك "البنية " التي فرغتنا من محتوانـا وحولتنا إلى مجرد مصفقين. ومن ثم دفعتنا إلى التخلي، بعد أن فتحت لنا الأبواب لنهرب، لنهرب تاركين لها كل شيء بما فيـه أمتعتنا الشخصية. لا، الآن إما أن نحكي لنفضح ذلك كله، أو أن نسكت إلى الأبد.

واقتربت منك، أهزك لتفيقي، لتقولي شيئا. كان إغراء إزعاجك أقوى من كل لياقة. ولكنك لم تكوني غافية أبدا. كانـت عينـاك تلمعان. مثل عيون الذئاب في الظلمة. ماذا كان يحرك كيانك في تلك العتمة الباريسية البائخة؟ وبمن كنت تفكرين؟ولماذا بقيت بلا حراك طيلة ساعات الليل المنصرمة. أتريدين منـي أن أجـن، وحدي؟ أن ألقي بنفسي من عل مثل الحجر المنكود؟ ذلـك مـا

سأفعل ولكن بعد قليل. ولم أصرح لك بذلك حتى لا تربطينـي. وفجأة صرت أقهقه، وأنا أضع وجهي بين عينيك، لـئلا تـري غيره:

- أنسيت كيف كانوا يقنعوننا بأننا أحرار؟ والحرية، عندهم، هي أن يمسكونا بين أيديهم وأن نتصرف(كما نشاء) بين مخـالبهم. وهل يمكن أن يتصرف ممسوك إلا بما يمليه عليه ماسكه؟
وصرت أبصق في الفراغ وأنا أردد "صراع الكائن مع محيطـه ليس صراعا سياسيا بحتا، إنه أعقد من ذلك بكثير".

كل ما فعلته حتى الآن لم يكن سوى التنفيس عن كرب، لا يمكن التنفيس عنه، لأنه غدا تاريخًا (أو تاريخيا، بالأحرى) أولا، ولأن مصادره ليست مصادري. ولكن ليس باستطاعتنا إلا أن نحيـا. وأن نحيا يعني أن نستمر في حربنا التي لا تتوقف ضد تفريغنا. وإن كانت في ظاهرها حربا وهمية، إلا أنها حرب ضد أعـداء حقيقيين، حقيقيين جدا، نكاد نعرف أسماءهم وسماتهم. نعرف ما فعلوه بنا وما لم يفعلوه. لكن الإحساس بعدم الجدوى في خوض حرب " وهمية" نقابل فيها أعداء ليسوا وهميين، هذا الإحسـاس المريع، ليس في حقيقته إلا بعض مزايا (تفريغ الكائن). وهـو أهم سلاح بيد هؤلاء الأعداء. من جهتي صرت أفضل الاحتفاظ بإحساسي (المرهق)، والذي قد يدفع بي ذات يوم إلـى سـاحة "الفعل المنتظر" على أن أتقدم خطوة مزعومة إلى الأمـام بـلا إحساس. صرت أدرك الآن، أن الأمر لا يتعلق بمسألة (أو حتى حرب) تجارية،هدفها الربح "العابر" أو الخسارة "العـابرة " بـل (بتحطيم جهاز المناعة النفسي للكائن)، وذلك بتقـويض بنيانـه وتشويش توجهاته" و حتى الأكثر غريزية منها"، من أجل إتمام

عملية تدجينه، وإلحاقه "بقطيع اللامبالين": قطيع الـدجاج الـذي يبيض كل يوم ذهبا وهو يصفق (لحماقته)، فرحا بجناحيه اللذين لا يسعفانه حتى على السير، (بله على الطيران).

صرت أتمنى لو أملك إسفنجية سرية، أسـتطيع إدخالهـا فـي رأسي. أمررها يمينًا وشمالا ماحيا بها مل ما تراكم فيه من قبل بما فيه حبك السليط. ولكن كل شيء فـي الحيـاة ممكـن، إلا الرجوع إلى الوراء. ماذا بإمكاني أن أفعل إذن غيـر التصـدي لذلك الخال الرهيب؟ غير مواجهته، وتقبلـه،" أو عـدم تقبلـه" واستخلاص النتائج منه" لا العبر والأحكام فحسب" وفجأة دهمني صوتك الرهيب وكنت أحسبك، تنامين:

- لماذا لا تفعل ذلك يا موزع العقول على العالم؟ لقـد ظننـت دائما أنك من صنف الكائنات المزيفة إلا أنني لم أكـن أحسـب أنك، أنك مزيف إلى هذا الحد. وما هو الزيف الذي ألومك عليه؟ (قلت متسائلة، وبعد برهة تابعت) هو أنك لا تريد أن تعتـرف بسطوة الواقع الذي يتجاوزك كل يوم.
أحيانا تحكي عن قيم غدت "أسطورية" لشدة اهترائها. وأحيانًـا تطلب من الآخر إجـراءات لا يمكـن التـردد برفضـها، ولا

المساومة في انتهاكها. من أين لك بهذا الشغف المميت؟ ومـن يحشو رأسك اليابس بحشوته المجنونة. هذه؟

-ليس ثمة منفذ، إذن؟ كل شيء معروف ومحسوب! لكن اليأس ليس حلا، وهو بأية حال ليس موقفا أيضا ثم من قال لك أن كل ما يعرفه الآخر عنا صحيح، مع أننا نحن قد لا نعرفه عن أنفسنا (وهذا ما هو واقع في أغلب الأحيان). وهو ما يسمح لي، هـذا المساء، أن أعلن عدم اهتمامي الكامل والصريح بكل ما قلته منذ أول الليل. لم أكن أبحث عندك عن تـأنيبي،أو تـأثيمي. كنـت أتصور أنني معك سألقي ما أضعته منذ زمن طويل ولـم أجـد سوى المجابهة. كنت أحسب أن عدونا مشترك. وأنـك مثلـي تريدين الخلاص من القيود التي كبلتنا. ولم أكن أعرف أن تطور العقول، هو الآخر مثل تطور الأجساد مختلف لا مؤتلف.

بدأت الريح فجأة تعوي. ما إن فتحت نافـذة الطـابق السـابع والعشرين " للمرة الألف" حتى لفحني الهـواء العـالي. هـواء رمادي اللون، مملوء بقشور مختلفة الحجوم. له رائحـة مثـل رائحة السفن المحكمة الإغلاق. لم يكن الهواء صاعدا من النهر بل آتيا توا، من الغيران: غيران الجو الملوث إلى حد الموت.

وكأن ما قلته لم يكن أكثر من هرج بلا معنى، سمعتك، من جديد ترددين باعتداد على مسامعي (التي صارت تشتهي الصمم):

- في الحياة ليس ثمة منفذ، وبخاصة بالمعنى الذي تريده أنـت. لماذا؟ لأن مفهوم "المنفذ" أو المخرج أوالخلاص أو ما شـاكلها من مفهومات، هو ببساطة ضد طبيعة الإنسان. وإلا لكان مـن السهل أن تنفذ الناس جميعا منذ أن تحـاط بحصـار الفشـل أو الموت أو النكوص. (فجـأة سـكتِ شـاحذة نفسـك المتقطـع بإصرار):

-في الواقع ثمة من يختارون حياتهم وثمة من يختـارون لهـا. وثمة من هم لا من أولئك ولا من هؤلاء (وأنت مـنهم). لـيس ذنبي أن تكون ما أنت عليه، إلا أنني سأكون مسئولا لو أقنعتـك بعكس ذلك، هذا كل ما في الأمر.
كنت تتكلمين، في الوقت الذي كنت فيه أقوم وأقعد. منذ متى وأنا أقوم وأقعد، أتطلع شغفا دون أن أقـول شـيئا؟ كانـت (سـان سيباستيان) مثلوجة وبيضاء كالقطن. وكنت لم أفـارق الوجـه الهادئ منذ الساعة الثامنة صبحا.

قضيت الليل كله، ماشيا على حواف المحيط الأطلسـي، وأنـا أتمتم بخشوع: بحر الظلمات، بحر الظلمات. وعندما سألتني إن كنت عربيا كان السؤال يختلط (وكأنه مسحور) بـ" تلك" المرأة اللذيذة، ذات الوجه الحنطي، مثل سـنابل الجزيـرة المشـوية بالشمس. وباختلاطهما اختلطت نفسي علي وأنا أحدق بهلع فـي الوجه، منتظر حركة – الشفاه. في اللحظة الحاسمة نادتني:

-دوني مو سا (اعطني هذا). وناولتها، هلعا، جوازي المـزور. ودون أن تنظر فيه، خطت به بيدها الرقيقـة خطوطـا، كـان يصعب علي، آنذاك، فكها، وأعادته إليه باسمة:

-"مرسي، مدام"(شكرا سيدتي) الكلمتان الوحيدتان اللتان كنـت أتقن لفظهما. وضحكت. وضحكت كثيرا لضحكتها الدافئة علـى شواطئ الأطلسي البارد. ولما رأت أنني لم أفك حروفها قالـت: "كارانت ويت هور دي بساج"-"٤٨ساعة عبور". ونظرت إلـي وكأنها تنقذني من الغرق: " فوزيت هورو"؟ (أنـت سـعيد)؟ - "تريز هورو" (سعيد جدا) ولم أنصرف. ولم تنصرف نظراتـي المتوسلة عنها. كان البرد في صفي، وكانت هي تنعم بالـدفء. دفء في جو محيطي بارد. لابد أن ذلك شديد المتعة مثل مـن يأكل بنهم أمام محروم من الأكل. ولمـا لـم أتحـرك سـألتني بإلحاح:

-تريد شيئًا أخر؟

-كنت أتمنى الحصول على أسبوع، أسبوع واحد فقط. (وكنـت قد حفظت خلال الشهر الذي قضيته في مدريد درسي) وأضفت، قبل أن تسألني، بقية الدرس الذي كنت أحفظه غيبـا: "أريـد أن أقضي رأس السنة عندكم في باريس". وشهقت:

-"فوزيت فو؟"، (أنت مجنون؟)

-"وي مدام" (نعم سيدتي)، قلت ضاحكا لها من كل قلبي.

بتصميم، خطفت الجواز المزور، من جديد، ودونت فيه رأسـا: ٢٠يوما،هل يكفيك؟

-عشرون يوما؟ أردد خلفها وأضحك. أضحك من كـل قلبـي. أضحك في بياض الثلج الذي كان يغطـي المدينـة الصـغيرة اللاطئة على حافة الأطلسي. المدينة التي مشيتها خـلال ليلـة واحدة عشرات المرات بانتظار الصباح، آملا في الحصول على تأشيرة المرور. عشرون يوما غدت عشرين عاما ولم أضحك، مثل تلك الضحكة قط.